عبد الإله بن عرفة

رواية

عُنَاثة

"أُمّ الرَّحْمَة"

دار الآداب

عبدالإله بن عرفة

خُناثة ألر الرَّحمَة

رواية

دار الآداب

جميع الحقوق محفوظة©

إهداء

إلى أمِّي؛ إلى المرأة الصالحة العابدة الذاكرة؛ إلى صاحبة الصَّدَقات؛ إلى الحاجَة أُمّ السَّعد التي ما فَتِئتُ أتعلَّمُ منها كلَّ يوم. لا يَمُرّ يومٌ من دون أن تتصدَّق على ذَوي الحاجات، وتَرَى أنَّ الصَّدَقةَ مفتاحُ كلِّ الخيرات، على مذهب «الجُود مفتاح الوجود». أغبِطُها على ذاكرتِها الحيَّة التي تحكي الحياةَ في أدَقِّ تفاصيلها، على نحوٍ يجعلني مشدوهًا بهذه النعمة، ومنبهرًا بها.

ما أنا إلَّا فِلوّ حين أجلسُ إلى أمِّي طويلًا فلا أتكلَّم، وأترُكُها تحكي لي أشياء الحياة. فما تقولُه تاريخٌ حافِل، وحضارةٌ حيَّة تَنسُجُها ببراعةِ حَكيِها. وَدِدتُ لو أنِّي سُحالَةُ ذَهَبٍ مِن قِلادةِ لَبَّةِ صَدرِها، أو بُرادَةُ مَعدِنٍ من أواني مَطبَخِها، أو أحرُفٌ لَطِيفةٌ تُؤَثِّثُ حَكيَها.

لا أنسى دعاءَها لي «اللَّهم أعزِزْهُ وزَيِّنْهُ بينَ الأنام كما أعزَزتَ وزَيَّنتَ الجُمُعَةَ بين الأيَّام». أيُّ دعوةٍ هذه؟ وهل يملِكُ المرءُ أن يَرُدَّ بعضَ هذا الفضل؟

دُمتِ أُمَّ سعدٍ، عزيزةً شامخة كالنَّخلة الكريمة، ودامت لكم **أرحامُ** الأمّهات، فَهُنَّ **ألِفُ** الألفة، **ولامُ** اللَّمَّة، وراءُ الرَّحمة، **وحاءُ** المحبَّة، **وميمُ** المَبَرَّة.

ألر تِلكَ آياتُ الكِتابِ الحَكِيمِ

أَلِف لام را **لسابِقَةَ** أَتَتنا — بِصِدقِ الوَعدِ لا صِدقِ الوَعِيدِ[1]

أَلِف لام را لقد عَظَّمتَ أَمرًا — **يَشيبُ** لِهَولِهِ رَأسُ الوَلِيدِ

أَلِف لام را **مُبَشِّرَةٌ** تَجَلَّت — بِسَجدَتِها على رَغمِ الحَسُودِ

أَلِف لام را أَنِستُ بِهِ **خَليلا** — إِلَى يَومِ النُّشُورِ مِنَ الصَّعِيدِ

أَلِف لام را **بِميزان** صَدُوقٍ — فَصَلتُ بِهِ المُرادَ مِنَ المُرِيدِ

ابن العربيّ الحاتمي

فاتحة الرحمة

ولي وَتْرٌ يَهِيجُ إلى فَناءِ ... ويَرعُشُ عِندَ شاهِدَةِ تُشِيرُ

ويُذكِرُني **قَضِيبَ البانِ** شكلًا ... ويَحكِيهِ قَوامًا إذ يَسِيرُ

ويُطلِعُنِي حَدِيثًا عَنهُ وِترًا ... فَأصفُو بالبَها حتّى أُنِيرُ

ألا أنعِمْ بِذا وَتْرًا يُوالي ... علينا حَرَّ هَجرٍ إذ يُثِيرُ

ويُتبِعُ بَردَ وَصلِهِ حِينَ يُمسِي ... بأنغامٍ يَذُوبُ لها الفَقِيرُ

ألا فاذكُرهُ شَفعًا صَوبَ وِترِ ... إلى أن لا تَرَى أحدًا يُشِير

فَإن سَكَنَتْ إلى طَرَبٍ نُفُوسٌ ... عَرَتها خَشيَةٌ مِنها تَطِيرُ

وحاضرةٌ بها **أَلِفٌ ولامٌ** ... كذا راءٌ، بِساحَتِها بَشِيرُ

على دِيوانِ فاتحةِ تَلاقَوا ... بمملكةٍ، فَقائِفُهُم قَرِيرُ

فإن تَقصِدهُمُو سَحَرًا يُلَبُّوا ... فَكُلُّهُمُو مُشِيرٌ أو وزِيرُ

ناكَ الحُسنُ، والخِلَّانُ شِيبٌ ... وَمِن كَربٍ نَجا نونٌ خَبِيرُ[٢*]

وعند الحِجر أوقاتٌ وَرُكنٌ بها نَسَبٌ وَأرحامٌ تُجيرُ

وقد خَبِرَ البُغاةُ ثَباتَ قلبي إذا خارَت قُلوبٌ قَد تُغيرُ

وَلَولا البِيدُ ما خَطَرَت جِمالٌ وَلَولا الخُفُّ ما سَلَكَ البَعِيرُ

سَلِ الكانُونَ عَن خُبزٍ فإمَّا فَطيرٌ لا يُداوِي، أو خَمِيرُ

ولا حَجرٌ على الأختامِ إلَّا بمفتاحٍ، لِخَزنَتِها أَمِيرُ

فَذاكَ فَتًى يباشِرُها نهارًا وليلًا، ما تَراه سِوَى جَدِيرُ

هُوَ الوَتَرُ الرَّخِيمُ مَتَى تَساوى على عُودٍ ومِضرابٍ زَمِيرُ

لَقَد لاحَت نَسائِمُهُ عَلَينا كَوَردٍ ساحَ مِنهُ نَدًى نَمِيرُ

عبد الإله بن عرفة

«لا نعلم واحدةً من الحرائر التي دخلَت دارَ الخلافة العليّة من أزواج مولانا إسماعيل تشبه هذه السيِّدةَ أو تُدانيها همَّةً وصِيانةً وعَفافًا ورَزانةً وحَصافةَ عقلٍ ومَتانةَ دِين. كان لها كلامٌ ورأيٌ وتدبيرٌ عند مولانا أمير المؤمنين ومُشاوَرَةٌ...، وكانت له وزيرةَ صِدقٍ وبِطانةَ خَيرٍ، تأمُرُهُ بالخير وتُحَرِّضُهُ عليه وتتوسَّطُ في حَوائِجِ الناس. كانت له رُكنًا منَ الأركان».

رحلة الوزير الإسحاقي

***

أنا اللَّـهُ **أرى**، وبعين الرَّحمة أقضي وأرضَى، فاسمعوا قولي في الكتاب الحكيم، المفصَّل المُبين، والذي يُخرِج من الظلمات إلى نور اليقين.

في صحراء البِيضان من بلاد شنقيط، كانت الصَّبِيَّة خُناثَةُ تلعب مع صويحباتها لعبةً تدعى «اكرُور»، وهي عبارة عن كُرَيات ملوَّنة مصنوعة من نَوَى ثَمَرِ شجرٍ صحراويّ، تُلقَى لتستَقِرَّ على حُفَرٍ صغيرة. جلست البنات تحت نخلة على أرض رمليَّة، متلفِّعات في مَلاحِفِهِنَّ التي تَشُفُّ عن أجسادهنَّ بسبب الحَرّ، ولم تكن نساء الصَّحراء يسترنَ أنفسهنَّ إلَّا بثوب واحد يدعى «المِلحَفَة»، تَلُفُّهُ كلٌّ منهنَّ بطريقة مُعَيَّنَة على الجسد، بحيث تمسكه المرأة خلفها ثمَّ تأخذ بطرف الثوب وتَمُدُّ ذراعها اليُمنى، ثمَّ تَجُرُّ هذا الطرف وتَعقِدُهُ فوق ثديها الأيمن، ثمَّ تأخذ من جهة اليسار وتعقده فوق ثديها الأيسر، ويكون رأسُها خارجًا من بين فُرجَة الثوب بين العُقدتين. وبعد ذلك، تَلُفُّ باقي الثوب لَفَّةً كاملة على جسدها حتَّى يُغَطِّيها بالكامل، ثمَّ تَلوِي طرفَ الثوب المتبقِّي على رأسها، فتبدو ملتحفة به بالكامل. لم تكن تلبس غيرَ هذا الثوب، الذي لا يحتاج إلى خياطة ولا حياكة. كان ثوبًا أبيضَ أو أسودَ، أو سماويًّا أو أزرقَ داكنًا يسمُّونه «النِّيلَة»، أخذًا من لون نَبتَة يستخرجون منها مادَّة تعطي هذا اللَّون. كانت ضحكاتهنَّ تملأ المكان، فلا رقيبَ عليهنَّ كَي يَسجُنَّ أنفُسَهُنَّ في الصَّمت حينما تختلِط أنفاسُ الرجال والنساء في فضاءات متقاربة. كانت البنات يُسلِّينَ الوقتَ بِلَعِبِهِنَّ عند بئر ماء حتَّى تَرِدَ الإبلُ، وتمتلئَ القِرَبُ بالماء، فَيَجلِسنَ لقضاء وقتٍ في اللَّهو إلى جانب بعض الخدم من نساء الحيّ اللَّائي كُنَّ يَسهَرنَ على سَقيِ الإبل بمساعدة بعض العَبِيد. كانت البنات الخادمات من السُّودان يكشفنَ عن صدورٍ ناتئة بأثداءَ تشبه تينًا باكُورِيًّا،

تتلألأ عليها انبجاساتُ الثَّعرُق، فَتُضفِي على أجسادِهِنَّ نَضارةً وحيويَّة.

كانت خناثةُ جميلةً بَضَّةَ الجسم، بيضاءَ البَشرة، مُشرَّبةً بحُمرة آسِرَة. وكانت أغلبُ نساء الصَّحراء جميلاتٍ لأنَّهنَّ يَسهَرنَ على تحسين خِلقَتِهِنَّ بعادات مُتوارَثة. كانت خناثةُ فتاةً في طور الصِّبا، لكنَّها كانت مُكتَمِلةَ الأنوثة بارزةَ الأعضاء في رَشاقةٍ ومَيَس. كانت الصَّبيَّة تأنَفُ من العادات الموروثة عند أهل الصحراء في تسمين النساء المرشَّحات للزواج، بحيث تتعرَّضُ المسكينات لألوان من العذاب والإهانة اليوميَّة، ويخضعنَ لشروط قاسية حتَّى يَبرُزَ جمالُهنَّ وتظهرَ مفاتِنُهنَّ. لم تكن خناثة تضَع حِلِيًّا تُزَيِّنُ بها صدرَها، بل اكتفَت بِسِوارَينِ فِضِّيَّين دَقِيقَي الصُّنع في مِعصَمَيها، ممَّا يُجيدُهُ صاغَةُ بلدِها. لعلَّ اهتمامَ والدِها شيخِ قبيلة البراكنَة وأميرِها المقَدَّم، بتعليم ابنته مبادئَ القراءة وحفظَ بعضِ سُوَرِ القرآن، قد صرفَ إلى حينٍ نساءَ بيتِها عن تسمينها كما تجري العادة بذلك للبنات المُقبِلات على الزَّواج حتَّى يتأهَّلنَ لمن يخطبوهنَّ. كانت خناثةُ تكره عادةَ التسمين التي تمارسها النِّساء الحكيماتُ في قبيلتها على الفتيات في مِثلِ سِنِّها، ولهذا كانت تبدو صَغيرةً بالمقارنة مع صُويحِباتِها اللَّائِي كنَّ أكثرَ امتلاءً. ولعلَّها لن تُفلِتَ من هذه الطقوس كسائر الفتيات، إذ كانت أمُّها تَسهَرُ على تَسمِينِها برفق.

هبَّ نسيمٌ عليلٌ ما لبثَ أن تقَوَّى حتَّى سُمِعَ حَفيفُ سَعَفاتِ أشجار النَّخيل المحيطة بالبئر. وبينما كانت البنات يمضينَ في لَعِبِهِنَّ، تزايدَت حركةُ الرِّيحِ حتَّى ارتفعت أثواب ملاحِفِهِنَّ فانكشفَت أجسامُهُن. ضحكتِ البنات لمَا تبدَّى بطنُ إحداهُنَّ فظهرَت عليه شُقوقٌ وخُطوط، فزاد ضحكهنَّ، وقالت واحدةٌ منهُنَّ لِمَن انكشفَ بطنُها: إيهِ يا العَزَّة، أصبَحتِ «مَفلُوتَةً».

سترت العَزَّة بطنها، فسارعت إحدى البنات إلى لمزها مرَّة أخرى: مَنِ العريسُ المرتقَب؟

فقالت العَزَّة: ليس مِن شأنِك يا بنتَ السَّالكَة.

فقالت لها: إهِّيه، ها قد ظهرَت خُطوطُ «التَّبطاط» على بطنِك حتَّى أصبحتِ «مَفلُوتَة»، ولم يبقَ إلَّا أن يأخذَكِ العريسُ إلى خيمته.

فقالت العَزَّة: هذه الخطوط خِلقَةٌ أصليَّة، وليست ناتجةً من التسمين.

ضحكت البنات مرَّة أخرى، وشكَكنَ في مقولة العزَّة، وقلن لها: دعكِ من الإنكار، إنَّما تظهرُ خطوطُ «التَّبطاط» بعدَ «البلُوح» (التَّسمين).

تكلَّمت كَحوائَة: من بَلَّحتك؟

ثمَّ أضافت، مؤكِّدة سؤالها: لعلَّها المعلِّمة سَلَّمبُوها؟

نظرَت إليها العَزَّة نظرةً مريبة، وأصدرَت صوتًا يفيدُ بالنفي، معروفًا لدى

أهل الصحراء، ثمَّ أضافت لتقطع الشك باليقين نهائيًا: «مانَ اللّـه»[1].

فقالت كحوانة: إهًيه[2]؟ وكأنَّها تُنكر إنكار العَزَّة.

تدخَّلت خناثة في الحديث، وقالت لسائر صويحباتها: مَن منكُنَّ بلَّحتها المعلّمةُ سَلَّمبُوها؟

فقالت كَحوانة: كلُّنا مررنا بين يدَيْ تلك المعلّمة القاسية.

فقالت خناثة: وكيف ذلك؟

فقالت كَحوانَة: اللّـه يجازيك بالإحسان يا خناثة، ألا تعرفين ما تفعله سَلَّمبُوها بالفتيات؟

فأصدرت خناثة صوت النَّفي عند أهل الصَّحراء بِوَضعِ اللِّسان خلفَ الثنايا، ثمَّ فَتحِ الفم فجأة حتَّى يَصدُرَ صوتُ صفيرٍ غيرُ صافٍ.

فقالت كَحوانة: سأخبرك يا بنت بَكّار، واحمدي اللّـه أنَّ والدك شيخ القبيلة لم يسمح حتى الآن بدخول تلك الأفَّاكة بيتَكم، لكنْ سيأتي الدَّور عليك لا محالة. فواللّـهِ لو ذُقت ما ذقناه من أصناف العذاب لكرهتِ الدُّنيا وما فيها من طيّبات، ولوصلَتْ بك الحال إلى كُرهِ الرجال، لأنَّ «البلُوح» إنَّما جُعل لهم كي يتمتَّعوا بنا، ويرضَونَ عن بدانتنا، وخطوطِ أجسادنا.

فقالت خناثة: ألهذه الدَّرجة بلَغَ كُرهُكِ للبلُوح؟

فقالت كحوانة: لو ذقتِ شيئًا من ذلك يا بنتَ الشَّيخ[3] بَكّار لما استغربتِ، فإنَّ كوابيس فترة البلُوح تسكنني، وأرى وجهَ سَلَّمبُوها القبيحَ يطاردني ليل نهار. وحتَّى وإن أنكَرَت العَزَّة أنَّها مَرَّت بين يديها، فالصَّنعة تَدُلُّ على الفاعلة، وخطوطُ جسدها المتشقِّقةُ تدلُّ على أنَّها عانت مثلما عانينا جميعًا.

زاد استغراب خناثة ممَّا تحكيه كَحوانة، فالتفتَت تُسائل سائر الفتيات بعينٍ مُستريبة، فطرحنَ عيونهنَّ أرضًا، كأنَّهن يُقْرِرنَ بصحَّة ما قالت كَحوانة. فلمَّا رأت إقرارهنَّ صمتًا على ذلك النحو، قالت: كانت أمِّي تطلب منِّي أن أشرب لبن الإبل في الصباح، ولكن لَمَّا آخُذُ كفايتي، كانت تتركني وحالي، ثمَّ أتناول شيئًا من حساء الشعير وبعض التمر واللَّحم في سائر الأوقات من دون إرغام ولا إكراه.

فقالت كَجمُولَة: احمدي اللّـه أنَّك من بيت شوكة ورياسة، والفضل يعود إلى والدك الذي لم يُرغمك على هذا الأمر لأنَّه يعلم بأنَّ التَّسمين، وإن كان مطلوبًا لزواج الصبايا الصحراويَّات، فإن جاهَه ومكانتَه على رأس القبيلة يجعلانك في غنًى عنه.

ثمَّ أضافت: إنَّ مصاهرةَ شيوخ القبائل أمرٌ مرغوب فيه، حتَّى وإن كانت بناتهم دميمات وقبيحات.

أدركَت كجمولة أنَّها تمادَت في قولها، وصَرَّحَت بما لا ينبغي لها، فاستدركَت سريعًا: حاشاكِ طبعًا يا خناثة.

نظرَت خُناثة بريبة واستِحقار إلى كجمولة، فسارعَت الأخيرة إلى تبديد ما بدر منها ممَّا قد يُفهَمُ أنَّه تنقيصٌ من جمال خناثة، وتعيير لها بالقبح والدمامة: لم أقصد يا بنت الشَّيخ بكار أنَّك قبيحة، بل أنت أجملُ بنات القبيلة، وحسنُكِ ظاهِر باهِر، وشبابُ القبيلة كلُّهم يتلصَّصون عليك، ويطمعون في الظَّفر بك، فأنت سِتُّ الحُسن.

فقالت كحوانة: ولماذا وصفتِها بِسِتِّ الحُسن يا كجمولة، فهي حسناء من دون سِتٍّ أو تِسع.

فقالت كجمولة، وقد بدر من كحوانة ما يوفِّر لها فرصة كي تُصَحِّحَ خطأها مرَّةً أخرى: لستِ هناكِ يا كحوانة، إهِّيه، ألَّا تعلمين بأنَّ كِرامَ العُربِ كانوا يخاطبون قديمًا نساءَهم بقولهم «يا سِتَّ جهاتي».

قالت كحوانة: لم أسمع بهذا من قبل.

فقالت كجمولة ظافرة: كان الرجل الكريم من العُرب إذا أحبَّ امرأته يناديها «يا ستَّ جهاتي»، لأنَّها تتراءى له من الجِهات السِّتّ. فيراها عن يمينه وعن يساره، ويجعلها من فوقه، ويأتيها من تحت، ويقدُمُها أمامه، ويُردِفُها خلفه. إنَّها تملأ عليه جهاته كلَّها، فلا يتطلَّع إلى جهة إلَّا وطلَعَت له منها. فأين من هذا طلوعُ الشَّمس والقمر. إيهِ مِن مُروءة رجال البادية حين تطلعُ النساء عليهم من كلّ المشارق والمغارب؟

ضحكت الصبايا من استطراد كجمولة، وكناياتها المتهتِّكَة.

ظهر الارتياح على خناثة التي أعرضت عن عِتاب كجمولة بعدما أثنت عليها، فسألت خناثةُ صويحباتها: مَن منكنَّ يمكنها أن تخبرني عن كيفية البلُوح؟

سارعت كجمولة مرَّة أخرى إلى الجواب لتبديد ما بقي من ذيولِ لكلامها السَّابق: لقد بدأ الأمر بتَسميني أوَّلًا في بيتنا من قِبَلِ جدَّتي ثمَّ أمِّي، لكنَّ الأمر لم يكن بالإكراه، وإنَّما بالترغيب، لكنَّ ذلك لم يُفلح في زيادة وزني، فأرسلَت والدتي في طلب المعلّمة سَلَّمبُوها التي جاءت بِعُدَّتها ونَصَبَت خيمتها قريبًا من خيامنا. وجاءتني في أوَّل يوم عند الفجر فأيقظتني، ثمَّ ناولتني قَدَحًا كبيرًا مُترَعًا بلبن الإبل، وأمرتني بشربه، فبدأت أشرب لكنَّني توقَّفت، فأرغمتني على إتمامه. ثمَّ ناولتني قدحًا ثانيًا، وفعلَت معي مثل ما فعلَت في الأوَّل، فلم أستطع إنهاءه إلَّا بمشقَّة النَّفس. ثمَّ أخذَت قدحًا ثالثًا وقدَّمته إليّ وأمرتني بشرب محتواه، فلم أكَد أُصَدِّق، إذ إنَّ بطني لم يكن ليحتملَ هذه الكمِّيَّة الكبيرة كلَّها من اللَّبن في الصَّباح، فأخذَت تُوخِزُني

بأصابعها وتَقرِصُني على فخذي حتَّى أشرب. وامتثلتُ لها من شدَّة الألم، لكنَّ نفسي كادت تخرجَ لأنِّي كرهتُ اللَّبن ورائحته. لقد كانت الكمِّيَّة التي شربتها كبيرة جدًّا لا يَقوى عليها حتَّى أشِدَّاءُ الرجال ممَّن قَرَصَهُم الجوعُ والعطشُ، بل يشربون نصف قدح ويتركون الفُضالَة لغيرهم. أمَّا وأن تشربَ قدحًا كاملًا، ثمَّ ثانيًا ثمَّ ثالثًا ورابعًا، فقد كان هذا من رابع المستحيلات.

نطقت العزَّة أخيرًا: لا أعتقد أن الغُولَ والعَنقاءَ والخِلَّ الوفِي إلَّا مستحيلات ظريفة، بينما البلُوح، يا صديقتي، مستحيلٌ أشدُّ وَقعًا من تلك المستحيلات. إنَّ الغولَ الذي يزور البنات الصحراويَّات كلَّ يوم في خدورهنَّ هو هذا البلُوح النَّكِد.

فَرقَعَت كحوانة أصابعَها بتمرير الوسطى على الإبهام حتَّى يصدر صوت احتكاكهما، وهي إشارةٌ عند أهل الصحراء يقومون بها لمَا يغيب أحدهم مدَّة طويلة، فتكون تلك الحركة دليلَ عتابٍ على أنَّهم لم يروه منذ مدَة، وأنَّهم استبطأوا غيابه. وكأنَّ كحوانة وظَّفَت هذه الحركة لِتُفِيدَ بها عن طولِ صَمتِ العزَّة وإنكارِ تعرُّضِها للبلوح في بداية الأمر، ثمَّ أردفت قائلة: وأخيرًا نَطَقتِ بعد صمت، واعتَرَفتِ يا عَزَّة.

فقالت خناثة: دعوها، فإنَّ ما تحملينه من عذاب هو السَّبب في امتناعها من ذكر هذه المعاناة. ثمَّ التفتَت إلى كجمولة حتَّى تُكمِل حديثها.

فقالت كجمولة: بعد شرب اللَّبن، وقبل طلوع الشمس، كانت تقدَّم سَلَّمبُوها إليَّ كمِّيَّة كبيرة من الثريد أو الحِساء. ويعلم اللَّه بما كنت أقاسيه من أنواع العذاب مع هذا النِّظام الغذائيّ القسريّ. كنتُ أحِسُّ بانتفاخ، وأحلُم ليلَ نهارٍ بفارس يُخلِّصني من هذا العذاب، بل إنِّي كنت أحلُم بصورة مِخيَطٍ أفقَأُ به بطني الذي أصبح كالكرة المملوءة بالهواء. وكأنَّ المخيَطَ الحديديّ أقلُّ ضررًا، وأرأفُ بي من فعل البلُوح في جسمي. كنت أحسُّ بأنِّي أصبحتُ كالبحر الذي حُجِزَ عن الساحل حتَّى طَما وفاضَ على البرِّ فاكتسح كلَّ ما فيه. وكأنِّي بالرجال الصحراويِّين لا يقنعون من النساء إلَّا بأن يَكُنَّ على صفة من البدانة والسُّمنَة، بحيث إذا ركب إحداهنَّ الواحدُ منهم أحسَّ بنشوة عجيبة وهو يسبَح في بحر لُجِّيٍّ تتقاذفه أمواج اللَّحم والشَّحم في كلِّ الأرجاء. ألا يرون في المرأة إلَّا أن تكون سَتهاءَ يترجرج ردفاها، فإذا قامت تخطر، أقعدَتها إسْتُها التي تشبه الكثيبَ العظيم.

أيُّها الذكورُ رفقًا بنا، أفلا يُعَدُّ الرَّجل منكم فحلًا حتَّى يكون سَتِهًا، طالبًا المرأةَ السَّتهاءَ، قَرِمًا للأستاه العظيمة؟ فنحن بحار آدمية، أفلا تربأون بأنفسكم عن طلب تسمُّيننا حتَّى ننعمَ بالحياة ونفارقَ الخدور كي نعدو في الصَّحراء على ضوء القمر، ونسمعَ أحاديث البادية التي تخوِّفوننا منها،

ومن وحوشها وضِباعها. لا شكّ في أنّ غيرتَكم هي التي نسجَت هذه الأساطير التي تَسجُنُنا في سجون البَدانة والسُمنَة حتّى تَقَرَّ المرأةُ في ركن من أركان خيمتها لا تتحرّك، وكأنّها قِذرٌ راسية، أو صَخرة على رابية. إيهِ من هذا العذاب، إيهِ...

كانت كجمولة تتحدّث بألم عمّا كانت تعانيه، فقالت لها خناثة: واللّـهِ، لقد زاد كرهي لهذه العادات الجائرة، لكن أخبريني عن بقيّة يومك كيف تمضينها؟

فقالت كجمولة: كانت سَلّمبُوها لا تتركني أستريح، بل لكأنّها أصبحَت الأداةَ التي نُعَذّب من خلالها حتّى يرضى عنّا رجالُ القبيلة. فكانت تقدّم إليّ قدحًا من الزّريـگ (خليط من ماء ولبن) في الفترة الصباحيّة بعد طلوع الشمس. ولكِ أن تتخيّلي يا خناثة حالي ورغبتي الجامحة في أن أتقيّأ على هذه الماردة سلّمبُوها ـ اللّـهُ لا يَسَلّمها ـ التي كانت تتفنّن في ممارسة غوايتها المفضّلة على صبايا القبيلة بهذه الطريقة المخزية. انظري إلينا يا خناثة، إنّنا نبدو مترهّلات، كبيراتِ السنّ مقارنةً مع ما ينبغي لفتاةٍ في مثل سِنّنا أن تكون عليه.

فقالت خناثة: واللّـهِ، إنّي أشفقُ عليكنّ من هذا البلاء الكاسِح الذي يجعل الضّبيّة تبدو مثل امرأة كبيرة، وكأنّ البلُوح نوعٌ من الخداع الذي يخدَع العين، ويُوهِمُ بالتقدُّم في السنّ. هل هي رغبة في إسقاط طفولتنا من الحسبان؟ لكأنّ الأمرَ كذلك، ولكأنّي أرى أنّ أهلَنا في الصحراء يخافون فترةَ الطفولة، ويُصَرِّفُونَ رُهابَهُم على الفتيات الصغيرات فيعمدون إلى حذف هذه الفترة من حياتهنّ، وإبلاغِهِنّ قهرًا سنًّا متقدّمة. ألهذا الحدّ يكرهون الطفولة حتّى يُسقطوا طفولةَ الصبايا من الحِساب؟ لا شكّ في أنّ كلّ امرأة تعرّضَت للتّسمين لا تعرِفُ عن طفولتها إلّا هذه العذابات التي حفَرَت في ذاكرتها تُلمًا غائرًا لن يندَمِلَ مع مرور الأيّام. ولكأنّ مَن يُسقِط مرحلة الطفولة من حياة الصبايا، إنّما يُسقِطُ فتراتٍ أخرى من حيواتهنّ.

فقالت الفتيات جميعًا باستغراب: وكيف ذلك يا خناثة؟

فقالت خناثة: إنّ نظامًا بهذه القسوة قَمِينٌ باستعجال الوفاة جزّاءَ ما ينتُج من تكديس الجسد فوق طاقته، وشحنِه فوق قدرته، فتظهر الأمراض المزمِنَة، والعِلَلُ المُميتة. إنّ التّسمين، يا صديقاتي، حُكم جائر بالإعدام البطيء على الفتيات، وسأقاومه بكلّ ما أوتِيتُ من قوّة بعد الذي سمعته.

وكأنّ وعي الفتيات زاد بما سمعن، فقالت كجمولة: إنّني لم أنهِ بَعدُ الإخبارَ عن يومَ عذابٍ واحد من التّسمين، أفلا تَصبرينَ حتّى آتي على آخر النهار، فلعلّك تنادين في العالمين بِمُرُوقِ قومنا عن جادّة الصواب، ولعلّ

اللّه يسلّط على سَلّمبُوها وأترابها «التّازُبّةَ»[4] التي يعاقب بها اللّه المفسدين في الأرض.

فقالت خناثة: لقد بلغ السّيل الزُّبَى، ومن زَبّى بالشّر فلينتظرِ التّازُبّة حتّى يُطرحَ في الزُّبيَة كما يحدث للوحوش حينما تقع في حُفَرِ الروابي المغطّاة فتصطلي بالحَرّ وتُصاد.

لعلك تسمحين يا خناثة بأن أُكمِلَ رحلةَ العذاب اليوميّة. فبعد الزوال، تحرِصُ سلّمبُوها على أن تُطعِمَني كمّيّة كبيرة من الطعام من الأرزّ أو الثريد أو اللّحم.

فقالت خناثة: وبمَ كنت تحسين في أثناء تناول هذه الأطعمة؟

فقالت كجمولة: إنّ الإحساس ينعدم تمامًا لأنّ الجسم خرج عن دائرة شعور الإنسان، فكأنّه قِزبَةٌ لا تربطها صلة بما بقي من إنسانيّة. ودليلُ انعدام الشعور الرّغبةُ القهريّة في النوم. فلا شيء يبقى سوى أن نحتمي بالنوم من هذا العذاب المتواصل.

فقالت خناثة: وهل كنت تنامين فعلًا سائرَ النهار؟

فقالت كجمولة: إهْيه. لكن سلّمبوها ما كانت تتركني أنام لأنّها ابتدعَت لونًا آخر من ألوان العذاب أضافته إلى التّسمين.

فقالت خناثة: وما هو ذاك العذاب الآخر غير تسمين البلوح؟

فقالت كجمولة: كانت سلّمبُوها تنفرد بي في خيمة بعيدة عن خيمتنا، فإن رفضتُ الأكلَ أو استرَقَنِي النّومُ القهريّ قَضَمَت جلدي بأصابعها وقَرَصَتنِي بأظافرها، فيعودُ إليّ الشعورُ بأنّي ما زلتُ أُحِسّ بجسمي ينفعل. كانت تلك القَضَمات والقَرصاتُ عذابًا لا يُطاق يُضافُ إلى عذاب البلوح، فأمتثلُ وأشربُ مرّة أخرى أو أتناولُ الطعام. فإن غلبتني نفسي على رَدّه، قرصتني مرّة أخرى، ووخزتني بِعُودٍ دقيق في يدها. فإن عدتُ عادت، وإلّا كان عذاب التّسمين مرّة أخرى. وإن تماوَتَ جسمي من قرصاتها لجأتْ إلى عذاب أشدّ من قرصات أظافرها وغرزها في جلدي.

فقالت خناثة مستغربة: الويلُ لها، أهناك أشدُّ من الوخز والقرص؟

فقالت كجمولة: إهْيه يا بنت الشّيخ بكّار. لقد كانت تأتي بمقراض تُسمّيه الماردةُ «الزّيّارَ»، وهو عبارة عن قطعتين من الخشب رُبِطَ طرفاهُما بحبل، فترغمني على وضع قدمي بين الخشبتين، وتقوم هي بوضع قدمها على الطرفين الآخرين، فإن امتنعتُ من الأكل والشرب، ضغطتْ تلك الماردةُ على طَرَفَي القطعتين الخشبيّتين بشكل مؤلم جدًا يكاد يُوصِلُ قلبي إلى حنجرتي من الألم الشديد، فأضطرُّ خاضعةً إلى ابتلاع الطعام لتخفيف ألم الضغط.

فقالت خناثة: واللّهِ ما كنت أعلم بأنَّ الأمر على هذا الشكل، وأستغربُ كيف أنَّ أهاليكنَّ يصبرون على هذا التَّعذيب، ويوافقون عليه.

فقالت كجمولة: لم تسمعي بعدُ يا خناثة كلَّ عذاباتنا.

فقالت خناثة: وكيف ذلك؟

فقالت كجمولة: حينما تمتلئ معدتي ويكاد بطني ينفجر من تناول الطعام بكمِّيَّات كبيرة فوق طاقة الجسم على التحمُّل، وأحتاج إلى الذهاب إلى بيت الخلاء، أعزَّكنَّ اللّه، تمنعني اللَّعينة من ذلك، فيحدث أن أتقيأ قهريًا لأنِّي لا أملك غير ذلك، ولأنَّ الجسم تلقَّى فوق طاقته فيحتقنُ احتقانًا يُنذِر بالانفجار، ويقاوم كيفما يستطيع، فتأخذ الماردة قدحًا فارغًا وتسرع به لِتَلَقِّي القَيأة من فمي، ثمَّ تُجبِرني على شُربِ ما تقيَّأت مرَّة أخرى، عقابًا لي.

أبدت خناثةُ نفورًا واشمِئزازًا ممَّا كانت تحكيه كَجمولة، وأصابتها شبهُ رعدةٍ تَقَزُّزٍ اخترقت جسدَها كلَّه، فأغمضَت عينيها للحظة، ثمَّ قالت: ما هذه الوحشية؟

فقالت العَزَّة: هل تُصدِّقين إذا قلت لك إنَّ المعلَّمة كانت تجبرني على أكل لحم جَذيٍ كامل مطبوخ بالزبدة خلال يومين، إضافة إلى ما ذكرَت كجمولة، وذلك لتسريع تسميني.

فقالت خناثة: لا أكاد أُصَدِّق ما أسمع، وأستغرب كيف لجسمٍ أن يتحمَّل كلَّ العذاب والهوان هذين.

فقالت العَزَّة: إنَّ المعلَّمة كانت تُناولنا بعضَ الأعشاب التي كانت تساعد على الهضم، كي نتحمَّل هذا النِّظام القاسي من التَّسمين.

ثمَّ أردفَت كجمولة: تعمل هذه الأعشاب على توسيع المعدة وتُسَهِّلُ الهضم. وهي التي كانت تساعدنا على نسيان رائحة الطعام التي كانت تسبِّب لنا القَرَف.

ثمَّ رفعت طرف ملحفتها وأظهرت خطوط التبطاط على جسمها: لهذا تظهر هذه الخطوط والتشقُّقات التي يعشقها الرجال، وكأنَّهم يرغبون في أن نرسم على أجسامنا هذا العذاب مثلَ الوشم حتَّى نتذكَّره دائمًا. وما الخطوط إلَّا مقاومة يقوم بها الجسم والجلد في التوسُّع حتَّى يستوعبا تلك الكمِّيَّات المَهولة من الطعام. ولو تُركا على حالهما، لَما ظهرَت تلك الخطوط اللَّعينة. وكأنِّي بالرجال حينما يختلون بالنساء، يحبُّون أن يتذكَّروا، بتتبُّع هذه الخطوط، المساربَ نفسها في البادية.

ثمَّ أردفت، على سبيل الخلاصة، بالقول: لسنا يا سِتَّات سوى مسارب لحمية ومسالك شحميَّة لهداية شهوات رجالنا نحو دروب أخرى.

حاولت كحوانة أن تسير عكس اتُجاه كجمولة والعَزَّة، فأخذت ترسم صورة مثاليَّة عن البلُوح: على الرَغم ممَّا ذكرتنَّ من أمور عن التِّسمين، فإنَّ له مزايا، وهي أنَّ المرأة تتزوَّجُ بسرعة، ويخطُبُ وُدَّها الرجالُ، ويعتبرون تلك الخطوطَ دليلًا على الجمال. والمرأة السَّمينة عند أهل البادية امرأة محترمة مُقَدَّرة ومعروفة بالرزانة والاتُزان.

فقالت كجمولة: أُفٌّ لهذا الاتُزان الذي يجعل منَّا أحجارًا هامدةً مُلقاة في أركان الخيام لا نَقوَى على الحركة.

استمرَّت كحوانة في رسم صورتها المثاليَّة عن البلُوح: إنَّ التسمين، يا صديقاتي، يَقِي من العين والحسد، ويَدُلُّ على الغنى والجاه. وله ميزة أخرى، وهي أنَّ المرأة البدينة يصعُبُ اختطافُها من لصوص البادية وقُطَّاع القِفار، بينما يَسهُل اختطافُ النَّحيلات وإردافُهُنَّ على متون الخيول. وهل تخيَّلتنَّ ما يمكن أن يسببه الاختطاف من عبوديَّة وإهانة وذلّ، بينما التِّسمين عنوانٌ على حرمة المرأة وسلامتها ووقارها وستر عورتها.

فقالت خناثة: وكيف للبدانة أن تستر عورة المرأة، بل إنِّي أرى العكس تمامًا؟

فقالت كحوانة: لا شكَ في أنَّ الشَّحم واللَّحم المتدلِّيين من جسم المرأة البدينة في أسفل البطن، يستران عورتها، فلا تنكشف بسهولة عكس حال النحيفات.

فقالت كجمولة: ما بالك تدافعين عن عذاب سَقَر يا كَحوانة، فهل استقرَّ في ذهنك هذا الذلُّ حتَّى اخترتِه راغمةً؟ وماذا يَضُرُّ لو أنَّ ريحًا عبثَت بملاحِفِنا فكشفَت جُزءًا أثيرًا منَّا؟ أيستحقُّ هذا كلَّ العذاب الذي ذكرتِ؟

فقالت كحوانة: بلى، ليس هذا ذلًّا، وإنَّما هو تفكُّرٌ في فوائد التِّسمين، وأضيف إليكم فائدة جليلة، وهي حينما يَقِلُّ الطعام ويَحُلُّ القحط، وينزل البرد القارس خلال فصل الشتاء، فإنَّ السُمنَة واقيةٌ من البرد على عكس النَّحيفات اللَّائي يُعانين آلامًا في المفاصل والصدر. ألا يروقُكِ حينما تفتخر أُمُّكِ قائلةً لقريناتها «ابنتي مَأكَمَةٌ يَضيقُ البابُ عنها»؟

فقالت خناثة: لقد سمعتُ اليوم ما زهَّدَني في التِّسمين، وإنِّي أنتظر فارسَ الأحلام من خارج مضاربنا لعلَّه يأتي من جهة الشمال، أو من جهة البحر ليخطفني بعيدًا عن هذه الكوابيس المفزعة.

فقالت كحوانة: لا يأتي من جهة البحر في بلادنا إلَّا الكفَّارُ.

فقالت خناثة: فليأتِ فارس أحلامي من أيِّ جهة كانت، وليخلِّصني من العذاب الذي وقعتنَّ فيه.

ثمَّ قامت إلى نخلة، وأسندت ظهرها إلى جذعها، واستغرقت تتفكَّر فيما

سمعته، وأخذت تستعرض في خيالها صورةَ فارس أحلامها الآتي من خلف مضارب قومها، وتُمَنِّي النَّفسَ بأن يكون أميرًا من الأمراء الذين تحلم بهم الفتيات الصَّغيرات. أمَّا أبناء قبيلتها، فلا يستحقُّون الزواج منها لأنَّ من رضي منهم أن تقاسي خطيبَتُه ألوانَ العذاب بالتَّسمين، لا يمكن أن يكون أهلًا لها. ومضت تُفَكِّرُ على هذا النحو، بينما استمرَّت البنات في لعبة «اگزُور».

***

رجعت خناثة إلى خيمة والدها الكبيرة ذاتِ العِماد المتعدِّدة. وجدت جدَّتها مائةَ عند مدخل الخيمة الكبيرة جالسةً ترقُب الأفق، وتتنسَّمُ النَّسيمَ العليل، غيرَ قادرة على الحركة. كان هذا مكانَها الأثير لعدم قدرتها على الحركة. كانت امرأةً مُسِنَّةً، تشبه في وقارها خِيامَ البدو. أخذت خناثةُ كفَّها وقبَّلَتها، فطلبت منها الجدَّة أن تجلس إلى جانبها، وقد أحسَّت بتوتُّر حفيدتها، فقالت لها: ما لي أراك مُكدِّرةَ الخاطر يا خناثة؟

حاولت الحفيدةُ أن تنفي أمرَ التَّوَتُّر، لكنَّها عدلَت عن الإنكار، لأنَّ جدَّتها كانت دومًا تعتني بها وتحكي لها الحكايات الجميلة. كانت امرأة حكيمة، خيِّرة، في عينيها حزنٌ دفين لعلَّه جرحٌ قديم ترك ندوبَه في نظراتها. كان في كلامها دومًا، مَعانٍ عميقة.

قالت خناثة: لقد كنت مع بنات القبيلة، فقلَّبنَ مَواجِعِي بما أخبرنني عن عادة التَّسمين، فصرت أكرهها كرهًا لا يُطاق. وإنِّي غاضبة من أن أُكرَه على هذه العادة السَّيِّئة.

نظرت الجدَّة إلى حفيدتها نظرةَ حنان، وكأنَّها كانت تتخيَّل حينما كانت في سنِّها، يملأها الإحساس نفسه بالظلم. فقالت لها: أنا أيضًا لا أحبُّ البلُوح يا ابنتي.

فقالت خناثة متعجِّبة: حقًّا لا تحبِّينه؟

فقالت الجدَّة: بل أكرهه، ولو قُدِّرَ لي أن أمنَعَه لَمنعتُه.

ازداد فضول خناثة حينما وجدت عند جدَّتها سَنَدًا لما تعتقده، وأحسَّت كما لو أنَّها تُخفي جرحًا قديمًا، فقالت لها: وما سبب كرهك للبلوح؟

تنهَّدت الجدَّة مائةُ وقالت: كنت صغيرةَ السِّنِّ مثلَك، وكانت لي صديقةٌ في مثل عمري. كنَّا نحبّ، إحدانا الأخرى، كالشقيقتين أو أكثر. لا يكاد يُسفر النهار حتَّى نلتقي، ونبقى نلعب طوال النهار. كنَّا نقتسم كلّ شيء: أحلامَنا ومخاوفَنا، أسرارَنا وتفاهاتِنا. عشنا في سعادة لا مثيل لها. ثمَّ حدث أن تقدَّمَ أحدُ الخُطَّاب إلى صديقتي، وحدَّد مُهلَةَ سَنةٍ حتَّى يَتِمَّ الزواج، واشترط تسمينَ الفتاة حتَّى تَصلُحَ كي يدخُلَ بها.

فقالت خناثة: مثل هذا هو الذي ما زال يحدث، فماذا وقع؟

فقالت الجدّة: تولّت إحدى المعلّمات تسمينَ صديقتي وأكرَهَتها عليه. كانت فتاةً رقيقةَ الشعور، خفيفةَ الروح، تعشَق الجمال وتتنسَّم الحرِّيَّة والبراءة، وتكرَه الظلمَ والعدوان. فلما أُكرِهَت على التَّسمين، استَشعَرَت في ذاتها ظلمًا لا يُطاق، وكانت تسارِرُني بآلامها وأحزانها، فنبكي معًا حينما نلتقي وحينما نفترق. تحوَّلَت تلك السَّعادة إلى شقاء، وتكدَّرَت الحياة من حولنا. لم نَعُد تينك الظبيتين الشاردتين في كِناسِ اللَّامبالاة. تعاظمَت خِلقَةُ صديقتي، وأصبحَت مخلوقةً مرعبة، لأنَّ نفسَها أظهَرَت كُرهَها للتَّسمِين فانعكس ما في النَّفسِ على ظاهرها. كان مُحَيَّاها مثلَ المرآة العاكسة لما في باطنها. استمَرَّ عذابُها عدَّةَ أشهُرٍ، فلمَّا حَلَّت لَيلَةُ الدُّخول بها، أسلَمَتِ المسكينة الرُّوحَ إلى بارِيها، وماتَ فيَّ أنا شيءٌ اسمُهُ الحبّ. لقد كان رفضُها للتَّسمين بالحال، فأسلَمَت إلى الحَينِ روحَها، وكأنَّها كانت تقول لمن أكرهَها على ما كانت ترفضه، هآنذا أُسلِمُ رمقي فَخُذُوا جسدي المُترَعَ بأرطال الشَّحم واللَّحم بعدما مجَّتهُ روحي. كانت صدمةً لا تُقاس؛ كارثةً بكلّ معنى الكلمة؛ حُزنًا يَسقِي القلبَ حَينًا في كلّ حِينٍ. لم أحتمِل فراقَها وحَزنتُ عليها أشهُرًا طويلة. بكيتها بروحي قبل عينَيَّ، وَرَثَيتُها بقلبي وحالي، وَوَدِدتُ لو أُلحَقُ بها. رأى أهلي نُحُولي وسوءَ أحوالي، فلم يرغموني على عادة التَّسمين، لكنَّهم بلَّحُوني مع ذلك بدرجة أقَلّ. قَبِلتُ الأمر، وذاتي كلُّها ترفضُه. لقد أخَذَ منّي التَّسمينُ أعَزَّ مخلوق. قَبِلتُ أن أعاني المعاناة نفسَها لعل الموتَ يأخذني كما أخذ من قبلُ صديقتي. لم يعد هناك شيء يربطني بالحياة. لقد ماتت شقيقةُ الرُّوح. ومرَّت الأيَّام والشهور وتزوَّجتُ من غير رغبة وأنجبتُ، وما زالت هذه الصدمة إلى اليوم تؤرّقني.

توقَّفَت جدَّتي عن الكلام، خنقَتها العَبرة، وسالت دموعُها في صمت. أدركتُ حينها حجمَ المعاناة التي عاشتها في حياتها، فازداد كرهي لهذه العادة السيِّئة. في القبيلة، لا ملكيَّة فرديَّة حتَّى لجسدك، وإنَّما أنت مُلكٌ للجماعة. فالقبيلة هي التي تريد التَّسمين، والنساء هُنَّ مَن يسهرنَ عليه، ويُرغِمنَ الفتياتِ على تناول كمِّيَّات هائلة من الطعام، وينتهكن حرمة أجسادهنَّ بالتَّعذيب إذا رفضن تناولَه.

انتفضَت جدَّتي من غفوتها، وقالت: لقد كانت تحكم هذه البلادَ قبل قرون عديدة، كما بَلَغَنا من حكايات الجدَّات، فتاةٌ تدعى نونة. أرغمها أهلها، في ذلك العصر، على التَّسمين، فرفضت وحملت لواء المقاومة، وهربت من ربوع قبيلتها، ثمَّ صارت تُغِيرُ على القبائل وتَخطِفُ الصبايا. التحقَت بها

كثيرات ممَّن سمعنَ بها حتَّى أصبح عددهن كبيرًا. كانت نونة ذات شخصيَّة قوِيَّة فجنَّدت الصبايا ودرَّبتهنَّ على الحرب والمقاومة، فهاجمنَ القبائل وأسَّسنَ قاعدةً كنَّ ينطلقن منها ويَعُدنَ إليها بالغنائم والرَّقيق من الرجال الذين صاروا في خدمتهنَّ. ثمَّ ازدادت قوَّةُ نونة ونفوذُها، فأسَّست مملكةً أصبحت تُعرَفُ باسمها، وازدهرت. بنت الملكة نونة قصرًا عجيبًا، وعاشت هناك مع سائر الحوريات المحارِبات. استعبدن الرجال الأسرى، وأجبرنهم على خدمتهنَّ. كان يخطب وُدَّها ملوكُ الأرض، وسُمِّيَت مملكتُها ببلاد نون، وهي تحمل هذا الاسم إلى اليوم. كم تمنَّيت أن أكونَ الملكةَ نونةَ حتَّى أعيدَ أمجاد مَن سلفنا من نساء هذه البلاد الكريمة المعطاء؟ لكنِّي لم أكن بشجاعة تلك الملكة التي حقَّقَت هدفَها، وحزمها، واستطاعت أن تنقذ كثيرًا من الفتيات من عقوبة التَّسمين. لقد منعَت تلك العادةَ في مملكتها، وتزوَّجت من مَلِكٍ جاء من بلاد بعيدة، وافقها الرأي فيما ذهبَت إليه، واتَّحدَت مملكتُه مع مملكتها حتَّى حكما بلادًا واسعة. وبعد عقود طويلة، حلَّ الخراب بتلك المملكة العظيمة، ثمَّ عاد الناس إلى قديم عوائدهم بإرغام البنات على عادة التَّسمين، لكنَّ للنساء الصحراويَّات مكانةً ليست لغيرهنَّ من النساء في سائر البلاد. فالمرأة محترمة، وكلمتها مسموعة في مجتمع البيضان، وهذا من أثر الملكة نونة.

تفكَّرَتْ خناثةُ في كلام جدَّتها، وعَجِبَت من حكاية الملكة نونة، وقرَّرت أن تكون هي أيضًا مثلَها: سلطانةً تحكم هذه البلاد، فكيف يمكنها أن تحقِّق هذا الحلم المستحيل؟

نادتها والدتها من ركن قَصِيّ في الخيمة، بينما هي تفكِّر فيما قالته جدَّتُها مانةُ، والاحتمالاتِ التي فتحتها أمامها. خرجت عن ذهولها وراحت ناحية والدتها، فوجدتها تتحدَّث إلى المعلِّمة سَلَّمبُوها. بدت منها نظرةُ مُريبة ومنزعجة، فأرادت أن تعود أدراجها إلى جدَّتها لتترك المرأتين تتحدَّثان، فنادتها أمُّها: تعالي يا خناثة، كنَّا نتحدَّث في سيرتك.

ثمَّ أضافت سَلَّمبُوها: تعالي يا عزيزتي، سأهتمّ بك كثيرًا حتَّى يرغب فيك كلُّ شباب القبيلة.

نظرت خناثة إلى المرأة نظرةً غاضبة جعلتها تُحجِم عن توجيه الحديث إليها مرَّة ثانية.

فقالت الأمّ: تعالي يا خناثة، إنِّي طلبتُ من المعلِّمة سلَّمبوها أن تعتني بك.

فقالت خناثة: إنَّني أهتمُّ بنفسي جيِّدًا، ولا أحتاج إلى مساعدة أحد.

استغربت سلَّمبوها كلامَ الفتاة، فقالت الأمّ: بل لا بدَّ لكلّ فتاة من مُتعَهِّدَةٍ

تُبرِزُ محاسنَها.

فقالت خناثة: أنا راضيةٌ عن نفسي هكذا، ولا أريد أن يهتمّ بي أحد.

فقالت الأمّ: لا شكّ في أنّك تعرفين أنّ من عوائدنا البلُوحَ، والمعلّمة سلّمبوها هي أفضلُ من يُتقن هذه الصَّنعة، وستبدأ في تبليحك بدءًا من يوم غد.

فقالت خناثة منتفضةً رافضة: لا أريد هذا البلوح، ولست في حاجة إليه، ويمكنك أن تصرفي هذه المعلّمة لتعتني بغيري.

فقالت الأمّ: ما هذا يا خناثة؟ كلّ البنات في قبيلتنا يتمّ تبليحهنّ، ولن تكوني استثناءً بين نساء القبيلة. فالرجال يحبُّون هذه التقاليد القديمة المرعيَّة.

فقالت خناثة: إن كان الهدفُ أن يتنافسَ في الزواج منّي شبابُ القبيلة، فإنّ منصبَ والدي على رأس قومِنا، كفيلٌ بأن يتسابقوا على خَطبِ وُدّه من دون حاجةٍ إلى تسميني.

فقالت الأمّ: لستُ متّفقةً معكِ يا خناثة، وإنّما البلوح مهمّ لأنّه يُظهرُ محاسن النساء، ويحبّبُهُنّ إلى أزواجهنّ. وإنّ لدينا عريسًا يرغبُ في الزواج منك. إنّه ابنُ عمّك.

صُعِقَت خناثة من تَرادُفِ هذه الأمور بهذه السُّرعة المباغِتَة، وزاد في غضبِها أنّ ابنَ عمّها المذكورَ دَميمُ الخِلقة، سَيِّئُ الخُلُق، وهي تَكرَهُه. وقد كان يُغازِلُها دومًا ويعاكِسُها، ويقول لها إنّه يَرغَبُ في الزّواج منها، فكانت تَرُدُّهُ وتُيئِّسُهُ من الزّواج بها. ولعلَّ الأمرَ الآن قد تطوَّر، فخافت خناثة من هذا الاحتمال. لا يمكنها قطعًا أن تتزوَّج مِن ابنِ عَمٍّ دَمِيمِ الخِلقَة، سيِّئِ الخُلُق. كانت الصَّدمَةُ كبيرةً عليها، فأرادت إنهاءَ الحديثِ على طريقَتِها حتَّى لا يتناسَلَ الكلامُ إلى أمرٍ لا تريدُه ولا تُحمَدُ عُقباه، فقالت: لقد قُلتُ كَلِمَتي، ولن أتراجَعَ عمّا قلت، فإنّي لا أرضَى بهذه العادَة القَديمة، ولا أُفَكِّرُ في الزّواج الآن، ولا يُمكِنُني أن أقبَلَ بذلك الدَّمِيم الذي يريدُ أن يتزوَّجني.

فقالت الأُمّ: إن رفضتِ فسَنُرغِمُك.

فقالت خناثة بغضب: سأكلّم بُويا الشَّيخ في الموضوع، فهو لن يرضى بتسميني مثل الدَّابّة للزواج من ذلك الجَرو الخَبيث.

ثمّ خرجَتْ مُسرعةً تكاد تتعثَّر على الأرض من شِدَّة تَوتُّرها وغضَبِها. كانت تعدو فوقَ الرَّمل، وذهبَت إلى أشجار نخيل مُنعزلة فجلسَت هناك وحيدة، وأسنَدَت ظهرها إلى جذع نخلة. كان الشيخ بكّار غائبًا في مغازيه التي كان يخوضها ضدّ الإمارات السودانيَّة المصاقبة لمناطق قبيلته، وضدّ زعيمها الأمير ناصر الدين البغدادي.

جلست خناثة تتفكّر فيما ينتظرها من سَلْمبوها وعذاب التّسمين، وإمكانيّة الزواج بمن تكره، لكنّها كانت تحس بشعور مزدوج: فهي أصبحت محطّ الأنظار، ويُنظَر إليها على أنّها دخلت طور النساء، وأصبحت متأهّلة للزواج على الرّغم من أنّها في قرارة نفسها ما زالت تشعر بأنّها صبيّة. فالصبايا ينضجن في الصّحراء بسرعة قياسا بالفتيان. وكثيرًا ما تتزوّج البنات في سنّ مبكّرة. هبّ نسيم عليل رفع طرَفَ ملحفتها عن جسدها فعاينت آثار «نيلَةِ» الثوب باديةً على الجسم. كانت نساء البادية يلبسن هذه الأثواب التي تترك لونًا كالحًا عليهن، لكن هذه المادّة كانت تحميهن من لسعات الشمس، وتجمّلُ أجسامَهن وتبيّضُها. وحين يغتسلن تبدو البشرة بضّةً ناعمة.

مدّدت خناثةُ رِجليها على الأرض الرمليّة، وأخذت تضرب إبهامَي قدميها، أحدهما بالآخر، وتخيّلت أنّها مثل الإبهام، إصبعٌ لا شأنَ لها سوى أنّها لا تستوي إلّا مع أخواتها من الأصابع. أخذت تحلم، مثل كلّ البنات، لو أنّ إبهامًا جاء ليتزوّجها ويخلّصها ممّا ينتظرها من البلوح أو التّسمين. يا ليت هذا الشابّ يكون إبهامًا مثل إبهامها، ويَسنِدها حين تلجأ إليه، ويحميها حين تفزع إليه. كانت خناثة جميلة بالمقارنة مع بنات قبيلتها. حاجباها مقوّسان، مع ارتفاع حاجبها الأيسر واستدارتِهِ عندما تَطرِفُ بعينها أو تومئ بها، على نحو يُضفي عليها حُسنًا ومَهابة آسرة. أمّا عيناها، فكانتا مثلَ سراب الصّحراء البرّاق، فيهما عمق وغَورٌ وانفلات وغموض تُربِكُ الناظرَ إليهما، ولا تُطلعه على شيء منهما سوى شعورٍ بالتّهَيُّب. آهٍ من تينك العينين الآسرتين اللتين تخترقان أشدّ القلوب قساوةً فتحيلانها رقيقةً عاشقة. لم تكن خناثة عبهريّة سَتهاءَ الردفين، بل كانت رشيقةَ القوام، نشيطةً بلا ثوانٍ، مثلَ سنديانة شابّة منطلقة، أو لِينَةٍ نافرة متأوّدة. ما أجملَ صبايا بَدوِ الصحراء في جمالهن الطفولي الآسر؟

كانت خناثة تراقب الأفق لعلّ والدها يعود من غزواته التي كان يقوم بها ضدّ القبائل السودانيّة خلف نهر قبيلة صنهاجة ـ غال (السنغال). وانتابتها فكرة مفادها أن تلحق به هناك، وسمعت فجأة صوتَ صهيلِ فرس من أفراس أبيها العِتاق التي أهداها إيّاها، وازدادت رغبتها في امتطاء الفرس. لكن، هيهات لصبيّة أن تقطع البيدَ والفيافي وحدها، والبادية مَهولَة مخوفة، وفيها الوحوش وأجلاف قبائل حسّان ممّن يقطعون سبيلَ غُتاة الرجال، فما بالك بصبيّة لا حول لها ولا قوّة؟ لم تكدُر هذه الهواجسُ خناثةَ، فقد شبّت على الشجاعة، وورثت من أبيها مخايلَ الإقدام، وليس غريبًا أن لقّبَ الناسُ الشّيخ بَكّار بالغُول، وأهلُ البادية أخوَفُ ما يخافون

من الغيلان الضارية التي تسكن القيعان والأودية. كانت خناثةُ شاردةَ الذهن تفكِّر في أن تمتطي هذا الفرس وتمضي به إلى لا أين حتَّى تقف أمام البحر، أو لعلّ فارسًا يأتي إليها ويأخذها. تذكَّرت قصَّة الملكة نونة، وأرادت أن تهرب مثلها إلى القفار، ثمَّ تؤسِّس مملكتها وتحرِّر سائر الصبايا من هذه العوائد والبلايا. لم تكن خناثة تَرهبُ وحوش البادية التي كانت منتشرة في الصَّحراء، ومنها الذِّئب والضبع، على الرَغم من أنَّهما يهجمان ليلًا على مضارب القبيلة فيأكلان الخِراف والأغنام. وقد سمعَتْ مرارًا من أبيها أنَّ في بلاد السودان وحوشًا ضارية، مثلَ الأسود والفهود والدببة، لكنَّها لم تَرَها من قبل. لم تكن خناثة ترهب هذه الوحوش كلَّها، وتساءلت في سرِّها: ألا تعيش الغزلان والمهور النافرة في تلك القفار، فما بالها لم تهجر مراعيها على الرَغم من أنَّها مَطمع لتلك الوحوش؟ أفتكون أقلَّ جأشًا من هذه الغزلان وتلك المهور؟ لعلَّها هي نونةُ هذا الزمان، فلتنطلقْ بلا توقُّف حتَّى يتوقَّف بها فرسها. ولتكن تلك البقعة التي يتوقَّف عندها، حدودَ مملكتها الجديدة.

هبَّت خناثةُ فجأة مدفوعة بحماستها نحو الفرس لترفع هذا التَّحدِّي. كانت دومًا تمتطي فرسها، لكنَّها لم تكن تبتعد كثيرًا عن مضارب قومها إلَّا حينما تكون مع والدها، لكنَّها اليوم تشعر بأنَّه ينبغي لها أن تنطلق وحدها، لتفكَّ هذه العقدة التي تربطها بمضارب القوم كما تُربَط الدوابّ، أو لتَشُدَّ أوثِقَةَ الخيمة. كان البدو يرتحلون دومًا من أجل النُّجعَة بحثًا عن الماء والكلأ، فما بالها تتردَّد في أن تعيش مثل البدو الأقحاح الذين يخترقون البِيد والقفار. ركنَت إلى هذا الإحساس، فعمَدَت تَحُلُّ عُرَى اللِّجام، وألقَت على متن الفرس حِلسًا، ثمَّ قفزت بسرعة على ظهره. همزته بقدميها فاندفع الفرس يعدو. خرجت أمّ خناثة وسَلَّمبُوها لما سمعَتا وَقعَ حوافر الفرس يسري تحت أرضيَّة الخيمة. حاولتا أن تتبيَّنا الفارس، فرأت أمُّ خناثة ابنتها تعدو بالفرس بعيدًا عن مضارب القبيلة، فنادتْ عليها مذعورة: خناثة، خناثة، تعالي، عودي إلى هنا.

لكنَّ خناثة كانت مأخوذة بنشوة الانعتاق والحرِّيَّة التي أحسَّت بها وهي على ظهر الفرس، و«ذَهَبَت معَ الرِّيح». لقد علَّمَها والدُها ركوبَ الخيل، فلم تكن ترهبها، بل كانت تحبّ الحرِّيَّة التي كانت تمنحها إيَّاها حركةُ العَدْوِ مقارنة مع بُطءِ مَشي الجِمال. أسرَعَت أمُّها تركض خلفَها، وفي إثرها سَلَّمبُوها التي كانت تخشى أن تُوَجَّهَ إليها تهمةُ هروبِ الفتاة إلى البرِّيَّة. لم يكن في المضارب إلَّا النساءُ والصِّبيَة والعجزة والخدم والعبيد. جَرَوا خلفها يتصايحون، لكنَّهم أدركوا أنَّها أبعَدَت عن مضارب القبيلة، فعادوا

خائبين. مَضَت خناثةُ تعدو، والريحُ تتناوشها من كلّ جانب حتّى دَمَعَت عيناها. كانت في غاية السّعادة، ولم تفكّر في نتائج ما قامت به، بل مضت تعدو بالفرس حتّى غاب عن تلك المضارب. مضى وقت طويل والفرس يعدو حتّى تعب من العَدوِ المُجهِد فَتَثاقَلَت حركتُه، وتحوَّلَ عدوُه إلى خَبن، وهو مَشيُ البَرِيدِ، وبه سُمّيَ البَحرُ الشّعريّ لخفّتِه على اللّسان وسهولته في النّظم، وإيقاعه المتناوب. كانت خناثة مسلوبةَ الإرادة، مغيَّبَةً عن ذلك الآنِ، بل لعلّها كانت في آنٍ آخر تُسابِقُ الرّيحَ حتّى تصيرَ في آنٍ ثانٍ، وأينٍ آخر. كان الفرس يتصبَّبُ من العرق، وأحسّت خناثة بحرارته المنبعثة من تحتها على الرّغم من حاجز الحلس، وزكمَتها أبخرتُه المتطايرة فعادت إلى حِسّها. توقّف الفرس فجأة بعد طول عَدو، وصار يَهُشُّ بِعُرفِهِ على متنه المتصبّبِ بالعَرَق يحاولُ أن يدفعَ الحَكّةَ التي سبّبَها رَشحُ العرق على بدنه. وجدَت خناثةُ نفسَها وحيدةً في البادية، ولا شيء في الأفقِ سوى بَسِيطٍ ممتدٌ وكثيبٍ تَكسِرُ بساطَته بعضُ الصخور الناتئة أو النباتاتُ السّائبة التي تقاوم وحشةَ البرية. بدأ الوعي يعود إليها، وأدركت شيئًا فشيئًا أنّها أصبحَت وحدها في هذه القفار الموحشة. وعلى الرّغم من رباطة جأشها، فإنّها بدأت ترتاع، وأخذت تتلفّتُ في كلّ اتّجاه لعلّها تلمَحُ شيئًا في الأفق. لم يكن معها ماءٌ ولا طعام، وأدركَت فجأة أنّها قد تكون تصرّفَت بشكل خاطئ، لكنّ كبرياءَها كانت تمنعها من الإقرار بخطئها، واستمرّت تُعانِد نفسها، وترفع قوسَ حاجبها الآسِر كما لو أنّها تَرُدُّ به كلّ تهمة قد تُوجّه إليها. أفي هذه القفار ستُنشئ مملكتها؟ ما أكبرَ الأحلامَ، وما أيأسَ الواقعَ؟ أدركتْ فجأة أنّ حلمًا مُهمًّا كان جميلًا وضروريًّا، إلّا أنّه ينكسر على أرض الواقع. نزلت عن صهوة الفرس، وأخذَت تربّتُ على صفحة عُنُقِه حتّى طمأنته، ثمّ أخذت تمشي على قدميها ماسكةً بلجام الفرس الذي أصبح طوقَ نجاتها الوحيد في هذه القفار. توقّف الفرس وأخذ يقضم بعض النباتات البرّيّة يَسُفُّ ما فيها من ماء ورطوبة، ويعتَلُّ بِلَوكِها تعويضًا عن الجهد الذي بذله في هذا العَدو الطويل والذي لم يتوقّف إلّا بعد أن بذل كلّ ما في وُسعه من قوّة وطاقة. أدركَتِ الفتاة أنّها تمادت في إجهاد الفرس فتركَتهُ يأخذُ أنفاسه ويقضِمُ تلك النباتات لأنّ ذلك كفيل بأن يمنَحه القوّة ليرجعَ بها إلى مضارب القوم. فإن أرهقَتهُ أكثر من ذلك فلعلّه يَهلَكُ وتَهلَكُ معه، ولا مُنقذَ لهما في هذه البرّيّة المقفرة، والخالية سوى من لهيب الشمس الحارقة، وسرابٍ أشعّتِها الخادعة، والبسيط الممتدّ أمام عينيها بلا نهاية كالعدم. كانت خناثة تُماشي الفرسَ وتتوقّف عند توقّفِه وتُربّتُ بين الحين والآخر على صفحة عنقه وتُقَبّلُهُ على غُرّتِه، فكان

يأنس بهذا الحنان في هذا القفر، كأنّه أحسّ بالوحدة مثلما أحسّت هي، وانحاشَ إلى خناثة كما انحاشَت إليه. كان يَثنِي قوائمَه المُحَجَّلَةَ بالبياض الناصع كأنّه ينحني لها. كانت الصبيّةُ حائرةً مذعورةً لأنّها فقدَت كلّ قدرة على تَبَيُّنِ الجهة التي أتت منها، إذ إن نشوةَ الركض قد أذهلتها فلم تنتبه. ثمّ إنّ هذا الفضاء تنعدم فيه الوجهات التي يمكن أن تكونَ علامات للسالك فيه. مضت خناثة وقتًا طويلًا على صهوة فرسها الوفيّ، لكنّها لم تتنبّه لذلك إلّا حينما بدأت الشمس تَصفَرُّ وتُسافِرُ نحو المغيب حتّى تسقطَ في عالم آخر، وتضيءَ لساكنيه مجدّدًا كما أضاءت هنا سلفًا. بدأت خيوط التّطفِيل تمتَدُّ فَتُعشِي العينَ وتبعَثُ على الرّهبة، حينما كانت تبعَثُ على الشوق والحنين في مواقِفِ الأنس. لمحت خناثة نخلة يتيمة في البرّيّة فقزّرَت أن تقصِدَها لعلّها تحتمي بغربتها عند عَمّة الإنسان، وشقيقةِ آدم. كانت النخلة تتراءى من خلف أشعّة الشمس الممتدّة فأنكرَت خناثة ما أبصرَت، وركبَها الشكُّ في أنّ النخلة التي لمحَتها ربّما تكون خيوطَ الشمس الخادعة. بدأ الذهول يسيطر على الصبيّة وكأنّ حالةَ غيبوبةٍ قد أصابتها، واستبدّ بها الهذيان فنسيَت ذُعرَها، وبدأت تتراءى لها أطياف من الأناسي في تلك البيداء. أنِسَت إلى تلك الأشباح، وكانت تظنُّها حقيقيّة. لا شكّ في أنّها من سكّان مملكة الملكة نونة. لاحظ الفرس غيبوبةَ صاحبته فَأخذ يَصهَلُ صهيلًا متواصلًا حتّى يُنَبّهَها من هذيانها وغيبوبتها.

كثيرًا ما كان المسافرون في الصحاري يعانون الهذيان الذي يسبّبه التعب والإعياء وشدّةُ الحَرّ، ويُسَمُّونَ تلك الحالة، باللّسان الحسّانيّ، «الرّلـگ». أدرك الفرس، بغريزته، ما حدث للصبيّة فعاود الصهيل، لكنّها لم تنتبه، وأحسّ بخوف غريزيّ تدركه البهائم بكيفيّاتٍ لا يعلمها الأناسِيّ. كانت خناثة قد تركَت اللّجامَ يسقط من يدها، وبدأت تهيم بعيدًا عن الفرس فعدا في اتّجاهها ثمّ دفعها بخيشومه حتّى سقَطَت. استيقظت حينئذ من غيبوبتها وهذيانها، ورجعت إلى رشدها، فسارعت إلى اللّجام الذي انفلَتَ منها وأحكَمَتِ الإمساكَ به. نظرَت في كلّ الاتّجاهات لعلّها ترى أحدًا، فبدَت لها تلك النخلة اليتيمة مرّة أخرى. لعلّها من بقايا واحة نخيل الملكة نونة التي كانت الصّحراء في عهدها جنّةً خضراء. لم تُفَكّر طويلًا. قفزَت على صهوة الفرس وحثّته على العَدو نحو ذلك الاتّجاه، فأدرك أنّ الغريب في القفار يحتاج إلى أن يتشبّث بأيّ شيء يَكسِرُ رتابة الصّحراء الممتدّة. كانت تلك النّخلة أملَ خناثة الوحيدَ، وقد أدرك الفرس بغريزته الإحساسَ نفسَه، فانطلق نحو النّخلة.

إيهِ أيّتها العَمّةُ الشاردة في البادية، كم يحتاج البدويّ إلى أن ينتسب إلى

الأشجار والأقمار والأحجار؟

توقَّفَ الفرس فجأة وأجفَل. دفعته خناثة فامتنع من أن يَمُرَّ بين نبتتين صحراويَّتين، وأخذ يصهل فربَّتَت على عنقه لكنَّه لَوَى رأسه في غير اتِّجاه النخلة، وأراد الابتعاد عن النبتتين. وكزَّته بقدميها فلم يمتثل، ورفع قوائمه الأماميَّة حتَّى كادت تسقط، لكنَّها تمسَّكت بعُرفه. حاولت خناثة أن تفهم ما يجري للفرس، ولماذا امتنع من مواصلة العَدو، فرأت شيئًا يتحرَّك تحت الرمل الذي بأصلِ النبتتين. حاولت مرَّة أخرى أن تدفع الفرس ليواصلَ عَدوه، فرأت رأسَ حيَّة يخرج من تحت الرمل. كانت تتوثَّبُ لتلدغَ قوائمه. ارتاعت خناثة وخشيت على نفسها وعلى الفرس، وسحبَت بسرعة فائقة اللِّجامَ إلى جهة اليمين، فأدار الفرس وجهه وسار في اتِّجاه معاكس، وانطلق أخيرًا يسابق الريح تاركًا خوفه عند النبتتين. وفي أثناء استدارته، كانت الحيَّة قد وثَبَت على قوائمه، فلم تُصِب إلَّا حافره، فوكزها به حتَّى ألقاها صريعة، وهَبَّ مسرعًا. خشيت خناثة أن تكون العَدُوَّةُ الخبيثة قد لَسَعَتِ الفرس، الأمر الذي يعني أنَّه سَيَهلَكُ بسرعة. لم تُوقِفِ الفرسَ، وتركته يواصل العَدو خشية أن تعترض طريقهما مثل تلك الحَيزَبُونِ الرَّقطاء. فمضى يعدو بسرعة كأنَّه استجمع آخر ما بقي فيه من قوَّة حتَّى ينجو بجلده من رُعبِ الرقطاء المترصِّدة، ولم يتوقَّف إلَّا عند النَّخلة. كان مُنهَكًا، لكنَّه استطاع أن يُنجِزَ مُهِمَّةَ الوصول إلى النَّخلة، فَلْيَمُتْ بعدها إن كُتِبَ عليه ذلك. ترجَّلَت خناثة من فوق صهوته وربَّتَت على صفحة وجهه تشكره على أن أوصلهما إلى النَّخلة. عاينتِ المكان حتَّى تتأكَّد من خلو السَّوامَ، فلم تَرَ شيئًا ذا بال. رفعت بصرها فلمحت بلَحًا ناضجًا، مُتدلِّيًا من أعذاقِه. زقزق طير مقيم هناك، وطار ثمَّ عاد إلى النَّخلة خشيةَ أن يترك ذخيرته النادرة لغيره. وبدا من حركاته كأنَّه انزعج من وصول هذين القادمين. بقي الطائر حذِرًا من حركات خناثة. وهي اطمأنت إليه لأنَّ وجوده يعني خلوَّ النخلة من أيِّ أفعى أو ثعبان، إذ لو كان السُّمُّ ساكنًا في أعلى النَّخلة لما استطاع الطائر البقاء. لفَّت خناثة طرَفَ اللِّجام على جذع النَّخلة وأفسحت للفرس كي يَربِضَ عند أصل جذعها، فبرك مُجهَدًا وحَكَّ عنقه على كُنافاته، بينما جالت خناثة في المكان تعاينه وتتعرَّف إلى ما فيه. وجدت بعض حبَّات البلح التي تحولَّت إلى رُطَب أسقطها على الأرض نَقرُ الطائر لها. جمعَتها وأكلَت منها بعدما نَهَشَها الجوعُ على الرَّغم من أن بعضَها لم يكن صافيًا لأنَّ الطائر كان قد عبث بها بعدما سَفَّ شَحمَها، ثمَّ عافَها فألقاها. لم تأنف خناثة من أن تقتسم مع الطائر الغريب الثمارَ نفسها، وأدركت لحظتها كيف أنَّ الإنسان البدويَّ يعيش مع سائر الكائنات التي

تملأ فضاء الصَّحراء في انسجام واندماج. إنَّه جزء من هذه الأرض، ويعرف أنَّ عليه أن يقتسم خيراتها الشحيحة، من ماء وطعام، مع مختلف الكائنات التي تعيش هنا. ثمَّ قدَّمت إلى الفرس بعضًا منها، فحرَّك عُرفَه امتنانًا لخنائة. أحسَّت بالعطش بعدما تبلَّغَت بالرُّطَب، لكنْ لم يكن معها ماء فراحت تبحث فلم تجد إلَّا بعض النباتات الصحراويَّة المقاوِمة للحرارة، أخذت بعض أوراقها الخضراء وصارت تعصرها وتلوكها حتَّى يتحلَّبَ الماء الذي في داخلها في فمها. كانت لخنائة معرفةٌ بمثل هذه النباتات التي كانت ترعاها الإبل. كان مَذاقها قويًّا، لكنَّها كانت تمزج الرُّطب بتلك الأوراق حتَّى تَخُدَّ من قوَّة ذلك المذاق. أحسَّت بعودة الحياة إليها، ثمَّ أخذت من تلك الأوراق حزمةً وقدَّمتها إلى الفرس الذي أخذ يلوكها ويعصر ما فيها من ماء. بدأت خيوط الشمس تستطيل وتغرق خلف الأفق. اكتست الأرض والسَّماء بحلَّة ذهبيَّة حمراء سرعان ما أخذت تذبل وتتضاءل حتَّى تحوَّلَت إلى ظلمة مُشرَّبَةٍ بحمرة داكنة. كان اللَّيل قد بدأ ينشر خيوطَه على وجه البيداء، فأحسَّت خنائة بقشعريرة الخوف على الرَّغم من أنَّها كانت تشعر ببعض العزاء مع سكان هذه البقعة: فرسها والنخلة والطائر الغريب. كان الثلاثة أُمَّةً من أجناس الأمم، اجتمع فيها الإنس والحيوان والشجر، إضافة إلى الجماد بأحجاره ورماله. في الصَّحراء تنحلّ الكثرة إلى الأجناس الكبرى والأنواع العالية. لو أنَّ فيلسوفًا نزل في هذه الأرض لصار حكيمًا من أوَّل وهلة. أبناء الصَّحراء حكماء بالفطرة من دون فلسفة لأنَّهم يعيشون الوجود بكلّ معانيه، ولا يحتاجون إلى الثرثرة بشأنه. نزل رداء الظلام يكسو الأرض حتَّى عَمَّى كلَّ شيء فانحسر الأفق وقَصُرَ النَّظر إلى أقرب الأشياء بلا تفاصيل.

هزعَ اللَّيل إلى الأرض وتولَّت الريحُ التصويتَ في هذا الأوان بين الفينة والأخرى، وكأنَّ بحر الظلام لا بدَّ له من أصوات حتَّى ينكسر. ما أرعبَ صوتَ الرِّيح في الظلام؟ إنَّ أبسط شيء في ظلام الصحراء يصبح غولًا ضاريًا ووحشًا مفترسًا. وكلُّ صوت يأتي أو يُدبِر يتضاعفُ حتَّى يُحدِثَ في النَّفس خوفًا مقلقًا، ورعبًا مُروِّعًا. كانت خنائة تستمع إلى كلّ صوت يأتي من حواليها أو من بعيد فتفزع تارة، وتهتزّ أخرى، ثمَّ تكوَّمَت قرب الفرس وأحسَّت بأنفاسه ودقَّات قلبه حين أسندَت ظهرها إلى ظهره، فأمال صفحةَ عنقه إليها كأنَّه يطمئنها. شعرت بحنان عجيب من قدرة البهائم على إدراك خوف الإنسان ورعبه من الظلام، بينما للدوابّ أُلفَةٌ به وائتِناس. أنِسَت إلى هذا الحنان وغَرِقَت فيه فألهاها عمَّا تُحدِثُه أصوات البادية في اللَّيل. ثمَّ اشتعلَتِ السَّماء شيئًا فشيئًا بِجَمرِ النجوم التي ملأت قُبَّةَ السَّماء

كأنَّها تَزُفُّ القمَرَ عريسًا في وِشاحِ دَربِ التَّبَّانة. تماهت خناثة مع السَّماء حين كفَّتِ الرؤية على الأرض، وانطلق البصر ينسُج للنَّفس أحلامَ الصبايا بأعراسِ البِيدِ الليليَّة. كانت السَّماء قريبة كأنَّها سَقفٌ على مرمى حجر. ونَشَبَت معركة عجيبة كانت قذائفَها الشُّهُبُ المشتعلة التي كانت تفسح الطريق أمام القمر ليتقدَّم وسط النجوم. كانت الشُّهُب عسكرًا يَذُودُ عن هذا العرس الحَفيل، وَيَصُدُّ كلَّ راصد ومترصِّدٍ ليقذفه بنيرانه المشتعلة في سرعة جنونيَّة، ثمَّ لا تلبَثُ أن تخمُدَ لتستمرَّ المعركة التي تقودُها شهب أخرى. كان هذا المنظر العجيب مَلهاةً لخناثة عمَّا كانت تقاسيه من الغربة في هذه الجَبَّانة العجيبة التي يظنُّ الغريبُ عنها أنَّها قفراء، بينما هي مليئة بالحياة التي لا يفطن لها إلَّا روَّادُها، المعالِجُونَ لِشِعابِها وَوِهادِها. ها هي خناثة بين أسرَةٍ، أفرادُها نخلةٌ وطائرٌ وفرَسٌ وأرضٌ رَخوَةٌ من الرَّمل ونجومٌ متعالية وشُهُبٌ متهاويةٌ وقمَرٌ يَخطُرُ في حُسنِهِ بين الجميع، ويُقَلِّبُ صفحتَه المبرقَعَةَ بالنور والظِّلال. يا له من منظر بهيج ومَحفِلِ رَوضٍ أريج. تنفَّستِ البادية بروائحها الليلية، وهبَّ النسيم عليلًا ينقُلُ عَزفَها عبر الكثبان البعيدة والروابي الحانية. سكن الجميع ولم يبقَ إلا حركة الشُّهُب التي تَصفِرُ حين تقترب، ثمَّ تخبو لتعود أخرى وأخرى. كان الليل سَمَرًا هادئًا على ضوء القمر، وبدأ البرد يتسلَّلُ إلى جسد خناثة فَسَحَبَتِ الجِلاس وتغطَّت به، وانحشَرَت بين ظهر فرسها وعنقه تطلب الدِّفء. أحسَّ الفرس بخناثة فأخذته رعشةٌ كأنَّه يدعوها كي تنفسحَ في مضجعها بكلِّ راحتها. ما أجمل هذا الشعور بين أنس ورهبة. تلك هي البادية، ولا ينقصها سوى سَمَر جميل مع أقران وأحبَّة. لكن هيهات هيهات، فُدونَ ذلك كثبانٌ ووديان، ثمَّ بسيطٌ وكُديات. أين الصبيَّة من مضارب قومها؟ صارت تفكِّر في أمِّها. ماذا ستقول لوالدها حين سيعلم بالأمر؟ ماذا لو هلَكَت في البرِّيَّة وافترستها السباع والوحوش؟ لعلَّ والدتها أرسلت بعض الخدم ليبحثوا عنها، لكنَّهم لن يعثروا عليها. فقد شطَت في البِيدِ، وأبعَدَت في المَزار، وخرجت تعدو على فرس حبيس لا يطلب سوى أن يعدو بعيدًا بعدما بقي وحيدًا من دون غيره من المهور والخيول التي راحت مع مَحلِّةِ والدها في حربه ضدَّ قبائل ناصر الدين البغدادي. مهما اجتهد الخدم في تعقُّبِ الفتاة فلن يعثروا عليها لأنَّها ابتعدت كثيرًا عن مضارب قومها، وساعدتها سرعة الفرس في ذلك. ماذا سيقول والدها حين سيعلم بالأمر؟ ماذا لو رجع ولم يجد خناثة؟ تسارعت الأفكار في ذهن الصبيَّة، وحاولت أن تنسج جميع الاحتمالات فلم تفلح في جعل ذهنها يصفو حتَّى يَعزِمَ على ما ينبغي لها أن تفعله. أرجأت أمرها إلى الصباح إن

هي بقيت في قيد الحياة. لعلَّ ضاريًا من الضواري أو سَبعًا من السِّباع يَشتَمُّ رائحة لحمها من بعيد فيطلب افتراسها. كانت الضباع والذئاب شرسة، وتصطاد في اللَّيل، فهل يا تُرى يحمل نسيم اللَّيل رائحتها إلى هذه السِّباع؟ باتت الفتاة جَزِعَةً مرعوبة متهمِّمة، وكلَّما زاد ذعرها انكمشت والتصقت بالفرس. كانت النَّخلة تظلِّلهما، وفكَّرت في أن تتسلَّق إلى أعلاها، لكنَّها كانت تخشى أن تَشُكَّها أشواكُ أصول السَّعَفات، وتسبَّبَ لها نزفًا قد يُودِي بحياتها. كان القمر يحرسهما مع نجومه العالية، وشُهُبِه الضَّاوية. مَرَّ اللَّيل في هزيع طويل، وتحوَّلت السَّماء أكثر من مرَّة، وكأنَّها مَناظرُ تعقُبُها مَناظِرُ، واشتدَّ البرد في الثلث الأخير من اللَّيل، فاقشَعَرَّ بدَنُ خناثة وارتعدت، ثمَّ تكوَّمَت في جِلسِها وارتمت على الفرس واحتضنته لتأخذ من حرارته لجسمها. كان الفرس وديعًا أليفًا فلم يجفل، وكان أثيرًا عند خناثة، لهذا آثرَ والدُها الشيخ بكّار أن يتركَه في مضارب القوم، ولم يستعمله في حربه مع ناصر الدين البغدادي حتَّى تركبه ابنته وتسلِّي نفسَها في غياب والدها. كان يحبّ ابنته ويُؤثِرها، فقد حازت الذكاء والبهاء، والسَّمتَ والحياء. مضت خناثة ترتعد في آخر اللَّيل، ثمَّ انتشرت لوامع الصَّباح قليلًا قليلًا إلى أن بدأت السَّماء تفنى من صُوَرها ومخلوقاتها اللَّيليَّة، وعادت الأرض من ليل فنائها إلى صُبح مَحيَاها، فتبدَّت ألوانها الكدرة، ومخلوقاتها النهاريَّة شيئًا فشيئًا، حتَّى تميَّزت كائناتها على اختلاف أنواعها وأجناسها. كان رمل الأرض باردًا. قامت خناثة وتثاءبت بسبب عدم النوم طوال اللَّيلة الماضية، ثمَّ مدَّدت أطرافها التي انكمشت طوال اللَّيل، وقام الفرس على قوائمه الأربع وقصد نبتة في النواحي سقاها ندى ليل الصَّحراء ففاضت بالماء. ومضى يقضم تلك النبتة حتَّى طعم وارتوى، ثمَّ حنحن بصوته وانتفض كي ينتعش جسمه من جديد من طول رقاده. فتساقطت حبَّات الرَّمل من متنه وحرَّك عُنقه كي يستعمل عُرفَه لإزالة ما علَّق به من حبَّات الرَّمل. أصابت بعضُها عينَ خناثة فَعَشِيَت لِلَحظَة، فاجتهدَت في فَركِ عينيها لِتُزِيلَ العَمَشَ والحَبَّةَ التي أعشَت بصرَها. تيمَّمَت ثمَّ صلَّت صلاة الصُّبح. كان أهل البادية حريصين على الصَّلوات أكثرَ من حرصهم على سائر الأركان. فمثلًا، يمكن لأحد البدو أن يترخَّصَ في أن يفطر في أثناء الصيام لمجرَّد صُداع بسيط في رأسه، بينما لا يمكنه أن يُسقِط الصَّلاة عن وقتها مهما يكن. وكان التيمُّمُ القاعدةَ عند البدو لندرة المياه.

تلفَتت خناثةُ يمنةً ويسرةً، بعدما أدَّت الفريضة، لعلَّها تلمح شيئًا قريبًا أو بعيدًا، فلم تصادف عيناها ما يُرجى أو يُخشى. لم يبقَ من الرُّطَب على الأرض إلَّا النَّوَى فقزَّرَت أن تصعدَ النَّخلةَ وتتخيَّرَ من جَيِّدِ عراجينها

وأعذاقها ما تتبلَّغُ به مع فرسها. كانت خناثة كسائر أبناء البدو الذين يحذقون في تسلُّقِ النَّخل منذ الصِّبا. ركبت فرسها وأدنَتهُ من جذع النَّخلة ثمَّ تعلَّقت بكُنافاتها الناتئة وارتقت على ساق النَّخلة بيسر وسهولة حتَّى وصلت إلى تاجها. اعترضتها فَسِيلَةٌ نابتة في أعلى الساق فأزاحت اللِّيفَ الذي في أصلها، فتفاجأ الطَّائر السَّاكن هناك مرعوبًا، ثمَّ انتفض مزقزقًا، وطار في الهواء. أزاحت خناثة الخوصَ المعترض ووصلت إلى عذقٍ متدَلٍّ بالبُسرِ والرُّطَب. تناولت منه بعض الثمرات الطَّيِّبة فأحسَّت بانتعاش كبير، ثمَّ قذفت بعضًا منها إلى الأرض، فجاء الفرس وأخذ يلتهمها بنهم شديد. بقيت خناثة معلَّقة في النَّخلة، وبعدما شبعت من أكل الرُّطَب أخذت تراقب الأفق فرأت سِربًا من الطيور تتطاير وتحطّ في موضع من الصَّحراء. خمَّنَت خناثة أن تكون حركة الطيور بحثًا عن طعام أو ماء. قذفت مرَّة أخرى بعض الرُّطَب على الرَّمل احتياطًا لزادها مع الفرس، ثمَّ بدأت تنزل. تلقَّفَها الفرس بمتنه، وهمزته فانطلق يعدو مُوليًا صفحة وجهه للنَّسيم العليل الذي يداعبُ خيوطَ عُرفِه المتطايرة، ويخترقُ بدنَه. كان سعيدًا بهذه النزهة الصباحيَّة في البيداء، فمضت خناثة تستحِثُّه إلى جهة الطيور، وكأنَّ الفرس أدرك مرادها فمضى يعدو غيرَ آبِهٍ بشيء. ولمَّا اقتربا من الجهة المقصودة كانت بعض الطيور منكبَّةً تُروِي عطشها قبل غُدُوِّها في طلب الرزق خِماصًا حتَّى تعودَ في العَشِيِّ بِطانًا. أجفَلَت من الفرسِ وصاحبَتِه، وصارت تزقزق كأنَّها تحتجّ على انتهاك صباحها بالإثارة والإغارة هاتين، لكنَّها استسلمت، فمن عادة الطيور ألَّا تحتجَّ كثيرًا، إلَّا الإناث منها على فراخها أو بيضها. كانت الطيور حسنَةَ التوكُّلِ، إذ إنَّ لَها السَّماءَ، ولغيرها الأرض، فَعَلامَ تحتَجّ؟ والرزقُ مخبوءٌ لها في كلّ ناحية، بينما هو لغيرها محدودٌ بانحِصارِ الحركة ومحدوديَّتها. نزلت خناثة من على الفرس وأقبلَت على غدير الماء المتجَمِّع في قَعرِ صَخرٍ كِلسِيٍّ أبيض. كان الماء كَدِرًا بعض الشيء، لكنَّها أخذت منه ورشَّت به على وجهها فانتعشَت، ثمَّ تناولت منه في كفِّها مرَّة أخرى وأخذت تشرب قليلًا حتَّى ارتوت. فسحت بعد ذلك لرفيقها فصار يروِي غُلَّته حتَّى ارتوى. كانت الطيور ترقب المتطفِّلَين الغريبين لكنَّها لم تناوِشهُما. ولما انتهيا من إرواء عطشهما، أفسحا للطيور مرَّة أخرى فنزلَت على ماء الغدير ترتوي.

توقَّفت الطيور فجأة عن الشرب، وارتفعت في الهواء وأخذت تتصايح. تعجَّبت خناثة من أمرها، فتلفَّتت يمنة ويسرة لتعرف السَّبب، فرأت قريبًا من ساقها، حَنَشًا يُدعَى «البُنَيِنَة» عند أهل البادية. كان أكثرُ لونِه الصُّفرةَ حتَّى لا يكادُ المرء يميِّزُه عن لون الرِّمال، لكنْ فيه نقاطًا سوداءَ هي التي

دلّت خناثةَ عليه لما رأتها تتحرّك قرب ساقها. قفزَت قفزةً سريعة، وقفز الحنش في إثرها. كاد يلسَعها لولا العنايةُ الإلهيّة. ولّت خناثةُ هاربةً، وكانت تعلم من حديث أُمّها بأنّ سُمَّ هذا الحنَش قاتلٌ لا يعيش الملدوغُ منه ساعةً أو ساعتين. توقَّفَ الحنَش لما ابتعدَت عنه الصَّبِيّة، إلّا أنّ جوقةَ الطيور زادت في صياحها وزقزقتها، فأفزعَتِ الحنَش الذي خرج من أصلِ نبتة جرداء في غفلةٍ عن الواردين. كان على ذنبِه طُفرٌ ناتئٌ وعلى جلده قشورٌ، فشعرَت خناثة بقشعريرة اخترقتها من رأسها إلى أخمَصِ قدميها. لقد نجت بأعجوبة من سُمّ هذا الحنَش الفاسِق. غاب السَّامُّ من جديد تحت رمال النبتة، ونظرت خناثة إلى الطيور نظرةَ شُكرٍ وامتنان، عاجزةً عن الحديث بمنطق الطير، لكنّ توقُّفَها عن الصِّياح كان كافيًا لتدرك أنّ امتنانها قد وصل. ألَم يحرسها في اللّيل ذلك الطائرُ على النَّخلة؟ ولعلّه هو الذي أشار على رفاقه ونبّهَ لوجود الحنش. سرَى عن خناثةَ هذا الشعورُ، وعادت الطيور تَرِدُ من ماء الغدير، فجلست تنظر إليهم وترقُبُ جهة النبتة التي اختبأ فيها الحنَش لعلّه يعود، ويَكِرُّ عليها بعُدوانه، بينما كان الفرس منهمكًا في قَضمِ النباتات الطّريّة التي كانت إلى جانب الغدير. مرَّت مدّة من الزّمن، وخناثةُ تستمتع برفقة الطيور التي أنست الصبيّةَ مُصيبَتها، وبدأت فجأة تزقزق من جديد وتحلّق، فقامت خناثةُ بسرعة مخافة أن يكون الحنَش قد خرج مرّة أخرى يريد لَسعَها، فجَفَلَت وجَفلَ الفرس معها، وأخذت تتلفّتُ يَمنَةً ويَسرَةً، محاذرةً أن يرتمي على ساقها الحنَشُ الخبيث، لكنّها لم تلمح شيئًا يخرج من أصل النبتة، فزاد رعبُها، ثمّ رفعَت بصرها في اتّجاه الأفق على مَرمَى حَجَرٍ فرأت ذئبًا مُتَوَثِّبًا يحتال في الهجوم، ويختال في الفَتك. ركبَت خناثة بسرعة البرق على ظهر الفرس، وأرسلته يخترقُ الريح من جديد. كانت النخلةُ عنوانَ النجاة، فمضت خناثةُ تَستَجِثُّ الفرسَ إلى ذلك الاتّجاه، ومضى الذئب يعدو خلفَهما بِكُلّ قواه. كان ذئبًا كبيرَ الحجم، مقارنةً بكلاب البادية، السَّلُوقِيّة، وكان لونه يميل إلى صُفرَةٍ كَدِرَة، وغُبرَةٍ نَكِدَة. قوائِمُه دقيقة، وله ذيلٌ طويل. مضى الفرس يعدو بكلّ ما أوتي من قُوَّة، ومضى الذئبُ يُطاوله في ركضه حتّى لَيَكادُ يُمسِكُ بِسَبائِلِ ذيله، ويَقفِزُ على وَرِكِه، فَتَهمِزُ خناثةُ الفرسَ بقدميها حتّى تدفعَه إلى العَدو بشدّة، فيبتعدُ مرّة أخرى قليلًا حتّى يتباعدَ عن الذِّئب. ثمّ أخيرًا وصل الفرس بخناثة إلى النَّخلة فأوقفته بحذاء الجذع، فرفع قوائمه الأماميّة فتراجع الذئب خشية أن يصيبه بها. قامت خناثة عن صهوة الفرس، وقفزت على جذع النَّخلة، وبدأت ترتقي مستعينة بِكُرنافاتِها. همزت الفرس على وركه بإصبع رِجلها حتّى يندفع بعيدًا عن النَّخلة وينجو

بنفسه من الذئب. ثمَّ تسلَّقت إلى أعلى النَّخلة. حار الذئب فيما يفعل، أيهجم على الفرس، أم يهجم على خناثة، فاختار أيسر الأمرين، ووقف في أصل النَّخلة يستعين بقوائمه على التسلُّق. استطاع أن يرتفع على ساق النَّخلة قليلًا لكنَّه كان يسقط كلَّ مرَّة. حاول مِرارًا أن يتسَلَّقَ ويستعينَ بِكُرنافاتِها لكنَّه كان يسقط كلَّ مرَّة. لم يسأم من معاودة الأمر مرَّة، وَمرَّةً، ومرَّات، وكاد ينجح في تثبيت جسمه على ساق النَّخلة، لكن قوَّة الأرض كانت تجذبه إليها فيسقط على قوائمه. ولما فَشِلَ في مراده، أخذَ يَطُوفُ بالنَّخلة، ويرفعُ رأسه ليُرهِبَ الفتاة، لكنَّها بقيَت صامدة. حاولَت أن تَرشُقَه ببعض العُسُبِ الجافَّة، فكان يهرُبُ، وَيَتَخاتَلُ منها. ولما طال تَرَقُّبُهُ، قَرَّرَ أن يَهجُمَ على الفرس، فصار يركُض في اتِّجاهه، لكنَّ الفرسَ ابتعد، ثمَّ كان يَلُفُّ ويعود، وكان الذئب يراوغ ولا يَتعَبُ في ركضه لأنَّه كان يريد إتعاب الفرس حتَّى يخلصَ له الانقضاضُ عليه. ثمَّ لمَا تعب الفرس في المناورة، اقترب من النَّخلة، واقتربَ منه الذئب، وصار يطوفُ به ويناوِشُه من كلِّ جهة، ويغيِّر اتِّجاهَه بسرعة حتَّى يُتعبه. كان الفرس يَحرُنُ ويضرب قوائمَه بالأرض، لكن الذئبَ كان ماضيًا في حيلته حتَّى يُتعِبَ المسكين. وفجأةً وثبَ السِّرحانُ على صهوة الفرس، لكنَّه رفع قوائمه الأماميَّة فتدحرج الذئب الذي كان قد تمكَّن من الاعتلاء على ظهره لأنَّ الحلاس لم يثبت على متن الفرس. وفي هذه الأثناء، أرسل ضربة بقوائمه الخلفيَّة إلى الذئب فأصابت رأسه، فَخَرَّ ميِّتًا من ساعته، وسالت دماؤه. لقد نجا الفرس بأعجوبة، ولو أنَّ الحِلاسَ بقي على ظهره لَما قامَت له قيامة، إذ إنَّ الذئب كان قد غَرَزَ مخالبَه في متن الفرس، فرفع المسكين قوائمه الأماميَّة من الألم، فانزلقَ الحِلاس وسقَط الذئب أرضًا. وفي حركة دفاعيَّة غريزيَّة، أرسل الفرس بإحدى قوائمه الخلفيَّة إلى الوراء، ورَكَلَ بها رأس الذئب فأصابته حتَّى خَرَّ صريعًا. لكنَّه بقي يَشخَبُ، ثمَّ مضى بضع خطوات بعيدًا عن النَّخلة، وسقط مُضَرَّجًا في دمائه، واستمَرَّ يَشخَبُ حتَّى تَوَقَّفَت أنفاسُه. كان الفرس يطوفُ به حتَّى يتأكَّدَ من موته، ثمَّ عاد إلى النَّخلة ووقف تحت ساقها، فنزلَت خناثة التي لم تُصَدِّق ما حدث. ما أرأفَ النَّخلةَ بها؟ وما أحنَّ الطيورَ التي أنقذتها؟ وما أكرم فرسَها وأشجَعَه؟ فقد نجَّاهما بأعجوبة من هذا السَّبُعِ الضَّاري، والذئب العاوي، سرحان بن سرحان. أخذَت خناثةُ تعاينُ متن الفرس، فَرَأت جُروحًا صغيرةً، فسارعَت لِتَقطِفَ بعضَ النباتات الصَّحراويَّة وحَكَّت أوراقَها على مواضع الجُرح، ثمَّ أخذت قليلًا من الرَّمل وَألقَت به على ذلك الموضع كي تندملَ الجروح. ولو تُركت على حالها لسبَّبت الهلاك للفرس في هذه البرِّيَّة، إذ ستتغذَّى على مائه

الحشراتُ والهوام. جمعَتِ الرُّطَب التي كانت قد ألقَت بها في الصَّباح ووضعَتها في الجِلاس، ثمَّ أخذَت بلِجامِ الفَرَسِ، واتَّجَها معًا إلى غدير الماء مرَّة أخرى. وقفَت عند جُثَّةِ الذئب الهامدة، فرأت أنَّه أطولُ منها، ولو كان ظَفِرَ بها لما ترك منها إلَّا رِمَمًا مُكَدَّدَة. حمدَتِ اللَّـه على نجاتها، وأخذَت تمشي، والفَرسُ في إثرها نحو غدير الماء. كانت الشمسُ قد توسَّطت كَبِدَ السَّماء وزادَتِ الحرارةُ حِدَّةً. تَعِبَت خنافَةُ من المشي ناحيةَ الغدير وتصَبَّبَت عَرَقًا، وخافَت من العطش. كانت حَذِرَةً في حركاتها، وتتجنَّبُ المشيَ قربَ النباتات حتَّى لا تلسَعها العقارب أو تلدغَها الحيّات المختفية خلف الحشائش، والمنتشرة في كلّ الصحراء. وبعد جُهدٍ جَهيد، وإعياء شديد، وصلا إلى الغَدير فنضَحَت خنافة من مائه على وجهها، لكنَّها لم تَجِده مُنعِشًا كما كان في الصباح. شَرِبَت منه، وَرَوَى الفرسُ مرَّة أخرى غُلَّتَه، وأخَذا في المشي بلا اتِّجاه. كانت الشمس تزدادُ لهيبًا فتُعشِي قوةُ النُّورِ البصرَ حتَّى لا يكادَ يُبصِرُ شيئًا. بدأتِ الأطياف تتراءى لخنافةَ من جديد، وبحرُ السَّرابِ يتراقصُ أمامها في كلِّ اتِّجاه، يؤذي عينَيها فَتُسبِلُ جفنيها، حَذَرَ الإعماء. تثاقلَت حركاتها فلم تشعر بأنَّها ألقَت لجامَ الفرس أرضًا، وهامت على وجهها. كان الفرس يتوقَّفُ مرَّة وأخرى ليقضمَ بعضَ النباتات البرِّيَّة، ثمَّ يلحق بها فيصهل صهيلًا خفيفًا لِيوقظها من هَجعَتِها القَسرِيَّة. ضربَتها أشِعَّةُ الشمس الحارقة فأصابها «الزَّلَـگ»، وهو هذيان المسافرين في الصحاري المقفرة، فأخذت ترى أناسًا وتسمع أصواتًا. مضت هكذا هائمة تَجُرُّ رجليها حتَّى سقطَت على الأرض. وقف الفرسُ المسكينُ حائرًا إلى جانبها، يدفَعُ جُثَّتَها الهامدة بخيشومه فلا تَتحرَّك، ثمَّ حنحن قليلًا فلم تنتبه لحنحنته. دفعها مرَّة أخرى على صدرها فولَّت وجهَها المبرقَع بحبَّات الرَّمل إلى السَّماء. مَرَّرَ الفرس طرف خيشومه على خنافة، ثمَّ صهل صهيلًا مرتفعًا، فانتبهت وكفَّ عنها الهذيان. تمسَّكَت بحبل اللّجام حتَّى تمكَّنَت من الوقوف، ثمَّ اعتمدت على صخرة قريبة لعلَّها هنا من عهد عاد، حتَّى عادت إليها أنَفَةُ مكَّنَتها من الركوب بصعوبة كبيرة على صهوة الفرس، فاحتملها ومضى يعدو بها إلى غير وجهة محدَّدة. لم تكن الصبيَّة تُبصِر شيئًا، وأسلَمَت أمرَها إلى اللَّـه. مضى شَطرٌ من النهار حتَّى حَلَّ وقتُ التَّطفِيل، وبدأتِ الحرارةُ تنزل، وارتفعَ نَقعُ الرمال في الأفق فظنَّته خنافة زوبعةً رمليَّة كما يحدُث في الصَحاري والقِفار. استمرَّت مُنكفِئةً على صهوة الفرس ماسِكةً بعُرفِه، ومُلقِيةً رأسَها على عنقه حتَّى غلبها السُّهاد، وغابت عن الشعور. بدأت خيوط الشمس تستطيل وتكسو الصحراء بحلَّة ذهبيَّة كأنَّها انقلبَت بفعل الإكسير، وخفَّت الحرارة، لكنَّ خنافةَ كانت غائبةً عمَّا

يجري حولها. بدأتِ الزوبعةُ تقتربُ من الغَرِيبَين في الصَّحراء، لكنَّ خناثةَ لم تنتبه لها، ومضَت في شبه غيبوبة. لعلَّها طلائعُ من فرسانِ مملكةِ الملكة نونة، آتيةً لإنقاذها.

سمعَت، بعد حين، أصواتًا وجلبَةً، ففتحَت عينيها ثمَّ أغمضتهُما فرأت أشباحًا مخيفة من حولها. واستيقَظَت فجأة لمَا وجدت نفسَها ملقاةً على الأرض، وقد نُضِحَ وجهُها بماء حتَّى تستفيق. أحسَّت بكفٍّ يابسة تُقَلِّبُ وجهها وتَفرِكُه، وكأنَّ اليدَ تفحَص بضاعةً هامدة جامدة لِتُقَدِّرَ ثمنَها وسَومَها. فتحَت عينيها، فرأت مخلوقًا عليه جلود السِّباع فظنَّته ذئبًا من الذئاب، لكنَّها ما لبثت أن تبيَّنت أنَّه رجل ملثَّم يخاطبها، لكنَّها لم تفهم كلامَه ولا مقالته.

كان الشَّرَرُ يتطاير من عينَي الملثَّم، ثمَّ رأت حواليها ثلاثةً من الملثَّمين لابسين جلودَ السِّباع المفترسة. كانوا يتصايحون فرحًا لظفرهم بخناثة. بدأت تدرِكُ كلامَ الجماعة، فقال لها الملثَّم الذي فرَكَها أوَّلًا، بنبرةٍ آمِرَة: ما اسمُك؟ وماذا تفعلين وحدَك في البادية؟

نظرت إليه، ثمَّ قالت بثبات: اسمي خناثة، ولقد شرد بي فرسي بعيدًا عن مضارب قومي.

فقال الملثَّم: من أيّ قبيلة أنت؟

فقالت: من قبيلة البراكنة.

زمجر الملثَّم، وزمجر الآخرون، ثمَّ أخذوا يتنازعون، فقال أحدهم: إنَّها مُلكي، فأنا أوَّل من رآها.

فقال له الثاني: بل إنَّها مُلكي أنا، فقد كنتُ أوَّلَ من وصل إليها.

فقال الثالث: بل أنا من ضيَّق على الفرس حتَّى انحشر في تلك الثَّنِيَّة محبوسًا، حتَّى أمسكنا به.

فقال الأخير، ويظهر أنَّه زعيمُهم: بل إنَّ الصبيَّة من نصيبي. أمَّا الفرس فسنبيعُه أو نقايضُه بعشرات الرؤوس من الإبل، ثمَّ نقتسمها فيما بيننا، ولا يحاول أحدٌ منكم أن يراجعني فيما قضيتُ به.

زمجر الملثَّمون، لكنَّهم لم يُعاوِدوا الكلام بعد صدور قرار زعيمهم. أخذ الملثَّم خناثةَ بقسوة من يدها فسحَبَتها، فصفعها على وجهها حتَّى سقطَت على الأرض. أخذها مرَّة أخرى من يدها بقوَّة، وألقاها خلفَه، وأمر أحد رجاله بأن يربطَ فرسها بقَرَبُوسِ سَرجِه لِيَسُوسَه.

كانوا جماعة من الفُتَّاك الذين يجوبون الصَّحراء، يعيشون على الضَّعلَكة واعتراض المسافرين ونهب القوافل. أمَّا إن وقع في أيديهم غريبٌ من غير البدو، فإنَّهم يسلبونه ما عنده ثمَّ يقتلونه شَرَّ قِتلَة، ويتركونه عُرضةً

للسّباع والضَّواري تَنهَشُه. كانوا من شِرارِ الخلق الذين لا يَدينون إلّا بالقوّة، ولا يحتكمون إلّا للغلبة، ولا يَزِنونَ سوى الفتك.

كانت رائحةُ الملثَّم تَزكُمُ الأنوف، فقد اختلَطت رائحةُ صُنانِه برائحة الجلود التي كان يلبسها حتّى لزمته رائحةٌ مُنتِنَةٌ تُلهِبُ العيونَ وتُصيبُ بالعَمَى. سَعَلَت خناثة حتّى تَطرُدَ الرائحةَ المنبعِثَةَ من الصُّعلوك، ثمّ أشاحت بوجهها عن ملامسة ظهره، وتمسّكت بطرف السَّرج. وَلّت طَرَفَ ملحفتها فوق أنفها، ثمّ وضعت يدها اليسرى على أنفيها وفمها. وكز الملثَّم فرسه ثمّ انطلق يركض به مسرعًا، وتبعته العِصابة. أمضَوا شطرًا من العَشِيّ في السَّير حتّى تعبَتِ الدَّوابّ، فنزلوا، بعد أن بدأ اللَّيل ينزلُ، بمنبَسطٍ من الأرض خلف كثيبٍ رملي. كانت خناثة متعَبةً، لكنَّ مرافقةَ هؤلاء الصعاليك لم تُغمِض لها جفنًا. جمع أصغرُهم بعض العِيدان والحشائش الصحراويّة ثمّ قام فأوقد نارًا بحَجَرِ الصَّوّان، وبعد أن اشتعلت، وضع عليها قِدرًا نحاسيّة فيها ماء. ثمّ لمّا غلا الماء، صبّ عليه دقيقَ شعير، وبقي يحرّكُه بملعقة خشبيّة حتّى انعقد. أخذ بعد ذلك قدحًا وصبّ فيه الحساء، وناوله لزعيمهم فاحتساه في سرعة، ثمّ صبّ فيه مرّة أخرى فاحتسى الباقون. كانت خناثة تتعجّبُ من أخلاقهم السَّيِّئة وتصرُّفاتهم العجيبة، فلم يَعرِضُوا عليها من ذلك الحَساء على الرَّغم من أنّها كانت تتضَوَّرُ جوعًا، لكنّها أنِفَت أن تسألهم، وأنِفَت أن تأكُلَ من حسائهم بعد أن رأت قذارَتَهُم. كان الجِلاس الذي جمعَت فيه الرُّطَبَ ما زال مربوطًا على بطنها، ففكّت أحَدَ طرفيه وتَسَلَّلَت يَدُها خلسةً لتأخذَ بعضَ الرُّطَبِ، فتناولتها وضمّت أصابعها عليها، وأخفتها، ثمّ تظاهرت بِحَكِّ أنفِها ومَسكِهِ بإبهامها وسبّابتها، وألقَتِ التَّمرةَ في فمها ببقية أصابعها. عاودَت ذلك عدّة مرّات حتّى عادت إليها الرُّوح. لمحها أحدُ الملثّمين تحرّكُ حَنَكَها، وَتُعالِجُ جُوعَها، فقام إليها وجَرَّها من صُلبِها حتّى اهتَصَرَها، فسقَطَ الجِلاسُ وما بقي فيه من رُطَب. قام إليها زعيم الملثّمين فهمزها بمسوَطٍ في يده كالدّابّة، وانتهَرَها، ثمّ أوثَقَ يديها حتّى تَكُفَّ عن الحركة مخافةَ أن تهرُبَ. أخذ الرُّطَبَ المتبقية في الجِلاس، وانتهشها مع زبانيته كالكلاب. وبعد أن فرغوا من وليمتهم البئيسة، أخرج زعيم الملثّمينَ قِرْبَةً جلديّة، وفكّ فُوَّهَتَها وصبّ قليلًا من الماء في القدح. نظر فجأة إلى خناثة، وفكّر قليلًا، وكأنّ مثلَ هذه الكائنات لا تُفكّرُ أصلًا، وإنّما تتصرّفُ بغريزة العُدوان مثل السّباع. أمسكها من ذقنها وأمرَها بأن تفتح فمها وصبّ فيه فَضلَةَ ماء القدح حتّى تشرب، أو على الأصحّ حتّى تَرِدَ مثل الدَّواب. كادت تَشرَقَ بالماء لأنّه صَبَّهُ جُملةً واحدةً بلا تَرَيُّث. سَعَلَت خناثةُ حتّى تَتركَ الهواءَ يخرجُ، فَتَطايَرَ الرَّذاذُ من فمها، ثمّ

استرجَعَت أنفاسَها. كان الملثَّم يخشى عليها أن تَهلَك ويخسَرَ ما غَنِمَهُ في رحلته، إن لم يَسقِها ماءً. مثل هذه الكائنات أبعدُ من أن تعرفَ معنى الشفقة، فما بالك بالإحساس بها، وإنَّما يحرِّكُها شُعورٌ آخر لا يعرفه إلَّا قُطَّاع المَفاوِز. طلبَت منه أن يَسقِيَها مُجَدَّدًا فانتهرها بحدَّة وتوعَّدها بالضَّرب إن عادت لتسألَهُ مجدَّدًا. كانت تقرأ في سَحنَتِهِ المُغبَرَّة تاريخًا حافلًا بالجرائم. كانت التجاعيدُ قد حَفرت على وجهه خطوطًا عديدة كأنَّها من أثرِ ما سَحَلَ بسلاحه من مخلوقات بريئة. لَعلَّهُ سيبيعُ خناثة كما يُباعُ الرَّقيقُ في الأسواق. فَزِعَت من هذه النِّهاية المُفجِعَة، وصبَرَت نفسَها. كانت تحلُم بأن تصبح ملكة، فصارت مملُوكَةً، تُصارع من أجل البقاء في قيد الحياة حتَّى وإن أدركها الرِّقّ. ما أبشَعَ العواقب قياسًا بالأماني؟ وما أنكَسَ الحاصِلَ قياسًا بالفائت؟

وبالعكس، ما أطيب اللُّقَيَّات في غياب التَّوقُّعات؟

أخذ مُلَثَّم آخرُ نايًا صغيرًا، ثمَّ شرع صاحبُه يُغَنِّي غناءً مُمِلًّا بصوتٍ فيه شَجَّةٌ، عن بطولات البَدو بشِعر مُكوَّنٍ من مجموعة من الـكافات[5]، لكنَّ غناءه كان يقطع رتابة الصَّمت، ويؤنس الدوابَّ، ويخيف الوحوش المتربِّصة. مضى الاثنان في الغِناء. لم تتوقَّع خناثة أن يكون هؤلاء الذين يشبهون الكائنات الضَّارية قادرين على الغناء، إذ لا يُغَنِّي إلَّا مَن فيه فضلةٌ من إنسانيَّة، وشَعرَةٌ من إحساس، وهؤلاء أبعَدُ عن الآدميَّة حتَّى يُغنُّوا. لعلَّ لمثل هؤلاء الكائنات غناءً من جنس فصيلتهم. كانوا أشبه بالقِفار التي يعيشون فيها، لا رحمةَ لديهم ولا شفقة، وشَرطُ البقاء عندهم لمن أبانَ غِلظَةً زائدة، وقَسوةً عاتية. استَمرَّ الملثَّمان في الغناء والعزف، وكانت تتراءى لخناثةَ عيونٌ تَبرُقُ في ظلام الصَّحراء كأنَّها ترقُبُ الجماعةَ، وتتحيَّنُ الفرصة للانقضاضِ عليهم إذا سها منهم ساهٍ. لعلَّها ذئابٌ جائعة، أو ضباع ناهِشَة. لم يكن يُسَرِّي عن خناثةَ سوى مَنظَرِ السَّماء العجيب. ما أجملَ اللَّيل في الصَّحراء؟ وليس بِدعًا من الأمر أن تَغنَّى الشُّعراءُ باللَّيل حتَّى اشتَقُّوا للمَحبوبة من اسمِه، اسمًا لها، فلقَّبُوها بـ «ليلى» بإطلاق، وحَصَرُوا وحدةَ اللَّيل في ليلة. إنَّ ليلى هي الأنثى المستقطَعَة من اللَّيل في البادية والبَدء. إنَّها مفردُ اللَّيل، وأنثى السواد، ولعلَّ اللَّيل يكون فارس أحلامها المتدثِّرَ في سواد ثيابه. إنَّها تلك المخلوقة اللَّيليَّة التي لا تظهرُ في النَّهار لأنَّها غامضةٌ كاللَّيل بِفرعِها الأسوَد، ومن شِدَّةِ ظهورِها خفاؤُها بالنَّهار. مَضَت خُناثَةُ تتأمَّلُ النُّجومَ العَواتِك، والشُّهُبَ السواقِط، وراعَها القَمَرُ الأزهرُ يَخطُرُ مُبَرقَعَ الخدَّين في رِداءِ دَربِ التِّبَّانة. لم يكن يقطَعُ عليها تأمُّلاتِها الشَّاعريَّة سوى الأصواتِ المزعِجة التي كان يُحدِثُها زعيمُ

الملثَّمِين لِيَستَلَّ قطعةً من حبوبِ شَعير الجِساء، أو قِطمِيرِ الرُّطَب التي غَصَبَها، عالقةً بين ضِرسَي فَكَّيه، فتراه يَسحَبُ نفَسًا لِيَسُفَّ العلَقة المنجَحِرَةَ في تضاريسِ فمه المتكَسِّرَة. ولما أعياهُ السَّحبُ أخذ يَستَكِدُّ العلقةَ بعودِ التقَطَهُ من خَشاشِ الأرض، فيَمضي الخِلالُ بين غِيرانِ أنيابه يَشُقُّ ثُغرَة ويُغالِبُ القِطمِيرَ الذي أبى إلَّا أن يَعلَقَ في هذا الفَكِّ الضاري حتَّى يُلجِمَه عن المضغ، وينتقمَ لخناثة من هذا الغاصِب.

وبينما هم يرقبونَ السَّماء، ويُزعِجونَ صمتَ البادية بصوت المُلَثَّمِ المتكَسِّر، دَهَمَهُم على حِينِ غِرَّة مُلثَّمُون آخرون نَجَمُوا بلا استئذان من قِفارِ البادية المتلفِّعَة في مُرطِ ظُلمَتِها. كانوا عَشرةَ رجال أشِدَّاء، يَلبَسُونَ الوَبَر، ويَتَمَنطَقُونَ بالكُمَيَّات (الخناجر)، ويَحمِلُونَ السُّيوف. وقفوا على الجماعة فَدارَت مَعركَةٌ شَرِسَةٌ بين الفَريقين. قامَت خناثةُ مكتوفةَ اليدَين تختبئُ خلفَ ذِروَة كَثِيب حتَّى تنتهي المعركة الحامية والهجمة الحاسمة. سمعَت أصواتَ السيوف تتناصَل، ويتطاير شَرَرُها، لكنَّ الأمرَ لم يَدُم طويلًا حتَّى قُتِلَ الملثَّمُونَ الأربعة. ترجَّل أحد الفرسان الملثَّمين. كان طويل القامة، عَريض الهامة، واسِعَ الصَّدر، كَثَّ اللِّحية، غائِرَ العينين. جاء ناحية الكثيب، ففزعت منه خناثة، وخافت أن ينتصِفَها نصفين، أو يَنشُرَها شَطرَين بِنَصلِ سَيفِه. كان وَجِيبُ قَلبِها يَدُقُّ كَمَطارِقِ الحَدَّادين في أثناء الحرِّ الشَّدِيد. انحَشَرَت في بطن الكَثِيبِ تستند إليه بظهرها وتنجمع وسط رماله الباردة، لكن البدويّ سعى وراءها وأقبل نحوها، فأدرك رعبها، وقال لها مُؤانسًا: لا تُراعِي بُنَيَّتي.

لم تُصَدِّق خناثة ما يجري، فقد كان الصوتُ الذي يخاطبها صوتَ والدِها. حارت في أمرها للحظات، ثمَّ قطعَتِ الشَّكَّ باليقين. وفي هذه اللَّحظات، امتلأ فكرُها وإحساسُها بسحابة بيضاء من الفرح، فارتمت على الفارس تناديه: أبُوي، أبُوي... كانت تردِّد ذلك بلا انقطاع، وتبدِّد شكوكها في هويَّة الملثم.

سالت الدُّموع من عينَي خناثة كالمطر بعد الجَدبِ، فضمَّ الوالد ابنته إلى صدره. كانت تخشى أن يُعنِّفَها على خروجها من مضارب القبيلة، لكنَّ ذلك لم يَبدُر منه، بل عانقها وهَدَّأ رَوعَها، وحَمِدَ اللَّه على سلامتها. وقال لها: لقد أخبرَتني والدَتُك أنَّ فرسَكِ قد شَرَدَ بك من دون أن تتمكَّني من إيقافه.

أدركت الصبيَّة بسرعة فائقة أنَّ والدتها وجدَت مخرجًا لهما من عِتاب الأب وغضبه، فهزَّت رأسها بالإيجاب لتأكيد أقوالها، ثمَّ أضافت: لقد امتطيتُ فرسي أسَلِّي نفسي بفراقك وطولِ غيابك، فَحَرَنَ بي حتَّى وجدتُ نفسي فجأة في البرِّيَّة بعدما عدا بي الفرس طويلًا.

فقال الأب: لقد كان محبوسًا لعدّة أيّام خلال غيابي، ولا شك في أنّ طُولَ حبسِه جعله يُطلِقُ العنان للعَذو، ويهيم على وجهه في البادية. إنّها غريزة الخيول العِتاق. لكن، لا بأس، أخبريني، ماذا حدث لك منذ خرجتِ من مضارب قومنا؟

فقالت: بعدما عدا بي الفرس طويلًا، أصابتني الشمس الحارقة بحالة من الهذيان، لكنّ فرسي أوصلني إلى نخلة يتيمة في القفار فنزلتُ عندها بعدما نهشني الجوع، وطعمتُ من رُطَبِها مع الفرس، ووجدتُ غدير ماء أخذت منه حاجتي. كما روى فرسي من ذلك الماء.

ثمّ أخبرته عن الحيّة التي اعترضت طريقها ونجاة الفرس من لدغتها.

حمِدَ اللّـهَ وأثنى عليه، وأخذ «شَكوَةً»[6] صغيرة، وصَبَّ لها ماء في قدح فارتَوَت. ثمّ قدّم إليها تمرًا فتناولت منه. أحسّت بعودة الحياة، وانفراط اليأس والهمّ.

سألها بعد ذلك إن كان الملثّمون قد عنّفوها أو أخفَرُوا ذِمَّتَها، ويقصِدُ إن كانوا قد اغتصبوها، فأجابته بالنفي سوى ما ذكرته له عن قسوتهم تجاهها.

أمر الشّيخ بَكّار رجاله بدفن جثث اللُّصوص، من بعض بطون القبائل السائبة، ثمّ اقتادوا خيولهم وحملوا أسلحتهم، وعادوا إلى مضارب القبيلة.

أردف الشّيخ بكّار خناثة خلفه، ولم يتركها تستقلّ بفرسها هذه المرّة، فما حدث لها جعله أحرصَ على أن تكون ألصقَ به. كان سعيدًا في قرارة نفسه بعد أن كان يائسًا من العثور عليها حيّةً. فقد عاد من غزواته ضدّ قبائل السودان منتصرًا مَزهُوًّا ببطولاته، فتفاجأ بفاجعة لم يكن ينتظرها حين أخبرته زوجته بما حدث لخناثة، وكيف أنّها ركبت فرسها ولم تعد إلى مضارب القبيلة. لم ينزل الشيخ بَكّار الغول عن فرسه، بل اصطحبَ للتّوّ معه بعضَ رجاله الأقوياء للبحث عن ابنته. فتّشوا عنها في كلّ مكان، وقصدوا الجهة التي راحت إليها، لكنّهم لم يعثروا عليها. أمضوا يومًا كاملًا في البحث عنها، ثمّ قرّرَ الشيخ أن يدفعَ برجاله خارجَ مجال نفوذ القبيلة إلى الشمال حيث القبائلُ السائبة التي يمارس صعاليكها قطعَ طُرقِ الصّحراء، وَسَلبَ المسافرين. ولمحوا في اللّيل عن بُعدٍ نارًا في البرية فقصدوها. فلمّا اقتربوا من مصدر النار سمعوا صوت غناء بطيء فتحيّنوا الفرصة للانقضاض على الجماعة بعدما كَمَنُوا يَرقُبون ملثّميها الذين كانوا يمضون اللّيل هناك. لمح الشّيخ بكار ابنتَه مَغلولةً، وتعرّف إليها، ورأى كيف كان يعاملها زعيم الجماعة بفظاظة، فأدرك أنّها كانت أسيرة وثارت ثائرتُه، ولم يبحث عن حلٍّ سلميّ، بل أملَت عليه غيرته أن يقتَصّ حالًا لابنته من هؤلاء اللصوص. لم يفكّر كثيرًا، فأمر رجاله بمباغتة رجال الجماعة،

فهجموا عليهم ولم يتركوا لهم الفرصة حتَّى يستعدُّوا لقتالهم. لم يأخذ الهجوم منهم سوى وقت قصير، فانقَضُّوا عليهم وأعمَلُوا فيهم سيوفَهم. دافع الصعاليك عن أنفسهم بما أوتُوا من قوَّة، لكنَّ عنصرَ المباغتة وعددَ المهاجمين كانا حاسمين في إنهاء المعركة لمصلحة رجال الشيخ بكّار، فَقَضوا على الجماعة في لحظات.

هكذا تمَّ تحرير خناثةَ من أيدي جماعة قطّاع الطريق. حكى الشَّيخ بكّار لابنته كيف مرّت كلّ هذه التفاصيل، وطلب منها أن تحكي له ما حدث لها بكلّ التفاصيل، فسردت عليه طوالَ الطريق مغامرتَها العجيبة. ازداد الشَّيخ بكّار إعجابًا بشجاعة ابنته وإقدامها، على الرَّغم من أنَّه كان خائفًا عليها، ثمَّ أخبرها بانتصاره في معاركِ شُربُبَه ضدَ قبائل السودان. كما أخبرها بأنَّه تلقَّى دعمًا من السلطان مولاي إسماعيل الشريف بعدما كان الشيخ من المسارعين إلى إرسال بَيعته له حين تولَّى مُلكَ المغرب، فكتب إليه السلطان وأثنى عليه، وذكَّره بحفظ أصول قرابته لأنَّ والدة السّلطان من قبيلة المغافرة التي هي أصل قبيلة البراكنة. كما أخبر الشَّيخ بكّار ابنته بأنَّه ينتظر زيارة السُّلطان التي وَعَدَهُ بها، منذ تولِّيه المُلك، إلى ربوع إيالته الجنوبيَّة في بلاد شنقيط. كانت خناثة مسرورة بنجاتها من الأسر وبالأخبار التي نقلها إليها والدها عن انتصاراته، وارتقاب زيارة السلطان مولاي إسماعيل إلى بلادهم. كما كانت سعيدة بأن يصطحبها والدها في هذه الرحلة غير المرتقبة، ومَنَّت نفسها بالدخول إلى مضارب القبيلة عائدةً مع أبيها لِتَزُفَّ أخبار الانتصارات والأخبار السَّارّة. وكانت لا تزال، من جهة أخرى، متوجِّسَةً من عودة شبَح البلوح، ورغبة ابن عمِّها في الزَّواج منها، لكنَّها أرجأت التَّفكير في هذه المنغِّصات حتَّى تعود إلى مضارب قبيلتها، وستفكِّر حينها في حَلٍّ يُنقذها من هذه الكوابيس المزعجة.

أمضوا تلك اللَّيلة في المسير، فلم يصلوا إلى مضارب قبيلتهم إلَّا عند طلوع تباشير الصباح. ولم يكد أهل القبيلة يَرَون الشيخ بكار عائدًا مع رجاله حتَّى خرجوا يتطلَّعون الأخبار. فلما رأوه قد أردف خناثة خلفه عَلَت أصواتُ الزغاريد مُرحِّبةً بِمَقدَمِ سيِّد القبيلة مع خناثة. كانت الأمّ في أوَّل المستقبلين، فلمَّا رأت ابنتها لم تتمالك نفسها حتَّى هرولت ناحيتها، ودموعُها تجري فرحًا بعودتها. نزلت خناثة من فوق الفرس فاحتضنتها أمُّها وبقيت تقبّلها وتضمُّها إلى صدرها، وتشتَمُّها. لم يَصدُر عنها أيُّ عِتاب، لكنَّ ما جرى كان كفيلًا بأن تتريَّثَ الأمُّ فيما كانت عزمَت عليه من إجبار ابنتها على البلوح. وكانت نظراتُ خناثة كافيةً لطيّ الموضوع. لم تُفسِدِ الأمُّ لحظة اللِّقاء بمراجعة ابنتها، فقد كانت عودَتُها من مشارف الموت إلى

ساحل الحياة كافيةً حتَّى لا تفكّر في إجبارها على ما لا ترغبُ فيه. لقد برهنَت خناثة أنَّها تستطيعُ أن تركبَ الصِّعابَ في سبيل ألَّا تُقهَرَ في إرادتها. ثمَّ ذهبت خناثة ناحية جدتها التي كانت راسيةً كالقِدر في موضعها فعانقتها وقبَّلتها. نظرت الجدَّة الحكيمة إلى ابنتها، ورأت في حفيدتها الشُّموخَ نفسَه حين كانت في مثل عمرها، فاغرورقَت عيناها بالدُّموع. جاء القومُ، زَرافاتٍ وَوُحدانًا، يُهنِّئونَ الشَّيخَ بكّار على سلامة ابنته، وانتصاراته التي رفعت جاه القبيلة عاليًا لدى كلّ بدو الصحراء. وأُضرِمَتِ النيران، وأمرَ الشيخ بعمل وليمة كبيرة لكلّ القبيلة طوال اليوم، فَنُحِرَت عدَّة رؤوس من الإبل لإطعام كلّ أفراد القبيلة. أمَّا سَلَّمبُوها فقد اختفت عن الأنظار، ولم ترغب في أن يلتقي ناظراها ناظرَي خناثة حتَّى لا تُتَّهَمَ في أنَّها كانت وراء هروبها من مضارب القبيلة، وتَسَبُّبِها بالمكروه الذي كان سيصيبها لو لم يتمكَّن الشَّيخ بكّار من افتكاكها من أيدي قطّاع الطُّرق. دخل الشَّيخ خيمَتَه الكبيرة التي تحيط بها الخيام من كلّ ناحية، وبعد أن اغتسل واستراح طوال الصباح، جاء كبار القبيلة يهنِّئونه فاستقبلهم بكلّ حفاوة. جلس الجميع، فأخبر الشَّيخ رجال القبيلة بما حدث، فهلَّلوا وحمدوا اللَّه.

بدأت الاحتفالات بانتصار القبيلة ورجوع الشيخ بخناثة. حضر كبار أعيانها من المحاربين، وممثلون عن القبائل المجاورة التي يحميها البراكنة نظيرَ غرامات تدفعها وتفاهمات عُرفيَّة. فالبراكنة أهل شَوكة، بينما تفرَّغ أصحاب الزوايا للعلم وممارسة التِّجارة والفلاحة، ولم يحملوا السِّلاح بعد هزيمتهم في الحروب التي خاضوها إلى جانب ناصر الدين البغدادي.

***

كانت بلاد البيضان موزَّعة بين أربع مَشيخات من البدو الرُّحَّل من أصحاب الشوكة، هم قبيلة البراكنة، وقبيلة الترارزة، وقبيلة أدرار، وقبيلة إدُوعِيش. وكانت هذه القبائل تتحكَّم في كلّ الطُّرق التجاريَّة في صحراء المغرب الأقصى وبلاد شنقيط حتَّى نهر السنغال. لقد استوطن عرب من بني حسَّان، معقل اليمنيِّين، هذه الربوع ابتداء من القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، في عهد دولة المرينيِّين التي كانت تحكم المغرب. وينقسم المجتمع في بلاد شنقيط إلى ثلاثة أصناف: أهل الشوكة وهم المحاربون، والزوايا وهم أهل العلم والتَّعليم، والفئة الثالثة تسمَّى أهل اللَّحمَة، وهم التابعون الذين يشتغلون بالرعي وسائر الحِرَف التي يحتاج إليها المجتمعُ الصحراويّ.

تحوَّلَت المشيخات لمَا تقَوَّت شوكَتُها إلى إمارات في بلاد شنقيط في القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي)، بعد أن وصل

المستكشفون الأوروبيُّون إلى السواحل الأطلسيَّة ونهر السنغال المصاقبة لبلاد البيضان، فازدهرت تجارة بعض المواد، مثل الملح والعلك وريش النعام والذهب والعبيد، وتقوَّى نفوذُ القبائل التي كانت تحتكر هذه التجارة مع الأوروبيِّين.

وظهرت، في جهة الشمال، دولةٌ جديدة في بلاد المغرب، هي دولة الأشراف العلويِّين الذين انطلقوا من تافيلالت بعد سقوط دولة الأشراف السَّعديِّين. كانت هذه الدول تحكم إمبراطوريَّة واسعة منذ المرابطين الذين انطلقوا من تخوم الصَّحراء وأسَّسوا إمبراطوريَّة عظيمة تمتدّ من نهر السنغال جنوبًا إلى الأندلس شمالًا، ومن البحر المحيط غربًا إلى إقليم برقة شرقًا. وقد وضعوا لَبِنات الوحدة المذهبيَّة والعقديَّة لهذه الربوع بفضل تلامذة القاضي عياض السبتي الذين هاجروا من الشمال وأسَّسوا بعض المدن الشهيرة في بلاد شنقيط، مثل «تشيت»، و«وادان»، دفاعًا عن الشرعيَّة المرابطيَّة التي نازعتها دولةُ الموحِّدين التي أعقبتها، فتقوَّت تلك الإمبراطوريَّة وازدهرت في مختلف مناحي الحضارة. وأعقبتها دولة أخرى هي دولة المرينيِّين، ثمَّ دولة الأشراف السَّعديِّين، إلى أن جاءت دولة العلويِّين على هذا العهد.

انتعشت حركة الجهاد، بعد سقوط الأندلس وسيطرة الأوروبيِّين على البحار، واحتلال بعض السَّواحل المغربيَّة، وتحوَّلَ تطلُّعُ الدول المغربيَّة المتعاقبة في الغرب الإسلامي إلى عمقها الصحراويّ. وقد رافق هذه التَّحوُّلاتِ الكبيرةَ ظهورُ حركات مهدويَّة بشأن نهاية العالم وقيام السَّاعة. وقد زاد الالتفاف حول الصوفيَّة والأشراف. فبعد دولة الأشراف السَّعديِّين، قامت دولة الأشراف العلويِّين تأكيدًا للحديث النبويّ الشريف «تركتُ فيكم ما إن تمسَّكتُم به لن تَضِلُّوا بعدي أبدًا، كتابَ اللَّه وعترتي أهلِ بيتي». وقد كان لهذه التَّحوُّلات في المغرب، أثَرٌ في صحرائه من بلاد شنقيط التي ظهرت فيها حركات مهدويَّة على هذا العهد، ومن أبرزها حركة ناصر الدين البغدادي الذي قام لتوحيد المنطقة، ووقف في وجه القبائل السائبة التي كانت تعيش على الغزوات والغنائم، وتمكَّن من السَّيطرة على الإمارات السودانيَّة في منطقة حوض السنغال.

كانت قبيلة البراكنة تسيطر على منطقة القبلة جنوبي بلاد شنقيط، وتقتسمها مع قبيلة الترارزَة، إلَّا أنَّ الترارزَة كانوا مُوالين للمحيط الأطلسي، بينما كانت قبيلة البراكنة إلى الشرق منها على طول نهر السنغال.

تنحدر القبيلتان من جد مشترك هو هَدَّاج، وكان بين أولاده بَركَنِّي وتَزُوز، وهما اللَّذان أعطيا اسميهما للقبيلتين. وقد بسطت قبائل الوداية من

بني أودي بن حسان نفوذَها على أغلب بلاد شنقيط، ولم تترك لسائر القبائل الحسانيّة الأخرى إلّا المناطقَ الهامشيّة في الشمال الغربيّ (أولاد دليم)، والجنوب الشرقيّ (البرابيش). ثمّ برز المغافرة بين صفوف الأوداية وتَقَوَّوا وصاروا أصحاب شوكة ومَنَعَة بعد انتصاراتهم على حركة ناصر الدين البغدادي. وقد شكّل ظهور هذه الحركة تحدّيًا لسلطة قبائل المغافرة المحاربة، فقاومته، واندلعت بين الفريقين حربُ شُربُبّة ابتداء من سنة 1673م.

نشأ في إثرها تقسيمُ المجتمع البيضانيّ إلى ثلاث فئات، هي: فئةُ المحاربين المتحكّمين في السُلطة، وفئةُ الزوايا، وهم علماء الدين وأرباب التصوُّف، ويتمتّعون بسلطة روحيّة واقتصاديّة نظرًا إلى اشتغالهم بتربية الماشية والتجارة في بعض الموادّ. والفئة الثالثة هي فئة التابعين من الرعاة وأصحاب الحِرَف، وهم في خدمة المحاربين وأصحاب العلم.

***

نزل أفراد عدّة قبائل على قبيلة البراكنة بعد قفولهم منتصرين من غزواتهم. قَدِموا إلى الشّيخ بَكّار يسلّمون عليه ويهنّئونه، فبعث إليهم بطعام «الكشوة»، من لحوم صغار الإبل التي نُحِرَت، ويسمُّونها «القزع». وهذا الطعام عادة ما يُرسَل إلى الحيّ النازل على حيّ آخر.

التقت خناثة ابنَ عمّها عليًا قادمًا ليشارك في وليمة الانتصارات، فدنا منها وهمس إليها حتّى لا يسمعه أحد: سأخطُبُك يا غزال.

نظرت إليه نظرة غاضبة، وقالت له: لا عشتَ حتّى ترى ذلك اليوم.

ـ وما يمنعني من ذلك يا ابنة العمّ؟

فقالت له: دَمامَتُك وقِلّةُ لَبابَتِك.

احمَرّ وجهُه، فزادت دمامَتُه قُبحًا، فقال: لستُ وصيفًا حتّى أكونَ جميلًا، وإنّ الرجلَ منّا مَن كان صَليبًا خَشِنًا مِقدامًا، وقد بلغك عنّي كثرةُ نِزالي. أمّا الثانية، فقد لَبُبتُ حين دَمُمتُ. ولا شكّ في أنّ الزيادة في اللّبابة تترك لها أثرًا في الدّمامة. وما يَضِيرُكِ من دمامتي إن كنتُ قد استطلتُ في لَبابتي وشجاعتي؟

ضحكت خناثة من مُحاجّة ابن عمّها ومُلاسنته الفاضحة، فقالت: بل قِلّةُ لَبابتك ظهرت في دَمامتك. أتزعمُ أنّك لبيبٌ، وأنتَ أخرقُ أحمقُ، وسيرتُك معروفة، والصبايا يسخرنَ منك حين تَمُرُّ منتفِخًا كالدّيك تُبدِي شهامةً وإقدامًا، ولستَ كذلك. أمّا دمامَتُك، فانظر إلى نفسك في المرآة لتعلم بأنّ الحرائر لن يقبلن بأمثالك إلّا خادمًا.

ابتسم عليٌّ ابتسامةً خبيثة حاول أن يُخفي بها ارتباكه، ثمّ انسلّ إلى

داخل الخيمة حتَّى يلتحقَ بسائر الضيوف. وكان في استقباله شقيقُ خناثة، محمد.

جلس الشَّيخ يَخطُرُ بين ضيوفه من شيوخ القبائل بعدما اغتسلَ ولبس دَرَّاعِيَةً سماويَّة اللَّون. وقام الخادم فناوله قدحًا من «الـگـليَة بُوشِيبَة»، وهي شَعيرٌ محمَّص في الرَّمل، يقدَّم مع زبدة بعد تنقيته وغربلته. ثمَّ ناول سائر كبار الضيوف أقداحًا أخرى. فما لبث الجمع أن زَها بهذا الشراب اللذيذ، الأثيرِ عند البيضان، وبدأ الرجال في إطلاق النّكات عن الموضوع، لأنَّ هذا الشراب يجلُبُ الباهَ ويُغرِي بالنِّكاح. ثمَّ قُدِّمَت ألبانُ الإبل الطَّازجة، فشرب القوم وتفسَّحوا في مجلسهم. وصار كلّ واحد يحكي عن بطولاته في المعارك التي خاضها، ويفخر بذلك. ثمَّ قام شاعر فألقى بعض القافات في الفخر، وتولَّى حَرطانِيٌّ[7] من الخِلاسِيِّين الغناءَ مرفوقًا بصاحبٍ له يعزف على آلة وتريَّة، وآخرَ على ناي، والثالث يُوَقِّعُ على دَفّ. تفنَّن الحرطانيّ في الغناء فأجاد وذهب بألباب الحاضرين، فصفَّقوا له وأثنوا عليه، واستزادوا من ترجِيعِه الحنَّان، ومن طِيبِ صوته الطَّنَّان.

ثمَّ وُضِعَت قَصعةُ الثَّريد فتناولتها الأيدي، تَطُوفُ في أرجائها كأصابع المَذارِي تُذَرِّي وَتُنَقِّي الثريد من اللَّحم، فتَذهَبُ اللُّقَمُ جينةً وذهابًا بين طواحين الأفواه ومَذارِي الأيدي حتَّى تستقرَّ في خير قاعٍ في بطون الآكلين. ثمَّ جيءَ بالألبان الطازجة فأُفرِغَت بالأسطالِ في البيطان. وقُدِّمَ الشِّواء مع «خبز الفَطير»، وهو خبز طازَج يُردَمُ تحت الرمال السَّاخنة، فتناولته الأيدي كأنَّها سيوفٌ باترة، وخناجرُ حاسمة تَشُقُّه شَقًّا. فأُلقيَت اللُّحوم في اللُّها، وتناوشتها أنيابُ عُتاةِ الرجال تفتك اللَّحمَ من أصولِ العِظام كأنَّها سيوفٌ بميدانِ نِزال تُقَلِّمُ لِحاءَ شجر، فلا تكاد تسمع إلَّا اصطكاكًا في رَحى معركةٍ تدورُ بين حِرابٍ وأحجار. ثمَّ رُفع الشِّواء، أو ما بقي منه من أشلاء ممزَّقة، وعظام رميمةٍ مُكدَّدة. وجيءَ بعدها بالكُسكُسِ، فهلَّلَ القومُ وكبَّروا لأنَّه سلطان الأطعمة عندهم، حتَّى كانت المجالس لا تخلو من مناظرةٍ في الطبيخ، عنوانها المُشرَّعُ بين المتناظِرِينَ «الفِيشُ بين الكُسكُسِ والعِيش»، ويقصدون بـ «الفِيشِ» التَّباهي ونفخَ الريش، أو المفاضلةَ بين الكُسكُسِ والعِيش، وهو الأرز. أرسلوا اللُّقَم إلى الأفواه كأنَّها قذائفُ مرسَلةٌ على طريدة، فما إن حلَّت في مُستَقَرِّ اللُّها حتَّى ترى اللاقمَ يَسكُبُ في إثرها لبنًا سائغًا حتَّى يفسحَ في بطنه لمزيد تَلَقُّم، وكأنَّه يبني بِناءً من اللَّبنِ المتراصَّة ليصنعَ منه سورًا في جوفه ثمَّ يُعالجه باللَّبن حتَّى تتخلَّلهُ الفُرَج. وهكذا أمضى القوم يومهم في أكل وطرب وغناء وفخر، لا يصرفهم عن ذلك إلَّا حديثٌ عن بطولة أو كَرٌّ وَفَرّ. كانت النساء خلفَ

الستور يَتَسَمَّعنَ إلى الحديث، فلا تكاد الكلمةُ تخرج من فِيهِ أحدِ البيضان حتَّى تتلقَّفها الآذان المُصيخَة لأنَّ الأمَّهاتِ كنَّ حريصاتٍ على تزويج البنات من رجال القبيلة، واصطيادِ العريس المناسب. اغتنم امحِيمَد، شقيقُ الشَّيخ بكّار، الفرصةَ ليطلبَ يدَ ابنة شقيقه، خناثة، لولده عليّ. لكنَّ زعيم قبيلة الترارزة كان قد عزم على الأمر نفسه، فطلب هو الآخر يد خناثة لولده. وتقدَّم رجل ثالث من إمارة أدرار بالطلب ذاته. ثمَّ أكَّدَ الثلاثة على والدها أن يُشرعَ في تسمينها، ويوظِّفَ لها مُعلّمة لتبليحها من الآن حتَّى تتجهَّزَ ليوم الدَّخلَة، فإنَّها على حالتها النحيفة «لا تَهُشُّ ولا تَنُشّ». كانت خناثة تسمع طلبات الخطبة فغاظها ما تسمع من اشتراطاتهم بشأن التَّسمين الذي كان سببَ هروبِها على صهوة فرسها، وغاظها أيضًا أن يتقدَّم لخطبتها ابنُ عمها الدَّميم، وبقيت في حيرة من الآخرين، إذ يعني ذلك، إن قبِلَ والدُها تزويجَها، أن تغادرَ قبيلتَها وأهلَها وصديقاتها، فارتاعت لهذه الاحتمالات. نظرت إليها نساء البيت نظرةَ مَكرٍ وغِبطَة وحَسَد. فهؤلاء كبار القبائل يتنافسون في طلب يدها، بينما لم تُعِر خناثة كلامهم وامتداحهم أهمِّيَةً. لم يجب الشَّيخ بكار القوم على طلباتهم، واعتذر إليهم بلطيف العبارات، وطلب أن يُمهِلوهُ حتَّى ينظرَ في الأمر. ثمَّ قال لهم: دَعونا من أمر الخطبة الآن، ولنحتفل بانتصاراتنا. فقام الشَّيخ، وقام في إثره البدو متوشِّحين السُّيوفَ ليؤدُّوا رقصات على نغمات بديعة، حتَّى يطردوا الوَهَنَ الذي ذبَّ في الأجسام بعد هذه الوليمة الشَّافية، والضِّيافَةِ الوافية. وما إن حَلَّ اللَّيلُ حتَّى تراخَتِ الأعضاء، وتناسَلَ الكلام من الكلام حتَّى كأنَّما الزيادةُ في اللِّسانِ زيادةٌ في الإنسان، وعلى قَدرِ لَسانَتِهِ تكونُ إنسانيَّته. ألا ترونَ أنَّ البهائمَ لا تتكلَّم؟ وإن جنَّها اللَّيلُ سكنَت. صلَّى القومُ صلاةَ المغرب في مكان مُعَدٍّ لذلك خارج الخيام بعيدًا عن نجاسات مَعاطِن الإبل وحظائر المعز والشِّياه. كانت قبلةُ المسجد عبارةً عن أحجارٍ رُصَّت على شكل هلال، طُلِيَت بِجيرٍ أبيض لتشير إلى جهة الصلاة. قام فقيه القبيلة فصلَّى بالجماعة فَصَلُّوا خلفَه، وكلُّهم مُقتَدٍ وَهوَ الإمامُ. ولمَّا فرغوا من الصلاة جلسوا يَستَزوِحون بعِطر البادية الزكيّ في هذه اللَّيلة القمراء. وكم يحلو السَّمَرُ في البِيدِ مع الأحبَّة الكرام؟ كان السَّمَر طاردًا لكلّ خوف قد ينتاب أهل الصحراء في أثناء السَّفر مع القوافل التي تكون دومًا مَظِنَّةً لهجوم اللُّصوص وقُطَّاعِ الطُّرُق، أو هجوم الوحوش والضَّواري. كان السَّمر ينزَع الخوفَ من هذا الهائل الأبديّ حتَّى يتفتَّقَ الصباح، وترتديَ الأرضُ حلَّةَ النهار، ويكسوَ الضوءُ جميع الأرجاء، ويَعُمَّ النورُ كلَّ الرُّبَى والكُثبانِ والأنحاء. كم يُمسِي البدويّ على خوفٍ، ويستيقظُ على رَجاء؟ كم يَلفُّهُ

النهارُ بالثُقة، ويجرّدُه اللّيلُ من الأمن وكلّ صِفَة؟ تلك هي حياة هذا البدويّ البسيط الذي استطاع أن يبقى إنسانًا على الرّغم من قساوة البادية. لقد حوّل قفرَها إلى جمال، وشُحَّها إلى نَوال، وتغنّى بمخلوقاتها وأشيائها في عفوية فطريّة. إنّه يعلم، بالغريزة، بأنّه كائنٌ هَشّ يمكن أن تأتي عليه عاديةٌ لم يُلقِ لها بالًا أو يَحسب لها حسابًا، لكنّه مع ذلك يُقَدّرُ الحياةَ ويمنَحُها للمستضعفين حين يَغلِب ويتغلّب. ثمّ إنّه يعتبر أنّ المروءةَ تقتضي أن يكونَ المرءُ فتًى شجاعًا، وأنّه لا ينبغي له أن يُتَصَدّقَ عليه بحقّهِ في الحياة. إنّه حقٌّ أبديّ لا يجودُ به إلّا واهبُ الوجود وحده، وليس لأحدٍ أن يَخلُفَهُ بالإنابة في منح الحياة أو سَلبِها. لهذا كان يُقاوم من أجل أن يعيش، ويموتُ من أجل أن يحيا، ويَأنَفُ من أن يَستجدي كي يبقى حيًّا كريمًا، بل يقبل الموت إن كان في الحياة ذُلٌّ وإهانة. هناك أخلاقٌ للصّعلَكَة أوجدَتْها البادية، لكنّها ضُبِطَت بالكرم والشّجاعة والاعتزاز والفُتُوّةِ والحِلم والعفو والشّرف والمروءة. لم تكن صعلكَةُ البَدوِ في حقيقتها إلّا دفاعًا من أجل الحياة، وجهادًا لمقاومة ظروف المحيط القاهر. كلّ كائنات البادية تقاوم من أجل أن تعيش، ويبقى البدويّ واحدًا منها. إنّه يعيش ليبقى، ولكنّه يدرك أنّ لكلّ شيءٍ نهاية، وهو يقبل تلك النهاية لأنّها قصّةُ الحياة، وقانونُ الوجود. لم يكن يرهَبُ الموت، لكنّه كان يخشى الذُّلّ، ويفزَعُ من الفضيحة، ويقاومُ من أجل الكرامة. هكذا أمضى هؤلاء البدو حياتهم. كانت هذه الأيّام التي تلت عودة المنتصرين أيّامَ بهجة وسرور لكلّ مكوّنات المجتمع البدويّ الصّحراويّ. لم يَشُذّ عن القاعدة واحدٌ، بل طَعِمَ الجميعُ حتّى شَبِعوا بعد هُزال. أليس طعامُهُم لبنَ إبلٍ ممزوجًا بماء؟ وإن اغتنَتِ الخيمةُ منهم، حَظِيَ أفرادُها بتمرٍ وحِساء.

بدأت المفاوضات لتوزيع السّلط في البادية، في الأيّام التي تلت، بعد الواقع الذي أفرزته انتصارات البراكنة وحلفائهم، وهزيمةُ خصومهم الآخرين.

جلس الشّيخ بكّار الغول وسط القوم وتكلّم أوّلًا، وحمد اللّـه وأثنى عليه بأن مكّنهم من النصر. ثمّ ذكر لهم أنّ أهل شنقيط كانوا دومًا أوفياء لكلّ الدول التي تعاقبت على حكم بلاد المغرب، سواء التي قامت على العصبية القبليّة، كالمرابطين والموحّدين والمرينيّين، أو تلك التي قامت على الشّرفِ كالأدراسة والسّعديّين وأخيرًا العلويّين. ثمّ استطرد في امتداح الدولة الأخيرة وأثنى عليها. وحتّى يُموقِعَ نفسَه زعيمًا لجُلّ القبائل، فإنّه ذكر أنّه بعثَ نيابةً عن جميع القبائل الحسانيّة بمبايعة السّلطان مولاي إسماعيل، ودعاه إلى زيارة ولاياته في الصحراء لتجديد الولاء له. ثمّ أخبرهم بأنّ

السلطان ردَّ عليه برسالة ذكر فيها عطفه على رعاياه من قبائل المغافرة في إيالته الشريفة، وأنَّ له مع قبيلة الودايَة المغفريَّة نسبًا وقرابة، إذ إنَّ والدته تنتسب إلى هذه القبيلة. ثمَّ استطرد الشيخ بكّار في كلامه، وذكر لهم أنَّ السُلطان أخبره بأنَّه قادم لصلة **الرَحِم** بأخواله حتَّى يتَّخِذَ منهم بِطانة وجُندًا، ويستعينَ بهم في تمتين عُرَى الدولة وبَسطِ نفوذها. كبُر القوم وهلَّلُوا، فذكَّرهم الشَّيخ بكَّار بما ينبغي لهم أن يقوموا به لاستقبال أمير المؤمنين المولى إسماعيل في ربوع دولته في الصَّحراء، وأن يجمعوا الرجال الأقوياء والعبيد الصَّنادِيد حتَّى يُجَنَّدوا ضمن جيش المولى إسماعيل.

تولَّى أحد الفقهاء المحترمين من الترارزة تحريرَ ما اتَّفَقَت عليه القبائل من توزيع السُلَط بين فئات أهل الشوكة، وأهل الزوايا، وأهل اللَحمَة، وتمكَّن أصحاب الزوايا، وهم الفقهاء والعلماء، من أن ينتزعوا، على الرَغم من تحالفهم القديم مع ناصر الدين وهزيمتهم في تلك الحرب، مكاسبَ مهمَّة، ويحصلوا على سُلطة معنويَّة، لأنَّ فئة المحاربين كانت محتاجة إلى من يعلِّم أفرادها ويَؤُمُّهم ويَدلُّهم على قواعد المعاملات الشرعيَة في تجارتهم ومبادلاتهم.

انفَضَّ الجمعُ، وعاد كلَ واحد إلى مضارب قبيلته مُطَوَّقًا بأغلظ الأيمان على احترام ما تمَّ الاتِّفاق عليه، لكنَّ سلطةَ السُيوف التي في أيدي فئة المحاربين كانت كفيلةً بإخضاع كلِّ مَن تُسَوِّلُ له نفسُه بَعثرَةَ الاتفاق الجديد، والعبثَ ببنوده.

وسريعًا، انفصلت السُلَط، واستطاع أصحاب الزوايا أن يُقنعوا فئة المحاربين من أصحاب الشوكة بضرورة الرُجوع إليهم في كلِّ شاذَّة وفاذَّة، فقام تحالف بين الفريقين، وبقيت الفئة الثالثة في خدمتهما.

***

كانت والدة خناثة تُلِحُّ على ابنتها في الانصياع لعادة التَّسمين حتَّى لا تصبح حديثَ الغادي والرائح في القبيلة، وتُنعَتَ بأنَّها «لا تَهُشّ ولا تَنُشّ»، مقارنةً بسائر الفتيات، لكنَّ خناثة كانت تنتفِض، وتتمَرَّد على هذه التقاليد التي تترصَّدَ بأُستاهِ البنات وتَرقبُهُنَّ في خُطورهِنَّ يُرَجرِجنَ الأردافَ والأكفالَ حتَّى يَقَعنَ بِحُسنٍ من سَومِ عُيون المتربِّصينَ على رأسِ كلِّ المسالِك والأسبِلَة. كانت الأمُّ تُعالج سلوكَ ابنتِها بحذر، وصرفَت نهائيًا سَلَّمبُوها التي فقدَت كلَّ إمكانيَّة لتُمارسَ قسوتَها، وتُشبِعَ شهوتَها في الوَخز والقَضم كَيما يسرعَ الامتلاء. كانت الأمَ تقدِّم إلى خناثة كلَّ يوم أكلات متنوِّعة وشهيَّة، وتدعوها إلى مَزيد من قَضمٍ وتَلقُّمٍ كلَّما كَفَّت البنتُ

عن تَناوُلِ الطعام. ثمَّ كانت تزيد تدريجيًا كمِّيَّةَ اللَّبن الذي تصبُّه لها يوميًا. أدركت خناثةُ أنَّ عليها أن تعالِجَ بِحُسنِ السّياسة عوائدَ أهلِها، وتُوازِنَ بينها وبين رغبَتِها في أن تختارَ لنفسِها ما ترضاه ومَن ترضاه. لقد كان موقفُ الرفض لتلك العوائد مستحيلًا، ولعلَّها، إن تمادت في عِنادِها، تُقهَرَ في إرادتها على ما لا تطيقه، فقرَّرت أن تنالَ بالكِياسة ما لا يُنالُ بالرَّفض والمعاندة.

نَضِجَت خناثة، بمواصلة هذا النِّظام الغذائيِ الجديد، وصارت فتاةً مُكتملةَ الأنوثة، بارزةَ الأعضاء، معتدلةَ الرَّدفين، تَحرِصُ أمُّها على تَطرِيفِ أناملها بالحنَّاء فتبدو مثلَ المَساوِيك اللَّطيفة، ثمَّ تفلِّك ثدياها كأنَّهما سفرجلتان في شكلهما، وخوختان في مَلمَسِهما. فلو رامَ رامٍ مَسكَ تلك الأحياز المَنِيعَة بكفٍّ، لامتَلأت بذلك الثدي المُفَلَّكِ الناهد، والكَعبِ المطَوَّقِ السَّاهِد، حتَّى تنفرجَ أصابعُ تلك الكفِّ المتسلِّلة، ثمَّ إذا سامَهُ ذلك المتطلِّع المتنطِّع ثَنيًا لم يَنثَنِ بين كفِّه لتكعيبه. أمَّا نحرُها فأمسى مُصفَرَّ التَّراقِي، لِنَضحِه بالمُغَصفَر والغَوالي.

وليتَك تستمرُّ في رحلة التَّمَلِّي بهذا البدر المتدَلِّي، حتَّى تُشرِفَ على ذلك الجِيدِ المنتصِب بياضًا. وليتَها تسمح بزَورَةٍ في ذلك الملتمَس، واستِلام ذلك الملتَزَم. فإن سرَّحتَ الطَّرفَ بَعدُ إلى قُبَّةِ سمائِها، رأيتَ ذَقنًا كأنَّه كَثِيبٌ شامِخٌ ينحدر قليلًا ثمَّ يرتفع حتَّى يُفضيَ بك إلى ثَغرٍ شَنِيبٍ نَضِيد، حَسَنِ الرَّصف، مُستَوِي النَّبات، بين ثناياه فَلاجَةٌ يسيرة تزيد في سَقيِ الرُّضابِ لأحجار دُرِّها فَيَلمَعُ سناها عند كلِّ فُرجَة، وحِينَ كلِّ ابتسامة. أمَّا أنفُها، ففيه شَمَمٌ واستِواءٌ مع ارتفاعٍ أعلى القصبة، على نحوٍ يَدُلُّ على كَرَم الأصل. وعن اليمين وعن الشمال، خدَّان ارتفعَت بهما الوَجنتان كأنَّما وردُ وَسنان نضحَهما طَلُّ الصباح وأيقظتهما أوَّلُ إشراقة. أمَّا العينان، فكَحَلٌ بلا كُحل، وفُتور يَبعثُ على السَّرور، وانكِسار في اقتِدار. فإن رُمتَ سِباحةً في ماءِ تينك البركتين، صلاك حاجباها المرجَّجان بِصارِم الأسِنَّة. بَلجاءُ نقيَّة، وَضحاءُ صَفِيَّة، شَعرُها سَبِطٌ مُستَجاد. ساقاها ليَنان خَذلان، وكِفلُها عَجيزةٌ مَلساء. استَكتَمَت خَلخالَها قدماها في جُنحِ ليلٍ فلم يَصمُت، حتَّى إذا نَسَمَت ريحُ الشَّها، فاحَ عَبيرُ عَزفِها فافتضَحَت. تتهادى في مِشيتها من دون تَصَنُّع. خَمصاءُ القدمين مع استطالةٍ مَليحة في أصابعها. معصماها ريَّانان من صِيانَة وَرَغَد، زانَتهما دَملجتان دقيقتا الصُّنع، فائقتا السَّبك، كأنَّها جمَّارةُ لِينَةٍ غَضَّة بَضَّة.

كانت خناثة تحلمُ دومًا بالملكة نونة، وتتمنَّى أن تُصبحَ يومًا ملكةً على هذه الرُّبوع. تتناسلُ أحلامُها فتتخيَّلُ على أيِّ هيئةٍ ستكونُ أبَّهَةُ مُلكِها، وما

هي القرارات التي ستتَّخذُها، وعلى رأس أولويَّاتها مَنعُ عادة تسمين البنات، لأنَّ التَّسمين عنوانٌ لتوزيع السُّلَط بين الرجال والنسوان. فمجالُ نساءِ البادية الأخبِيَةُ والقدورُ، ومجالُ الرجال الغزوُ جهة القَبول وأطرافَ الدَّبور. ما كانت خناثة لترضى بأن تكون رَحًى في زاوية خِباء، أو مُشطًا في جَيبِ عَباء، أو حديثًا بين العجائز لِتَجزية الوقت مع حُلول المساء. بل كانت تطمح إلى امتلاك شارة الملوك، والهبوب للركوب والنُّزال كأصحاب مفاخر السلوك. كانت لها همَّةُ الملوك وصفاتُ الأملاك. سَتستَنُّ لقومِها عاداتٍ جديدةً.

هكذا كانت تحلُم خناثة وترسمُ في خيالها كلَّ الاحتمالات للوصول إلى غايتها، لكن الذي كان يُخيفها كثيرًا هو إجبارها على الاقتران بابن عمِّها الدَّميم، أو أحدِ فتيان قبائل الأقاليم. كان الاختيار بين أحد الاحتمالين صعبًا بالنسبة إليها، فلا هي تقبل دمامةَ ابن عمِّها عليّ، ولا هي كانت تقبلُ بالغربة عن قبيلتها إلى قبيلة أخرى.

مع استوائها على عرش جمال القبيلة، أصبحت خناثة محطَّ نَظرِ كلِّ الشباب، وسَعَتِ الأمَّهاتُ والجدَّات في تيسير السُّبُل وتوصيلِ الأخبار لعلهنَّ يظفرنَ بالعنقاء الفريدة لأحد أبنائهنَّ. أمَّا عليّ، فازدادت شراسته لمَا ضَعُفَت حظوظه أمام كثرة المنافسين. وزاد في غيظه إعراضُ خناثةَ عنه، وتحقيرُها إيَّاه، وتبكيتُها له كلَّما عزمَ عليها أو رامَ الحديثَ معها. كانت تتناهى إليها من صويحباتها كجمولة وكحوانة والعزَّة أخبارُ الطالبين وأسرارُهم. وكم كانت أوقات السَّمَرِ على ضوء القمر فُرَصًا للصَّبايا والشَّباب حين يقتربُ السِّربُ من السِّربِ في جُنح الظلام. وعلى الرَّغم من أوثِقَةِ الخيام، وحِرزِ الأمان السَّائد في تلك المضارب، فإنَّ للتَّهوُّر معنًى، وللإقدام اِسمًا ورسمًا. وكم من رديٍّ زَلَّت به قدماه، وآخرَ هوَت به كلماتُه أو غمزاته، وخناثةُ في كلّ هذا أميرةٌ بلا إمارة، تنتظرُ يومًا تحكمُ فيه تلك البلادَ وتملأها عِمارة. لم يكن يشغلها إلَّا أخبارُ الملكة نونة التي كانت تَرهبُ البحر حتَّى حطَّ بساحل صحرائها شابٌّ كأنَّه ذو النونِ يونُس. فما زال يؤانسُها ويداعبُها حتَّى شرَدت عن رُهابها من الماء، واستقلَّت معه في فُلكِ النون مُعَرِّضَةً نفسَها لِحَتفِ المَنون، فالتقَمَهُما الحوت، ثمَّ لفظهما على ساحلٍ بَينَ يَمٍّ وبحرٍ وأمواج في جزيرة بها سِدرٌ ويَقطين، وللقِصَّة أذيالٌ تحكيها الجدَّاتُ في ليالي الأسمار عن بحر نون.

لم يكن يملأ عينَ خناثة واحدٌ من أولئك الشباب، فذو النون في تلك البلاد عديمُ الوجود، وليس له نعتٌ ولا صفةٌ ولا حدود. فَلْيَتَصابَ الفتيان ما شاؤوا، فإنَّها في إعراضِها عنهم مُصِرَّةٌ، ولتشبيباتِهم وصُوَرِهم غيرُ

مُنصِتَةٍ أو مُقِرَّة. ولعلَّ فارسًا يأتي من جهة البحر، أو من خلف الجبل، أو من قلب الصحراء كي يفوز بقلبها، ويظفرَ بحبَّةِ فؤادها. كانت تُفَكِّرُ في هذا الفارس الأبديّ الذي يأتي مِن لا أين، فلا تَنفَكُّ تَحبِكُ خيوطَ الحكايات، وتتعانقُ في قصَّتها البداياتُ مع النهايات. كان الضَّغطُ عليها شديدًا، سواءً من أهلِها أو مِن ضَوَيحِباتِها أو مِن نَظَراتِ أقرانِها وقَرِيناتِها، ومِن أركانِ القبيلة وأفخادِها وبطونها. لكنَّ خنائةَ مقيمةٌ في تَخَنُّثها، وعن أيمانها غيرُ حانِثَة، ولا لهؤلاء وأولئك مكترثةٌ أو ناظرة. فلمَّا استيأسَ القومُ منها نَجِيًّا، ولم يُفلِحوا منها رَدًّا نديًّا، أعملُوا الفِكَرَ، وجالوا بأنواع النَّظر، فعزموا على والدها الشَّيخ بكَّار حتَّى يُزَوِّج مهاتَهُ النَّافرةَ لفارسٍ من فرسان القبيلة الأكفاء. كان ابنُ عمِّها أوفر حظًّا من غيره لقرابَةِ اللُّحمة، وتجاوُرِ غَرزِ الوَتَد وَوِثاق الخِباء، لكنَّها كانت له رافضة، وقصةُ رفضِها له ولغيره معلومةٌ وظاهرة.

فلعلَّها تَقبَلُ غيرَه، لَعَلَّها... ولعلَّها تقولُ كَيتَ وكَيت، لعلَّها.

نادى الشَّيخ بكَّار على صَبِيَّتِه فائقةِ الحُسن والدَّلال، بعدما فشِلَت مساعي النِّسوان في تزويج البنتِ بواحد من الوِلدان، مُستفهِمًا عن سِرِّ إعراضها عن الخُطَّاب بلا مَلَلٍ ولا كَلال. ثمَّ سرد لها مَثَلًا حَسَانيًّا رائجًا فقال لها: «رَدُّ العَمايِم يا ابنتي يورثُ النَّدايم»، ويقصد أنَّ رفضَ الخُطَّاب من الرجال أصحابِ العمائم يتركُ المرأةَ بلا زواج، فتندم بعد حينٍ على تمنُّعِها.

أرخت خُنائةُ أستارَ جفونِها على تينك العينين النجلاوين، فتكسَّرَت نَظراتُها بِفتورٍ زادها حُسنًا وإشراقًا. فَتَرت شفتاها تبحثان عن الكلمات التي تسلَّلَت من فَلاجتها المليحة، مَبتورةَ المقاطع والحركات، كأنَّها ذَهِلَت عن الفَرق بين النَّفي والإيجاب. تحاشى الوالدُ أن يُرِيكَ الظَّبيَةَ في كِناسِها، وفَطِنَ لِحِشمَتِها وخُفورِها، فَرَقَّت كلماتُه لها، وحاول أن يفسحَ في قلبه كي تُسنِدَ إليه وجهَها وظهرَها. وما إن أحسَّت بلُطفِ أبيها يُسارِرُها في حَبَّةِ قلبها حتَّى انطلقَ لسانُها بالتَّعبير، مُفهِمًا تارةً، وتارةً مُوارِيًا بالتَّعمِية والتَّصوير.

أخبرته بأنَّها رأت في منامها أنَّ من سيتزوَّجُها يكادُ يكونُ **اسمُه عَلِيًّا**. ثمَّ أنشدت بيتًا سمعَتهُ في المُبَشِّرَة:

اسمُ الذي تَيَّمَ قَلبِي الحَسَن عِيلَ له صَبرِي وَطارَ الوَسَن

فَنِصفُه أولُ ما قُلتُهُ ونِصفُهُ بعدَ مَقالي الحَسَن

ثمَّ أضافتِ المبشِّرة: وسيملِكُ مُلكًا كبيرًا، وأنَّه مِن أشرَفِ بَيتٍ وأرفَعِ

دَوحَة. استوى على عرش مُلكه مستمِدًا من استيلاء **الرحمن** على **العرش المحيط**. حِكمَتُه عَليَة، ورضا ربِّه عنه رتبةٌ سَنِيَّة. تولَّى مُلكَه بعد رُشدٍ. له دواوينُ **الإحصاء**، فيها أسماء الجيوش والخدم والحَشَم والخيول والمماليك... خزائنه تَئوءُ بالمدَّخرات، وكُرسِيُّهُ على جواده، لا ينزل ولا يَبلَى. بنى البنيانَ الوَثيق. تسبيحُه «سبحانَ ربِّي العظيم وبحمده». فمن كان بهذه الأوصاف الرحمانيَّة نال رَحِمَ الرَّحمَة الخُنائيَّة.

هكذا تكلَّمتِ الرؤيا، وهكذا نقلَتها خنائة إلى والدها، وللقوم تصديقٌ بالمرائي عظيم، فلا يُمضُونَ الأمور إلَّا وِفقَ ما جاءت به الأخبار في الخُدُور، ولهم في قصَّة يوسفَ الصِّدِّيق حُجَّةٌ ودليل. أدرك الشَّيخ بكَّار أن ليس في القبيلة كفؤٌ لخنائة ولا مُستحِقٌّ لاستِنجازِها زَواجًا أو خِطبَةً، فنادى في القبائل بِمَهرٍ دُونَه الحَتفُ والرَّدَى. وأعلن أن لا يَتَزَوَّجَنَّ من ابنتهِ إلَّا فارسٌ جالسٌ على عرشِ محيطِ المملكة الشريفة. وتناقل الناسُ قصَّةَ الرؤيا العجيبة، وسارع المعَبِّرون يجتهدون في تعبيراتهم. فَمِن قائل إنَّه عليُّ ابنُ عمِّها، المعيَّنُ اسمُه في الرؤيا، ومن قائل إنَّه فلان بن فلان، المسمَّى **عبد الرحمن** من قبيلة التَّرارزَة، ومن قائل إنَّه **عبد المهيمن** من قبيلة البراكنَة، ومن قائل إنَّه **عبد المحصي** من قبيلة آدرار، ومن قائل إنَّه **عبد القابض** من قبيلة إدُوعِيش. أمَّا البيت الملغز، فلم يعرفوا توجيهَ معناه، وحملوا قولَه «الحَسن» على كنية عَلِيّ بأبي الحسن. جاء كلُّ **العبادلة** إلى مضارب القبيلة، وتفرَّسَت فيهم بنتُ الخُنثِ من خَلف ستارِ شَفَّاف، وسَمِعت مقالةَ كلِّ واحدٍ منهم، فكانت تُحدِثُ حركةَ صفير بِفَمِ الفَمِ تُكنِي بها عن الرَّفض، كما هي عادة البِيضان في إفادة النَّفي. انصرف الشَّباب جميعًا، بمن فيهم ابنُ عمِّها الذي كان يُمَنِّي نفسَه لمطابقة اسمه مع الاسم الوارد في الرؤيا. وجاء آخرون وآخرون، ولم يُسعِفهُم الحَظّ.

مَشَت أخبارُ خنائةَ في كلِّ الصَّحراء، وصارت حديثَ الغادي والرَّائِح، إلى أن حَلَّ بمضارب القبيلة رسولٌ يُخبر بدخول السلطان مولاي إسماعيل أرضَ شنقيط. تَسوَّرت خُنائةُ خلف تلك التَّعِلَّة، وأنشأت لنفسها أسبابًا وعِلَّة، وتمنَّعَت من قومها وخُطَّابِها. لم يكن أمام النسوةِ والقوم إلَّا الإذعانُ لِعِنادها حتَّى ينجلي صُبحُ ذلك الزمان، وانصرفوا للاستعداد كي يستقبلوا السلطانَ الأعظمَ مولاي إسماعيل من الأسرة العلويَّة الشريفة. فما كلُّ يومٍ يأتي إلى مضارب قبيلتهم سلطانٌ من أعظم سلاطين الدَّنيا. وقد سبق السُّلطانَ فرقةٌ من الطَّوَّاشِين أو «الفرايـگـية»، وهم جماعة من العبيد مكلَّفُون بِنَصبِ خيمَةِ السُّلطان يتقدَّمهُم قائدهم. كما جاء خَدَمَةٌ آخرون لِنَصبِ سائر الأخبية. نَصَبَ الطَّوَّاشُونَ قُبَّةَ السُّلطان، وأحاطوا بها قِبابًا

وَأوثِقَةً، ثمَّ سَيَّجُوا الكلَّ بِسِيَّاج يسمَّى «أفراگ»، ومنه سُمُّوا بذلك الاسم. كما جاء «قائد الأروَى»، وهو المكلَّف بالمؤونة، وكان محلُّه إلى يمين السِّياج المذكور. ثمَّ نُصِبَ محلُّ الحاجب، ومحلُّ «الحَناطِي» الداخليَّة، وَهُمُ الفِرَقُ المكلَّفة بالحراسة السُّلطانيَّة، ثمَّ محلُّ الصَّدرِ الأعظم، وبالقرب منه محلُّ جيش الرُّماة المكلَّفين بالحراسة اللَّيليَّة. وهؤلاء يطوفون بخيولهم من صلاة العشاء إلى صلاة الصُّبح. ثمَّ نُصِبَت محلات سائر الوزراء.

كان أهل القبيلة منشغلين بمراقبة هذه الأعمال العظيمة التي لم يروا مثلها من قبل. وكان القائد المبعوث يشرح للشَّيخ بكّار نظام مَحلَّةِ السُّلطان، المذكورة على هذه الصِّفة. ثمَّ نصبوا محلًّا أمام السِّياج لجلوس وزير الحرب، وإلى جانبه خيمتُه، وهي محلّ جلوس الصدر الأعظم وغيره من الوزراء، وقائد المِشوَر.

لم يعهد أهلُ البادية الرُّحَّل هذه الأوضاعَ الملوكيَّة الفخمةَ التي تدلُّ على تَأثُّلِ المُلك وقوَّة الدولة، فانبهروا أيَّما انبِهار بهذه الترتيبات. واستمرَّ العبيدُ والخدَمُ في تهيئة الخيام والأخبية يومًا كاملًا قبل مجيء السُّلطان.

***

طاف السُّلطان في الصَّحراء، وأوغل ناحية الشرق حتَّى وصل إلى مدينتَي وَلاتَّة وتِشِيت، وَطَوَّفَ في كلِّ شنقيط، ثمَّ عاد نحو مناطق الحَوض والقِبلَة. وأشرف على مضارب قبيلة البراكنة، فحَطَّت مَحلَّتُهُ الرِّحالَ.

جمع الشَّيخ بكّار كلَّ عناصر السُّلَّم السُّلالي الصَّحراويّ، بحيث كانوا يعتبرون أولاد الجَدّ الرابعَ عشرَ شعبًا، وأولادَ الجدّ الثالثَ عشرَ قبيلةً، وأولادَ الجدّ الثانيَ عشرَ عَمارةً، وأولادَ الجدّ الرابعِ بطنًا، وأولادَ أبي الجدّ فَخِذًا، وأولادَ العَمّ فَصِيلةً. أمَّا الإخوة فيقال لهم عَشِيرة. عجيب أمر أهل البادية، فإنَّهم سَمَوا أفرادَ نظامهم السُّلالي وجعلوه وفق خِلقَةِ الإنسان. فالشَّعبُ أعظَمُها، أخذوه من شِعبِ الرأس. ثمَّ القبيلة من قِبلَتِه، أيْ مُقَدَّم رأسه، ثمَّ العَمارة، وهي الصَّدر، ثمَّ البطن، ثمَّ الفخذ، وأخيرًا الفصيلة، وهي ساق الإنسان. وهكذا جاءت تفاصيلهم على نحو التفاصيل الخَلقية للإنسان. إنَّهم جسد واحد مهما تباعد الرأسُ عن الأطراف.

جاء هؤلاء من كلّ أنحاء بلاد شنقيط لاستقبال مولاي إسماعيل بن الشريف، جاؤوا لتقديم البيعة والولاء. كان البسيط الذي ضُرِبَت فيه الخيام فَسيحًا، وكانت كلُّ قبيلة قد نَصَبَت خيامَها وَرَفَعَت أعلامَها، وربطَت خيولها أمام أوثِقَةِ أخبِيَتِها.

أمَّا محلَّةُ السلطان فقد كانت مثلَ المدينة المتنقِّلة بجيشها وخدمها وقَضِّها وَقَضِيضِها، ناهيك عن كبرائها من الوزراء والقواد والكَتَبَة والقضاة وغيرهم. وصل السُلطان إلى محلَّتِه في اليوم التالي. كان راكبًا على جواد عربيّ أصيل، أدهمَ اللَّون، ويلبس سِلهامًا أبيضَ اللَّون، وعلى رأسه شاشِيَّةٌ حمراء كُوِّرَت عليها عِمامَةٌ بيضاء، وتدَلَّت على كتفه اليُمنى سلسلةٌ رفيعة تحمِل سيفه. كانت للسُلطان لحيةٌ خفيفة سوداء اللَّون. وبدا تحت سلهامه الأبيض، دِرعٌ واقٍ، وتحت الدرع قميصٌ أبيضُ اللَّون بكمَّين طويلين. كان يلبس سروالًا فضفاضًا، وجَزمةً طويلة تصل إلى حَدِّ ركبته. في هيئته هيبةٌ ملوكيَّة، وجِدَّةُ نَظَرٍ تَدُلُّ على ذكاء وصِدقٍ وَهِمَّة. أخذتِ الطبول تَدُقُّ، وكانت خيول القبائل مُصطَفَّةً إلى جهة اليمين، وخَيلُ العسكر إلى جهة اليسار، فأدَّوا له التَّحيَّة، فردَّ عليهم قائد «المِشوَر» وحيَّاهُم بالنيابة، إلى أن دخل السُلطان فُسطاطه داخلَ سِياجِ «أفراگ». سُمِحَ للشَّيخ بَكَّار ووجوه القبائل بعد ذلك، بالمثول بين يدي السُلطان للسَّلام عليه، فدخلوا وأدَّوا التحيَّة. ثمَّ قدَّم الشَّيخ بكَّار بين يديه تمرًا وحليبًا، كما كانت العادة في الاستقبالات السُلطانيَّة، ثمَّ قدَّم الهدايا من الذهب والعاج والوَبَر وجلود الوحوش النادرة، والسُيوف والخناجر. وبعد تقديم الهدايا، بدأ الفرسان يصطفُّون صفًّا صفًّا، من كلّ قبيلة صَفٌّ من الفرسان يسمَّى «سُربَة»، يتزعمهم مُقَدَّمٌ يأتمرون بأوامره، ولا ينطلقون إلَّا عند إشارته. يحملون المكاحل، وهي بنادق طويلة تُشحَنُ بالبارود. بدأوا ألعابَ «التبُوريدَة»، وهي استعراض وسباق للفرسان بخيولهم في مضمار معلوم على إيقاع واحد منتظم. خلال عَذوِهِم الفائق، ترى البارعين منهم يقومون بحركات بهلوانيَّة على صهوات خيولهم من دون أن يفقدوا توازنهم. وترى آخرين يلعبون بِمَكاحِلِهم الطويلة بين أيديهم، تتراقص برشاقة عجيبة ذاتَ اليمين وذاتَ اليسار، رأسًا على عَقِب، وعَقِبًا على رأس. وحين يَصِلُونَ أمام القبَّة السُلطانيَّة، يصيح الرئيس صيحةً عالية، فيضغطون على زناد مكاحلهم فتنطلق مدويةً، ويتطاير دخانُ البارود من فوَّهتها، فيوقفون خيولهم في الوقت نفسه وبإيقاع موحَّد. ثمَّ يأتي الدَّور على «سُربَةٍ» ثانية مؤلَّفة من عشرين فارسًا أو يزيد قليلًا، من قبيلة أخرى، فتجري في المضمار نفسه، حتَّى إذا قَطعَتِ المسافةَ واقتربت من سياج «أفراگ» السُلطانيّ، أطلقَت أعيِرَةَ المكاحل نحو السَّماء، فتسمَعُ صوتًا واحدًا يملأ الفضاء. وهكذا، استَمَرَّ لعبُ فِرَقِ الفرسان، ينطلقون في الوقت نفسه، وبسرعة واحدة، وإيقاع واحد، حتَّى يقطعوا الميدان ذاته، ويطلقوا فُوَهات المكاحل نحو عَنان السَّماء فتسمعُ فرقعةً عظيمة تَصُمُّ الآذان، ويتصايح الحاضرون

بالتَّصفيق والإعجاب والهُتاف. كان الفرسان لابسينَ أزهى ثيابِهم، وخيولُهُم مُطَهَّمَة بِسُرُوجٍ مُلوَّنة. لا يركب الفارس فرسه حتَّى يكونَ قد قرأ حزبه اليوميّ من كتاب دلائل الخيرات لسيدي بن سليمان الجزولي. ولا يُسمح للفارس بأن يلتحق بالفرسان ما لم يكن من أصحاب هذا الدَّليل. لذا، كان كلّ فارس يُعَلِّقُ على كتفه اليسرى الدَّليل في كيس جلديّ له خيط حريريّ رفيع، ويُسحَبُ إلى يمين بطنه. الدَّليل كتاب في الصلاة على النبيّ، وهو وِردُ كلِّ الفُرسان، كما أنَّ حزب البحر لأبي الحسن الشاذلي هو وِردُ كلّ البَحَّارة.

هكذا استمرَّت هذه الألعاب مدَّة من الزَّمن، فتعود كلّ فرقة بعدما يحينُ دورها. كانت ألعاب الفروسيَّة مناسبةً لإظهار مهارات الفرسان والخيول، وكي تعربَ القبائل الصحراويَّة عن ابتهاجها بِمَقدَمِ السُّلطان مولاي إسماعيل بن الشريف إلى مضارب قبائلهم. كان هذا تشريفًا كبيرًا أن يَحُلَّ ببلادهم، ثمَّ استأذن الشَّيخ بكَّار السُّلطان مولاي إسماعيل في قُبول دَعوته بزيارته في خيمته العظيمة التي كانت تتوسَّط خيام القبائل الأخرى. لبَّى السلطان دعوةَ الشَّيخ بكَّار، وسار مع وفد رفيع من رجاله إلى خيمة الشَّيخ الذي كان يتقدَّمُ الموكب السُّلطانيّ. ترجَّلَ السُّلطان عن جواده، ودخل الخيمة تصاحبه هتافاتُ الرجال، وزغاريدُ النساء، وطلقاتُ المكاحل. وأخذ مجلسه وسط الخيمة العظيمة، واصطفَّ إلى جانبه كبار الضيوف من الأشراف والعلماء، والقاضي، والصدر الأعظم، والوزراء والحاجب، وكبار القواد. وقف الشَّيخ على الخدمة بنفسه مُرحِّبًا بالسُّلطان وحاشيته. ثمَّ جدَّدَ البيعة وقبَّلَ يد السُّلطان، وقام سائر شيوخ القبائل وبايعوا السُّلطان، مجدِّدِينَ ولاءَهم.

أولَمَ الشَّيخ بكّار وليمة عظيمة بمناسبة مَقدَمِ السُّلطان إلى مضارب القبيلة، وتكلَّم السُّلطان فذكَّرَ بقرابته مع أهل هذه المناطق في ربوع إيالَتِهِ الشريفة. ثمَّ طلب من الشَّيخ بكَّار وسائر شيوخ القبائل أن يجمعوا له ما استطاعوا من الرجال من قبائل السودان، وقبائل المغافرة كي يلتحقوا بجيشه. وأخبرهم بأنَّه سَيُجلِي بهؤلاء الجنود جيوشَ الكفَّار عن ثغور المسلمين المحتلَّة. أخذ الكلمةَ الشَّيخُ بكَّار، وسارع إلى الموافقة على أمر السُّلطان، ووعد بأنَّه سيجمع العديدَ من رجاله وعبيده كي ينخرطوا في جيش السُّلطان. ثمَّ قام الشيوخ وأعربوا عن النِّيَّة نفسها، والتزموا بتقديم مَن يستطيعون تقديمه من رجال. وبلغ ما تَمَّ تدوينه في زِمامِ الجُندِ ذلك اليوم، ألفا جنديّ من السودان، ناهيك عن المجنَّدين من قبائل الأوداية البيضان. سُرَّ السُّلطان باستجابة شيوخ القبائل، وأثنى على الشَّيخ بكَّار. ثمَّ

طلب توثيقَ الصلة مع رعاياه في الصَّحراء عبر المصاهرة.

كانت مائدةُ، جَدَّةُ خناثة في جانب من الخيمة تتسمَّعُ إلى الأخبار، وإلى جانبها حفيدَتُها تنقل إليها ما لم تتمكَّن من سماعه لِصَمَمٍ في سمعها بسبب تقدُّمِ سِنِّها. فلما انتهى إلى سمعِها طلبُ المصاهرة، أخذَت قدحًا من لبن وطبقًا من تمر المجهول الذي هو أرفع أنواع التمور، وناولتهما لخناثة، ثمَّ أمرتها بأن تذهبَ بهما إلى السُّلطان. لم تَفطن الحفيدةُ إلى نيَّة جدَّتها من وراء هذا الطلب، فسارعت إلى امتثال الأمر. رفعتِ السِّتارةَ الحاجِبةَ، وتقدَّمت حتَّى بلغَت ناحية السُّلطان، فقدَّمت إليه قدح اللَّبن أوَّلًا، ثمَّ طبقَ التمر ثانيًا. تفرَّس فيها السُّلطان مَلِيًّا، ووقعَت منه مَوقِعًا حسنًا. تناول اللَّبن أوَّلًا، فشرب منه واستطابه، وكان يستطيبُ في الوقت ذاته جمالَ الفتاة التي تخدُمُهُ، ويستجيدُها. تَلَبَّثَ في ارتشافه حتَّى يتملَّى من طَلعَتِها. ثمَّ وضع قَدَحَ اللَّبن، وتناول تمرة من الطَّبَق. لم يُزِح نظره عن الفتاة. ثمَّ قال لها: ما اسمك يا فتاة؟

خفضَت طرفَها، فزادت عيناها النجلاوان غُنجًا ودَلالًا. لم تُجِب عن سؤال السُّلطان، فسارع الشَّيخ بكَّار بالجواب: إنَّها ابنتي خُناثة.

فقال السُّلطان: اسمٌ على مُسَمًّى، ولا شكَّ في أنَّها تَرَبَّت في خُنثٍ وصِيانة. ثمَّ سأل مرَّة ثانية: هل هي متزوِّجة؟

فقال الشَّيخ بكَّار: لا يا مولاي، ليس بعد.

فقال السُّلطان: وكيف لمثل هذه الفتاة المكتملة الأنوثة أن تبقى من دون زواج.

فقال الشَّيخ بكَّار: صدقتَ يا مولاي. لقد حاولنا أن نُزَوِّجَها بمن تختار من شبَّان القبيلة، فلم ترضَ بالزواج من أحدٍ منهم.

فقال السُّلطان: وَلِمَ هذا الإباء؟

فقال الشَّيخ: لقد رأت في منامها رؤيا عجيبةً، ونحن أهلُ البادية لنا تصديقٌ بالمرائي. وفي المرئيَّة شروطٌ وألغاز بشأن زواج خُناثة، لم نفهمها.

فقال السُّلطان: هلَّا تخبرني بهذه الألغاز؟

فقصَّ عليه الرؤيا، ثمَّ ذكر له اللُّغز، وأنشده البيتين الشعريَّين:

اسمُ الذي تَيَّمَ قَلبِي الحَسَن عِيلَ له صَبرِي وَطارَ الوَسَن

فَنِصفُه أوَّلُ ما قلتُهُ ونصفُه بعدَ مَقالي الحَسَن

فقال السُّلطان: وهل اهتديتم إلى معنى البيتين؟

فقال الشَّيخ بكَّار: لقد سألنا المُعَبِّرين، وأغلبهم أطبقوا على أنَّ اسم العريسِ «عليّ»، وأنَّ كنيَتَه «أبا الحسن».

ضحك السُلطان حتَّى بدت نواجِذُه، ثمَّ قال: كَذبَ المعبِّرُونَ ولو صَدقوا.

فقال الشَّيخ: وكيف ذلك يا مولاي؟

فقال السُلطان: انظروا إلى الشَّطر الأوَّل من البيت الثاني. إنَّه يقول «فنصفه أوَّلُ ما قلته». وأوَّلُ ما قاله هو كلمة «اسم» في البيت الأوَّل. ثمَّ قال في الشطر الثاني من البيت الثاني «ونصفه بعد مقالي الحسن». ونصف ذلك الاسم، جاء بعد كلمة «الحسن»، وهو كلمة «عيل». فإذا جمعت النصف الأوَّل وهو كلمة «اسم»، والنِّصفَ الثاني وهو كلمة «عيل»، كان الاسم الملغوز «إسماعيل».

أخذ القوم يتعجَّبون، ثمَّ كبَّروا وهلَّلوا، وصار أغلبهم يقول على عادة البيضان: واللَّـهِ، واللَّـهِ، واللَّـهِ، ويردِّدونها مرَّات ومرَّات مع إظهار كسرة الهاء في اسم الجلالة، فقال الشَّيخ بكَّار: واللَّـهِ يا مولاي، ما فَطِنَّا لهذا الأمر، وإنِّي أشهِدُ اللَّـه أنِّي أهديك ابنتي هذه، فليس يستحقُّها غيرُك.

ضحك السُلطان ولم يعقِّب على كلام الشَّيخ بكَّار فيمن يستحقّ الزواج بمن، لكنَّه تجاوز عن عفويَّة الأب. أمَّا خناثة فقد لَفَّت طرف ثوبها على وجهها من خجلها بعدما انصَبغت ديباجاتُها بلون الجُلَّنار.

تكلَّم مولاي إسماعيل وقال ردًّا على الشَّيخ بكَّار: أشكرك على هذه الهدية الغالية التي لا تقَدَّرُ بِسَومٍ، لكنِّي أعتقد أنَّ علينا أن نسألَ المعنِيَّة بالأمر إن كانت تقبل بالزواج منِّي، ولاسيَّما أنَّك ذكرتَ أنَّها رفضَت كلَّ من تقدَّم لها، فلعلَّها ترفُض مجدَّدًا. فإن رضيَت، قبلتُها هَنِيئَةً بها نفسي، وإن لم ترضَ، لم يَعُد للهدية معنًى، إذِ الرضا في هذه الأمور واجبٌ شرعيّ.

فقال الشَّيخ بكَّار: إنَّها راضية يا مولاي، ولا يمكنها أن تخالفَ أمري، فأنا وَليُّها.

فقال السُلطان: لا وِلايةَ على القلوب يا شيخ. فَلنَسأل ابنتَك إن كانت راضيةً بما قَرَّرتَ نيابةً عنها. فإن رضيَت كان ذلك ما نريد، وإن لم ترضَ، تُرِكَت في حالها. ألم تقل لي إنَّها رفضَت كلَّ من تقدَّم لها من قبيلتكم ومن سائر القبائل الأخرى؟ فما الذي يجعلها تقبل هذه المرَّة؟

تحيَّرَ الشَّيخ بكَّار في الورطة التي أوقعَ نفسه فيها، ولم يعرِف كيف يتخلَّصُ من الحَرَج الذي أوقعَ فيه نفسه وقبيلته، كما أوقع فيه السُلطان بالدَّرجة الأولى. نظر إلى ابنته يَستغيثُ بها حتَّى تُنقذَه من هذا الموقف الحرج. أزاحت خناثة الخمارَ عن وجهها، فبدا قطعةً من نور كستها حمرة الشفق. كانت عازمة على الكلام هذه المرَّة، فالقضية تعنيها بالدَّرجة الأولى. لقد كانت دومًا حريصة على حرِّيَّتها، فها هي الفرصةُ سانحةٌ أمامها لتقرِّر مستقبلها بعدما أنصفها السُلطان. ماذا ينبغي لها أن تقول؟ نظرت إلى

والدها، ثمَّ إلى السُلطان، ثمَّ تفرَّست في شيوخ القبيلة وشبابها. لمحت ابنَ عمِّها يشير إليها برأسه يدعوها إلى الرَّفض حتَّى يظفرَ بها على زعمه. أسبلَت جفنيها، ورفعت قوسَ حاجبها أرسلته بريدًا عنها إليه حتَّى لا يشمخَ بنفسه فيطمعَ فيها الدَّميمُ السَّفيه. لقد انتهت هذه اللُّعبة إلى الأبد. ستقرّر خناثة الآن مصيرها. لقد أرادت أن تكون دومًا سلطانةً مثل الملكة نونة، وها هي الفرصة السانحة تأتي إليها لتحقّق أهدافها. فلماذا سترفض؟ ستكون سلطانةَ قرارِها، وما عليها إلَّا أن تقبل، وتتزوَّج السُلطان وتحقّقَ أمنيتها التي لطالما راودتها في أحلام اليقظة والمَنام. لقد رأت تلك الرؤيا العجيبة، وسمعَت تلك المقالة الغريبة، وأُلقِيَ إليها بِذَينك البيتين اللذين لم يستطِع أحَدٌ فَكَّ لُغزِهما حتَّى عُرِضا على السُلطان فأفاد الجميعَ بحقيقة الاسم الملغَزِ الذي يطابق اسمَه. أفلا يكون من الإنصاف أن تقبلَ الرجلَ الذي يطابقُ اسمُه اسمَ الأُحجِية نفسَه، ويقعُ عليه وقوعَ الحافر على الحافر؟ أفلا يكون من العدل أن تختار من اختاره القدرُ لها؟ كانت الأسئلة تلاحقها، لكن شيئًا ما، كان يُرهِبُها. لعلها رهبَةُ المُلك أو الاقتران بالمَلك، أو لعلَّه الخوف من أن تكونَ واحدةً من نساء السُلطان، قابعةً في حَريم الخُمول الوَسنان. كانت الاحتمالات تتزاحم في رأسها، ولم تكن لترضى بأن تعيش عيشةَ نساءِ حريم القصور. إنَّها امرأةٌ حُرَّةٌ أصيلة، شَبَّت على الحرِّيَّة مثل أهلها.

قالت للسُلطان، في تَحَدٍّ سافِرٍ: إنَّني أشترط عليك شرطًا واحدًا قبل الموافقة.

ضحك السُلطان وأعجبه إقدامُها، فقال لها: اشتَرِطي علينا، فَمِن حقِّكِ ذلك.

فقالت: أطلبُ أن تسابقني كَفَرَسَي رِهان. فإن سبقتَني تزوَّجتَنِي، وإن سبقتُك، خَلَّيتَ بيني وبين نفسي.

ضحك السُلطان وعجِبَ من أمرِ خناثة، وزاد فضولُه ورغبتُه فيها، فقال لها: لم نعهد رَبَّاتِ الخُدور يُسابقنَ الرجال، لكن لكِ هذا. ثمَّ قام من مكانه، وقام القوم في إثره. دعا بِمُهره، وجاء سائسٌ يقودُ فرسَ خناثة. تَمَّ الاتفاق على مضمار السباق، وهو الميدان نفسُه الذي كانت تؤدي فيه فِرَقُ الفرسان عُروضَ «التبُوريدَة» آنِفًا.

ركب على مُهره الأدهَم، وركبت خناثة على فرسها الأزهَر. كان السُلطان سعيدًا غايةَ السَّعادة بهذا التَّحدِّي الذي لم يكن يتوقَّعه من خناثة، لكن ذلك زاد في إثارته. وطلب من الشَّيخ بكَّار أن يعطي إشارةَ الانطلاق، ووقف أحدُ العبيد في نهاية الميدان حاملًا أحدَ الأعلام. واتَّفق المتسابقان على أن

يَلُفًّا خلفَ العبد الواقف في نهاية الميدان ثمَّ يَعُودا إلى حيث كانت الانطلاقة. كان الشَّيخ بكَّار مُحرَجًا غايةَ الإحراج بسبب عِناد ابنَتِه، لكنَّه كتمَ غيظَه. كان يتمنَّى في قرارة نفسه أن يَتِمَّ الأمرُ على خير، ويدعو أن ينتصرَ السُّلطانُ حتَّى لا يقعَ في إحراج، إذ لو انتصرَت خناثة، التي كانت بارعة في ركوب الخيل، لتكلَّمَ الناسُ في كلِّ البلاد على انتصارها على السُّلطان. وهذه مَعَرَّةٌ مُخفِرَةٌ للذِّمَّة. والسَّلامة في مثل هذه الأمور أن يتحاشى المتباري مع الكبراء الفوزَ عليهم، بل عليه أن يترك لهم ذلك، ويُظهِرَ في الوقت نفسه، فشلَهُ في مُطاوَلَتِهم، خشيةَ أن يتغيَّروا عليه، أو ينالَهُ مكروهٌ من حاشيتهم. لكنَّ خناثة لم تكن لتحتاط مثلَ هذه الاحتياطات، بل لعلَّها كانت أحرصَ على الفوز في منافستها مع السُّلطان. كانت ترى نفسها مؤتمَنةً على حقوق النِّسوان في هذه اللَّحظة، فلا يمكنها أن تخذُلَهُنَّ. كان عليها ألَّا تُصانِع أو تُهادِن. سلَّم الشَّيخ بَكَّار أمرَهُ إلى اللَّـه، ثمَّ أعطى إشارة الانطلاق. مضى الفارسان يُسابقان الريحَ، وأبدت خناثة من فنون الرُّكوب على فرسها ما جعل السُّلطانَ مولاي إسماعيل يُعجَبُ بها، واستوى عنده أن يفوزَ أو تفوزَ هي، على الرَّغم من أنَّه في قرارة نفسه كان يتمنَّى أن يفوزَ عليها ليتزوَّجها. سابقها على مُهره الأدهم الذي كان بريقُه يلمع من بعيد، فكانت تقتربُ منه حتَّى تكادُ تُحاذِيه، ثمَّ تنطلق قليلًا لتسبِقَه فيلحقُ بها. كان السُّلطان في غاية السُّرور، وكانت خناثة تبذل كلَّ ما في وسعها لتفوز، على الرَّغم من أنَّها كانت ترغبُ، في الوقت نفسه، في أن تخسرَ لتتمكَّن من الزواج بالسُّلطان، إلَّا أنَّها لم تكن تريدُ أن تُقهَرَ في إرادتها، وكانت تريدُ ألَّا يتزوَّجَ بها إلَّا مَن يستحقُّها فعلًا. مضيا يَعدُوانِ عَدْوًا متواصلًا، ولم يكن يُرَى خلف الفارِسَين إلَّا نَقعُ حَوافِرِ الخَيل. وصلا إلى نهاية المضمار حيث مرَّت خناثة أوَّلًا، ولَفَّت على العبد الواقف والذي تلقَّى نَقعَ الغُبار على وجهه، لكنَّه بقي واقفًا كالسَّروَةِ الشامخة، ثمَّ لَفَّ في إثرها السُّلطان مولاي إسماعيل. استمرَّت متقدِّمةً عليه، ومُهره يلهث وراء فرسها. نظرَت إليه، ورفعَت حاجبيها تتشَفَّى منه في هزيمته. ابتسم السُّلطان من مُشاكَسَتِها، وأعجَبَته جسارَتُها. ولما لم يَبقَ على خطِّ الوصول إلَّا نِصفُ مَسافةِ الميدان، وحَصحَصَ الحقُّ، همزَ المولى إسماعيل مُهره الأدهم فانطلق كالريح المرسَلَة حتَّى لحقَ بفرس خناثة، ثمَّ مضيا يركضان بالوتيرة نفسها، وكأنَّهما أدركا أنَّهما فارسان كفؤان. وحتَّى لا يُضَيِّعَ السُّلطانُ الفوزَ بهذه الظبية النافرة، والغزالة الجامحة، همز رِكابَه على بطن مهره، واستحثَّهُ على مضاعفة الجهد، فبدا كأنَّ المهر أدرك الرهان، فمضى يسبح سباحةَ الصَّافِنات الجياد حتَّى تجاوز فرس خناثة. نظر السُّلطان إلى

خناثة مبتسمًا كأنَّه يستحثُّها على اللِّحاق به حتَّى تدفع فرسها الأزهر ليلحقَ بجواده الأدهم. بذلت ما في وسعها لتلحق به، فكانت تقترب من كِفلِ المهر، ثمَّ يبتعد عنها، وكأنَّ أنفاسَ فرسها كانت تُحرِّك في مُهر السُّلطان قوَّةً، فيندفعُ لِيُسابِقَ الريح. بقي مولاي إسماعيل محافظًا على تَقدُّمِه حتَّى خَطِّ الوصول. ولما أقبل ناحية الشَّيخ بكَّار ورجال القبائل، تنهَّدَ الجميعُ خوفَ المَغرَّة التي كان من الممكن أن تحدث لو خسِر السُّلطانُ الرهانَ، لكنَّ المولى إسماعيل كان فارسًا لا يُشَقُّ له غُبار، وله ثقةٌ بمهره الأصيل، ويعلم قدراته العجيبة في الكَرّ. كان مُعجَبًا غايةَ الإعجاب بخناثة، وزادت حماسته للزواج بها بعدما فاز عليها باستحقاق، فصار من حقِّه أن يتزوَّجَها. ترجَّلَ عن جواده، ثمَّ تقدَّمَ إلى خناثة وساعدها على التَّرَجُّل عن فرسها. وقال لها: لقد اشترطتِ عليَّ شرطًا ووَفَّيتُ به، لكنِّي مع ذلك لا أريدُ أن يكونَ الزواجُ بك مَقرونًا بهزيمة، فيبقى في نفسِك دومًا ما يُعَكِّرُ هذا الزواج، بل إنِّي أُخَيِّرُكِ، وأُحِلُّكِ من شرطِك الآنف، وإنِّي أطلبُ يدَكِ أمام كلِّ القبائل، فهل تقبلينَ بي زوجًا لك؟

فقالت خناثة: لقد فزتَ في الرهان، وكان ذلك شرطي الوحيد، فـ «أنا لَكَ، فَلا تُرجِعْنِي إلَيَّ». إنِّي راضية بهذا الزواج، وليس هناك ما يمكن أن يُعَكِّرَ صَفوَ باطني.

قُرِئَتِ الفاتحة، وحُرِّرَ العقد، وأُشهِدَ الشهود على انعقاده. كان صداقُ خناثة ومهرُها غاليًا لم تشهده صحراء البيضان من قبل. مئةُ مثقال ذهبًا، كما هي عادة عقود السَّلاطين من الأشراف العلويِّين، سلَّمها إلى والد العروس، وثلاثُ إماء يخدمنها، وجواهرُ نفيسة وحِليٌ من الذَّهب الإبريز. كانت العادة عند بدو الصحراء أن تُقدَّمَ خيمةٌ للمخطوبة تكون لها مُلكًا، حتَّى إذا افترقا، طردَت المرأة زوجَها من خيمتها. سيقَتِ الخيولُ العِتاق، وصندوقٌ فيه المثاقيلُ الذهبيَّة، وصندوقٌ آخر مليء بالحِلِي، وثالثٌ للأثواب الرفيعة وهدايا أخرى. اغتنى الشَّيخ بكَّار من هدايا السُّلطان كما لم يغتنِ طوال حياته من الغزوات. ثمَّ ألبسه مولاي إسماعيل من خِلَعِه، وحلَّاه بلطيف الألقاب، وأدناه إليه، وقرَّبه منه.

أمر السُّلطان يعمل الولائم لمدة ثلاثة أيَّام للتعريس بخناثة. جاء المغنُّون والعازفون بآلاتهم، يلبسون فاخر ثيابهم. كان الرجال يحملون أسلحتهم، ومضى الجمع يتنقل في مضارب القبيلة، ويتوقَّف عند كلِّ خيمة فيغنون ويعزفون ويهتفون، وتعالت زغاريد النساء. مَرُّوا على أهمِّ خيام القبيلة وتوقَّفوا عندها، ثمَّ عادوا إلى خيمة الشَّيخ بكَّار حيث أقيمت حفلة العرس. كان الموسيقيُّون يبرعون في الغناء العذب والعزف الجميل على آلةِ عودِ

صغير يسمى «تِيدِينيت»، وآلة وتريّة أخرى اسمُها «أردِين» تعزف عليها النساء فقط، وهي عبارة عن صندوق خشبيّ نصف كرويّ مكسوّ بجلد خروف ومتّصل بعمود الزند ومصنوع من خشب صحراويّ. وعُلّقت على هذه الآلة صُنوجٌ معدنيّة لها رَنّةٌ عجيبة. وإضافة إلى هذه الآلات الوتريّة، هناك آلة «النّيفرَة»، وهي نايٌ له خمسة ثقوب، ثمّ الطبل والزّأم والـگـدرَة، وهي آلات إيقاعيّة. وتشكّل طريقةُ الضرب عليها والتوقيع بها حركاتِ مَشيِ الإبل نفسَها، سواءً في خَطوها أو سِباقها.

ولما حلّ اللّيل ونزل الظلام، باتت خناثة في خيمة والدها وعاد السُّلطان إلى خيمة «أفراگ». وفي اليوم التالي، جاء الموكب نفسُه بالأسلحة والآلات الموسيقيّة. كان أحد العبيد يسوس فرس خناثة الأزهر. خرجت إليهم بالزغاريد والهتافات، وركبت على فرسها، ومن حولها الصبايا يزغردن ويغنّين، والشبابُ يرقصون ويرفعون سيوفهم في الهواء. مضى الموكب مرّة أخرى يطوف على خيام القبيلة، خيمةٌ في إثر خَيمَة، بمصاحبة العازفين، وطلقات بارود المكاحل. مضوا هكذا إلى أن وصلوا أمام قبّة السُّلطان فخرج إليهم مع حاشيّته ووزرائه وقوّاده. تولّى صاحب المظلّة تظليلَ السُّلطان الذي ركب على فرسه الأدهم. مضى العروس والعريس يتهاديان في مشيتهما على توقيعات الزغاريد، وغناء المطربين، وعزف العازفين، وإطلاق النار من المكاحل، وقرع الطبول. كانت المظلّة تظلّلهما. وظلا يمشيان والموكب من حولهما. تقدّما حتّى وصلا إلى خيمة العرس. دخلا وكان في استقبالهما الشّيخ بكّار وكبار رجال القبائل. أخذا موقعهما في وسط المجلس، ثمّ أكل الجميع وشربوا، بينما كان المغنّون يغنّون بأصوات شجيّة وألحان بطيئة على عادة غناء أهل الصّحراء، مصحوبةٍ برقصات بديعة متوالية. تولّى بعض الخدم وَضعَ شِوارِ خناثة وصناديقِ أمتعتها وحُلِيّها. كانت العروس سعيدة لأنّها تمكّنت من تحقيق جزء من هدفها، وبقي عليها الآن أن تمضي إلى النهاية لتحقيق سائر أحلامها التي لطالما راودتها. وقامت في اليوم الثالث من نومها واستحَمّت. كانت القَيّمة على نظافتها تَصُبُّ عليها ماء فاترًا، بينما كانت خناثة جالسة على مِهراس، كما هي عادات الزواج عند البيضان. دفعت المهراس برجلها، بعد الاستحمام، ثمّ قامت حتّى تتولّى المعلّمة العنايةَ بها وببشرتها وشعرها. كانت النساء يطلبن منها أن تضع الحليّ الفاخرة على صدرها وفي عنقها، فأبت إلّا أن تخرج إلى بيت زوجها في بساطة نادرة، واكتفت بلبس ثيابٍ بيضاء اللّون. كانت صويحباتها يُهَيّئنَها وَيُمَتّعنَها بغناء أشعار من فنّ التغزل بالرجال المسمّى «التّبراع»، وكنّ حريصات على ألّا يسمعه الشباب أو

الرجال. كان شعرًا حميميًا، بينما كانت نسوة عازبات ومطلّقات يؤدين أمام خيمة خناثة رقصةً تسمَّى «الـگـدرَة»، عادة ما تكون رقصة فيها إيحاءٌ عشقيّ، وإغواء شبَقِيٌّ، لِلَفتِ الانتباه إليهنّ حتَّى يخطبهن الخُطّاب، لأنَّ الحركات المؤدّاة كانت مثيرة للغاية، وماجنة إلى حَدٍّ معيّن حتَّى تحقّق المطلوب بطلب الزواج، وإثارة الشباب والرجال لخطبتهن. خرجت خناثة في موكبها إلى خيمة السُلطان. ذُبِحَتِ الشِّياهُ والأبقار ونُحِرَتِ النُّوقُ الصغيرة لإطعام الوفود الكثيرة. كما وُزِّعَت الهدايا والنُّقود والثِّياب على الجميع، حتَّى لم يَبقَ بيتٌ إلَّا وَصَلَهُ السُلطانُ بوافر نَواله. وصلَت خناثة إلى قُبّةِ السُلطان التي كانت تفوحُ بِعَزفِ العُود. كانت العروس تضع على جِيدها تمائمَ ذاتَ لونٍ أبيض، كما هي عادة البيضان في مثل هذه المناسبات لِدَرءِ العين، وإبعاد جميع الشرور. أفضى السُلطان إلى زوجه، وأفضت إليه. كان السُلطان فحلًا من الفحول، وقد طَوَّفَت شُهرَتُه في الآفاق، فلم يَبلُغ مَلِكٌ قَبلَه مثل ما حازَ من نساء وإماء. كانت له قدرة خارقة على المرور على نسائه وإمائه، وكأنَّ تشريفهنّ في خدورهنّ كان يبعث فيه طاقة متجدّدة على النكاح. لكن خناثة لم تَرَ نساء أخريات في محلَّة السُلطان، لأنَّه كان آنذاك في حركة عسكريَّة لبسط نفوذه، وتأمين سلامة البلاد. كانت نساء السُلطان في حريم عاصمة ملكه مكناسة الزيتون، ولم يصطحب أيًا منهن معه. رأى السُلطان من زوجه مَفاتنَ لم يعهدها في سائر نسائه، فوقعَت منه موقعَ الزِّبيبَة على اللِّسان، فصار يَمحَكُها ويَستَطِيبُها ويتشَرَّبُ حلاوَتَها طوالَ اللَّيلة. كان من الممكن ألّا يُبقِي منها إلَّا نِضوًا باليًا، وجلدًا فانيًا، لكنَّ خناثةَ كانت فَحلَةً بامتياز، وبَعلَةً لها سَورَةٌ وارتِكاز، فرأى منها ما جعله يقتنع بأن نساءَ الصحراء البَدَوِيَّات لا يُعلَى عليهِنَّ بين النِّساء. كانت خناثة تُراوِدُ السُلطان مُراوَدَةً فيها كثيرٌ من الغُنج والدَّلال مع قُدرَةٍ على استطالة اللَّذة إلى أقصى مدَّة. وكان السُلطان جيِّدَ الركوب، فأبانت له خناثة عن رِقَّة وصَبابة، وطيبِ صُبابة. لم تكن مُهرَةً حَرُونًا عاتكة، بل كانت عَرُوبَةً سَهُولَةً عاتِقَة، تلين إذا اشتَدَ، وتعلو إذا انخفض، وتَنبَسِطُ إذا انقَبَض، فَباتا بأحسنِ لَيل، وأطيَبِ عَزفٍ، وَأعطَرِ شَذًى، وأنسَمِ رِيح. كان مولاي إسماعيل يظنّ أنَّه قد امتَطى صَهوةَ فرس، فأفادته عنقاءُ الصَّحراء السَّاحرة بأنَّها ركبت صَهوةَ جواد قبل أن يركبَها، فاستوى الراكب والمركوب، بل استوى المنزِلُ والنازل، فأنعِم به وصالًا بين فارسين، فيهما من الاقتدار والرقّة ما لا يُنازَعُ بِنَظِير. وأتحِف به لِقاءً بين عاشقين، فيهما من خِلالِ الشَّرف وخِصال العِزّ، بقدر ما فيهما من التَّصابي والتَّخاضُعِ والتَّذلُّلِ، بما لا يُظفَرُ بمثله في زمان، ولا يَستقِلُّ به إنسٌ أو

إنسان.. أمضيا ليلتهما في سماءٍ بنجوم متهاوية تُشرقُ بين كلّ لَثمة، وتهوي بين كلّ ارتِفاق، وتُضيءُ مع كلّ شفْةٍ، وتبرُقُ مع كُلِّ انتِسام. تشابكتِ الأيدي وتواجشتِ السّيقان، وتعافرت الخُدود، وتَناوشَتِ الثُّغور باللّثمُ تارةً، وبالعضّ تارةً أخرى، وجرى ماءٌ، وسالَت مياه، حتّى ظَرِيَتِ العِيسُ بلا حُداة، وصَهَلَتِ الفهُور قبل استهلال الشُّداة. في خيمة البيداء، وهَبَّةِ الفَيحاء، صالَ العاشقان عِشقًا وَولها. ولم يُصبِح الصباحُ إلّا وقد طار الوَسَنُ إلى الجفون، واستطابَ العاشقان فراشَهُما الوَثير، الشّاهدَ على أوّلِ ليلة بين الزوجين، والإلفَينِ الحبيبين. أصابت خناثةُ إسماعيلَ بشَكّةٍ في قلبه، فهام بها وهامت به. أدركت أنّ بعض الوُدّ قد يَستنجِزُه العَهد، فأغارت عليه في تلك الصبيحة. واستنزَلَها في أوثَر طريحة، فَتوادَدا ساعةً ثمّ ساعة، وبعدها ساعة، وثلاثُما وتعانَقا، ثمّ تفارقا وبعد حِينٍ توائقا، ولم يلبثا أن تعاطفا كأِفٍ ولام، وشرِبَ ماءَها، وشرِبَت ماءَه، وفاح شذاها، وطابَ سناها، وانبجَست بَشرتُها بِذرُ صَبيبٍ على جامِ فِضّيٍ لَهِيب، والخَدَمُ بأوثِقَةِ القُبّةِ مُستمسِكون، ولكلّ هدهدٍ مُنصتون، وعلى الأعتاب منهم جوقةٌ مُتحلّقون، لا يَصدرُ عنهم أدنى صوت، ولا يغيبُ عنهم أحقَرُ فَوت، ينتظرون الفَلاحَ، منذ انبِلاج نُورِ الصباح. أرسلَ المرؤدُ في قلبِ الجُمّارَة اللّدنَةِ الهشّة، فاستطعَمَ كُوزُ الطّلعِ المُجاجةَ المباركة، والغصارةَ اللّجناء. فاضت العين عند التقاء الخِتانين، وسعى المرؤدُ مفتاحًا يفتح الأقفالَ المرصَدة، والأبوابَ الموصَدة حتّى افتَضّ الخِتام. أخذ السُّلطان منديلًا أبيضَ، فاستحال بالفِضّةِ الفائِزَة أحمَرَ قانِيًا. تأوّدَت خناثة في مَضجَعِها، وتَلوّى فحلُها في مطرَحِهِ، وثضّوّع منهما نَشرٌ قديم.

كانت للزواج عاداتٌ معلومة، وتقاليدُ مَرعِيّةٌ محمودة. حَنحَنَ رئيسُ الوُصفانِ استِئذانًا من السّلطان حتّى يَنثُرَ عليهما مَنشورَ الوِلاية البيضاء التي انصبغَت بها راية العِناية الحمراء. قام السّلطان من فراشه الوثير مُنتَضِيًا في سِلخِ أبيضَ شَفّاف، فألقى منديلَ العُذريّة للوَصيف. سارع الخِلاسيُّ المخصِيُّ فالتقط مِنديلَ الفُجازةِ الشّريفة، وأودعهُ آنيةً ذهبيّة صَفيفة، حيطَ شَفيرُها إلى حُدود مَركزها بأوراقِ وَردٍ وقَرَنفُلٍ وياسمين وعُود وبَخور. ألقى الوَصيفُ منديلَ الشهادةِ المختومة، والبراءة المكتومة في حُقّ الإشهاد، فانطلقتِ الزّغاريد، وتعالتِ الأصوات بالصّلاة على النبيّ، ثمّ افتتح صاحبُ الطبلِ بإيقاعٍ متلاحق، وزاوجه صاحبُ النّفخ على الةِ «الغِيطَةِ» يُسابِقُه في إيقاعه، ويجاريه في جريانه، وكأنّهما فرسا رهان. تراقص الناس بعد بروز الآنية على رأس الخَصِيّ. فإن لم يفخر الخِلاسيُّ يومهُ ذاك بذِكرِهِ لِفلازمةِ العِلّة، أفلا يفتخِرُ بذِكرِ سَيِّدِهِ فَفيهِ غُنيَة، ويَجعلُ

علامةَ وَسمِه، وفَيضةَ حَسمِهِ على رأسه، إذ فَضَّةُ الختام، لا بُدَّ لها من رقص وإعلان وفِضَّة وتمام.

***

أمضى السُلطان عدَّةَ أيّام في مضارب قبيلة الشَّيخ بكّار، عيَّن خلالها الباشَوات والقُوَّادَ في كلِّ الصحراء، من تُمبُكتُو إلى وَلاتَة ثمَّ تِشِيت وشِنقِيط وغيرها، وبنى التَّحصينات العسكريَّة هنا وهناك، ثمَّ تَأهَّبَ للعودة إلى عاصمة مُلكه. ودَّعَت خناثة جدَّتها التي ذكَّرتها بعدم نسيان هدفها، وتمنَّت لها حياة سعيدة، ثمَّ ودَّعت والديها وعائلتها. كانت دموعُها تجري من الفِراق، لكنَّها كانت سعيدة بحياتها الجديدة.

غادرت محلَّةُ السُلطان منطقةَ القِبلَة من بلاد شنقيط، ويَمَّمَت صوب عاصمة مُلكِ السُلطان في الشَمال.

عاد السُلطان مع خناثة إلى قاعدة ملكه، وعاصمة دولته، مكناسةَ الزَّيتُون[8]، وجلب معه ألفين من الحَراطِين، بنسائهم وأولادهم، فكساهم في مراكشَ وسلَّحهم، وولَّى عليهم قائدًا لهم، ثمَّ أرسلهم إلى المحلَّة في مدينة سلا للتدريب، المسمَّاة «قصبة گناوَة». وأكمل هو طريقه إلى حاضرة ملكه في مكناسة الزيتون.

لم تكن خناثة تعرف شيئًا عن عادات الملوك، لكنَّها كانت راغبة في التَّعلُّم. ما إن حلَّت في مكناسة، وحلَّت في دارها السُلطانيَّة ضمن دُورِ الحريم السُلطاني، حتَّى طلبَت من زوجها أن يُعَيِّنَ لها من يُدرِّسُها، ويَسهرُ على تعليمها. حَفِظَتِ القرآنَ، وقرأتِ الحديث، وأهداها السُلطان نسخةً رفيعةً من صحيح الإمام البخاري. كان يسهرُ على تعليمها الشيخُ المكيّ الدُكَّالي. وكانت تبعث إليه بِلَوحِها الذي تكتب عليه ما تحفظه كلّ يوم مع خادمتها، فَيُصَحِّحهُ لها. واستمرَّت على هذا الحال حتَّى حَفِظَتِ القرآنَ الكريمَ كاملًا. كانت معجبة بديانة زوجها السُلطان الذي كان يصوم شهرين في العام، إضافة إلى شهر رمضان. في سنة 1090هـ/ 1680م.، اعتَلَّتِ السماء، ولم ينزل المطر، وحَلَّ الجَدبُ والقَحط، فخرج السُلطانُ لأداء صلاة الاستسقاء في 15 صفر الموافق فيه السابع عشر من مارس، حاسِرَ الرأس، حافيَ القدمين، في ثياب بالية خَلِقَة، مرفوقًا برجال دولته وكبارِ العلماء والصالحين، وعددٍ كبير من رعيَّته. وبعدما أدَّى سُنَّةَ الاستسقاء في ذلك الجَمع المهيب، طاف على جميع مساجد المدينة، واستغرق يومًا كاملًا في الدُعاء والتَّبَتُّل. أثَّرَ هذا السُلوك في خناثة، وعلمت بأنَّ زوجها رجلٌ متينُ الديانة، صحيحُ الاعتقاد، لم تستهوِه الرياسةُ والمُلك حتَّى يتخفَّفَ من التكاليف، أو يتساهل فيها، بل كان حريصًا على الفرائض، مُحِبًّا للنوافل،

مُؤثِرًا لأهل الصلاح من العلماء. وعلمَت بأنَّه لما قَرَّر بناء القَصَبة الإسماعيليَّة في حيّ القُرجَة المريني، الذي بناه المهاجرون الأندلسيُّون، هدم الحيّ، وأبقى على جميع قباب الأولياء والعلماء وقبورهم وأضرحتهم في مدينته السُلطانيَّة، فلهذا كانت قصوره وحدائقه مَجمَعًا للصالحين. ويكفيه بذلك شرفًا وعناية.

***

تناسل ما كان لدى السُلطان من السُودان، وصار عددهم كبيرًا. جمعهم بعد أن قرَّ قرارُه على تأليف جيش منهم بدلًا من الاعتماد على القبائل في حركاته وغزواته، على نحو يُعِيقُ بناءَ دولة قوِيَّة، وحتَّى يستطيع أن يقمَعَ أهل الشَّر والفساد. كان السُلطان يهدف إلى اجتِثاثِ الفتن، وتثبيت سلطة الدولة من دون الحاجة إلى القبائل التي لم تساند الدولة إلَّا مُكرهةً أو في مقابل امتيازات. كما كان رجال القبائل يتعصَّبون لقبائلهم، وهو ما لا يتماشى مع أهداف الدولة التي كانت تطمح إلى إدماج عصبيَّات القبائل في عصبيَّة عُليا، وكَسبٍ ولائهم لها. جمع مولاي إسماعيل العبيد[9] في فضاء واسع في مكناس، وأخذ نسخةً رفيعة من صحيح البخاري، وخاطبهم قائلًا: «أنا وأنتم عبيدُ لِسُنَّةِ رسول اللّه صلَّى اللّه عليه وسلم وشرعه المجموع في هذا الكتاب. فكلّ ما أمَرَ به نفعلُه، وكلّ ما نهى عنه نتركُه، وعليه نُقاتل»، فعاهدوه على ذلك. ثمَّ إنَّ السُلطان أمر بالاحتفاظ بتلك النسخة ووضعِها في صندوق حتَّى تُصان، ثمَّ كان هذا الجيش البخاريّ يحملها معه، ويجعلها في المقدّمة. ولهذا السَّبب سمِّي هذا الجيش «عبيد البخاريّ»، مع أنَّ من كان منهم مملوكًا في السَّابق قد تَمَّ عِتقُه ليلتحقَ بهذا الجيش.

كان السُلطان يأخذ بناتِ الحراطين فيسلِّمُهنَّ إلى عَرِيفاتِ قصوره، كلّ فنة في قصر، فيتعلَّمنَ الأدب والصنائع اللَّازمة، ثمَّ يزوِّجهنَّ بعد ذلك لأقرانهنَّ من الفتيان الحراطين حينما يُكمِلونَ تدريبهم، إذ كانوا يدخلون الخدمةَ ابتداءً من بلوغهم سنَّ عشر سنوات، فيمضون سِتَّ سنوات في تَعَلُّم فنون الحرب، وبعض «الحَناطِي» أو الصنائع والحِرَف التقليديَّة، ثمَّ يُزَوَّجُهم بعد تخرُّجِهم من قريناتهم من الحرطانيَّات، ويعطيهم ما يستطيعون به بناء أسرة ليتوالدوا، ويضمَنُ بذلك تجديد الجيش، بدلًا من الاعتماد على القبائل. ويلتحقون مباشرة بالجيش بعد زواجهم، ويرابطون في محلَّاتهم ومعسكراتهم، أو في القلاع أو القَصَبات العديدة التي بناها السُلطان في مختلف أنحاء البلاد لدفع هجمات المتمرِّدِينَ والقبائل السَّائِبَة، أو الطوائف المتطرِّفة، أو لدفع عدوان الدول الأجنبيَّة. كانت هذه السياسة

الجديدة للسُلطان أحدَ عناصر نجاحه، وبمثابة تأثيلِ مُلك الدولة وقوَّتها، وبَسطِ نفوذها وسيطرتها على مساحات واسعة، من شماليّ المغرب الأقصى إلى نهر السنغال جنوبًا. كما أنَّ السُلطان مولاي إسماعيل أوقف تمدُّد الدولة العثمانيَّة ومنعها من الوصول إلى المحيط الأطلسي بعدما بسطت نفوذها على كلّ بلاد المسلمين، ما عدا بلاد المغرب التي احتفظت باستقلاليَّتها وشخصيَّتها المتميِّزة وتقاليدها السياسيَّة العريقة.

حفظت خناثة أحاديث كثيرة، وختمَت صحيحَ البخاري، وكانت لها مُطارحات مع الشَّيخ المكيّ الدكالي، الذي كان ينقل إلى السُلطان نباهةَ زوجته ويُثني على علمها وأخلاقها، فيطرب مولاي إسماعيل لذلك.

كانت خناثة شابَّة في نَضارة العمر، وكان عليها أن تقاوم مناورات سائر النساء في الحريم. لم يكن لمولاي إسماعيل إلَّا أربع حرائر، وعشرات الإماء. وكان هذا يزعج خناثةَ التي كانت تظنّ أنَّها بزواجها من السُلطان ستحقِّقُ هدفَها في أن تصبح سلطانة، لكنْ لمّا رأت نساء زوجها الرسميَّات، والعددَ الكبيرَ من الإماء، أُسقِط في يدها، وتباعَدَ هدفُها عن التحقيق.

كان كلّ شيء مع السُلطان على خلاف القياس مع سائر الناس، فهذا العدد الكبير من النسوان في الحريم السُلطانيّ يكلِّف ميزانية عظيمة. ولا شكّ في أنَّ السُلطان كان يؤدّي لكلّ زوجة أو جارية يدخل بها مهرًا، وليس من شكّ في أنَّه أيضًا كان يُرضي مَن يُطلّقها بأعطيات ونفقات، ولابدَّ في كلّ مرَّة من دفع مبالغ ماليَّة. فإذا اعتُبر العددُ الإجمالي لتلك النسوة فإنَّ المبالغَ المصروفةَ ستكون، بلا شكّ، عظيمةً. وما أحسبُ أنَّ إنسانًا يَقدِرُ على هذا الإسراف إن لم يكن سلطانًا عظيمًا يتوفَّر على مداخيلَ ماليَّة عظيمة. وقد كان مولاي إسماعيل كذلك، فلا يمكن قياسُ هذه الحالة الفريدة بغيره ممَّن سبق أو لَحِق.

لم يكن ممكنًا أن تُواجِهَ خناثةُ سائر النساء، ولاسيَّما أنَّ السُلطانَ كان دومًا يتصاهر مع القبائل، أو يتسرَّى بالنساء لتمتين علاقاته بمختلف القبائل، وحتى الدول الأجنبيَّة، إذ يضُمُّ حريمُه نساء من شعوب وأعراق مختلفة. لم يبلغ أحدٌ مثلما بلغ مولاي إسماعيل في الفحولة، إذ بلغت نساؤه خمسمئة امرأة، منهنّ أربع زوجات رسميَّات، والباقي كلّهنّ إماء. انصرفت خناثة إلى العلم وتطوير كِفاياتها وقدراتها، حتَّى تبرع فيما لا تَبرَعُ فيه سائر النساء، إذ كان اقتصارهن على الاعتناء بجمالهن فقط. كانت تُعَزِّي نفسها بأنَّها ليست أمَة، بل هي زوجة رسميَّة من النِّساء الأربع اللَّائي كانت لهنَّ مزية على سائر النساء. وبقيت على صلة قوِيَّة بأهلها من المغافرة، حتَّى تضمنَ ركنًا شديدًا تستند إليه في بلوغ هدفها، على الرَغم

من وفاة والدها ووالدتها بعد سنوات منذ مغادرة مضارب قبيلتها. تنوَّعت خُطَّتُها وأصبحت ذاتَ شِقَّين، أوَّلهما علميّ، والثاني قبليّ. كانت تبعث إلى أهلها الرَّسائل والهدايا، واتَّخذت خاصَّةَ خَدَمِها منهم، إذ كانت تعلَمُ بأنَّ آفةَ الأخبار رُواتُها. وما أخطرَ دَورَ الخدمِ في نقل الأخبار، والسَّعيِ بين فُلانَة وعِلَّانة وتِركانَة؟ ثمَّ استطاعت أن تُقنِعَ السُّلطانَ بمواصلة استجلاب رجال من قبائل المغافرة للالتحاق بجيشه، وزَيَّنَت له الأمر، فمضى إلى ذلك، وهو أشَدّ اقتناعًا بالأمر. كما كانت تتحاشى أن تتصادم مع إحدى أقوى النساء في الدولة، وهي السُّلطانة لالَّة عائشة، أو لالَّة عَيشَة، الملَقَّبة بالسُّلطانة زَيدانة، لأنَّها أنجبَت للسُّلطان ابنًا سمَّاه زيدان. كانت تُحكِمُ قبضتها على جميع النساء في الحريم. وكان يحقُّ لها أن تخرجَ متى شاءت، بينما لم يكن في مقدور سائر النساء أن يفعلنَ ذلك إلَّا مرَّة واحدة في السَّنة خلال المولد النبويّ. وكانت السُّلطانة زيدانة تعزل من تريد، وتُنَصِّبُ من تريد، وكان الناس يرهبونها، وآخرون يتودَّدون إليها لقضاء حوائجهم وأغراضهم. ومن مهامها التي أوكلها إليها السُّلطان، إشرافُها على رواتب الجُند، فكان قيامها بهذه المهمَّة الخطيرة، عاملًا من عوامل نفوذها ضمن أهمّ مؤسَّسة من مؤسَّسات الدولة، وهي الجيش. واستطاعت أن تُقنِعَ السُّلطان بتقديم ابنها زيدان على بقية إخوته، وإفساح الطريق أمامه لتولي المُلك بعد والده. وحينما كانت تشعر بمنافسة أبناء غيرها من النساء، كانت تَكِيدُ لهن مع أبنائهنّ، فيرسلهم السُّلطان بعيدًا عن عاصمة مُلكه، إلى مدينة سجلماسة في تافيلالت، ويُغدِق عليهم من نَوالِه. وفي المقابل، كُنَّ يَخرجنَ وأولادَهُنَّ من دائرة السباق على تَوَلِّي الملك. وكان كثير من الأشراف يسكنون في سجلماسة، حتَّى قيل فيها «إنَّ مقبرةَ سِجِلماسَةَ هي بَقِيعُ المغرب». وكان كثيرٌ من أبناء السُّلطان وبناته وزوجاته، بعيدين عن عاصمة المُلك بسبب زيدانة ومناوراتها القوِيَّة. لكنَّ خناثة تنبَّهت إلى خطورة مُواجهتها، فوجَّهت عنايَتها إلى العلم أوَّلًا، وتعزيز مكانتها بالاعتماد على قوَّة قبائل جيش الوداية من المغافرة، لكنَّهم كانوا مستقرِّين في ضواحي مدينة فاس. أمَّا مكناس، فقد كان فيها عبيدُ البخاري. وكانت هذه الخطة المحكمة كفيلةً بإنجاح مشاريعها، والتَّقَدُّم على منافساتها. أمَّا السُّلطانة زيدانة، فكانت خُطَّتُها بأن تخدُمَ زوجَها السُّلطان وتتولَّى شؤونه الخاصَّة جِدًّا، حتَّى تلك المتعلِّقة باقتراح من يُشَرِّفُها السُّلطانُ لزيارتها في خِدرِها، وقضاءِ اللَّيلة معها. كما كانت تسهر على تَذَوُّقِ أطعِمَتِهِ مع خدمِها، قبل أن يتناولها خشيةَ أن يَدُسَّ له أعداؤه أو بعضُ نسائِه المَوتُورات السُّمَّ. وكم سَمَّت زيدانةُ مِن غَريمَة أو مُنافِسَة، فكانت تحتاط لأمرها غايةَ

الاحتياط، ولا تَترُكْ الأمرَ للصُدفَة.

بدأ نجمُ خناثةَ يَطلُعُ في سماء العاصمة الإسماعيليَّة، وأوكلَ إليها مولاي إسماعيل مهمَّةَ افتكاكِ الأسرى، والتَّفاوُضِ على ذلك، فكان كبارُ قُوَّاد جيشِ الوداية من المغافرة يزورونها، ويُسَلِّمُونَ عليها، ويتودَّدون إليها لقرابتهم بها. كما ضَمِنَت دَعمَ كبار العلماء والفقهاء لنبوغها في المجال العلميّ، إذ كانت تبعث إليهم بأسئلتها، وتَرُدُّ على أجوبتهم، وتناقشهم في عَوِيصِ القضايا ودَقيقِ المسائل. وكان بعضهم يقضي حوائِجَه الخاصَّة من خلالها، ويتوسَّط لبعض الأسَر المُعوِزَة كي تسعى في إطلاق سراح أبنائها لدى الدول الأجنبيَّة. ازداد السُلطان مولاي إسماعيل حبًا وإعجابًا بزوجته الصحراويَّة، وصارت لها مكانة مرموقة في الدولة. واستطاعت أن تصل إليها بكدِّها وكِفايتِها، وانشغالِ مُنافستها السُلطانة زيدانة عنها في التَّمكين لولدها زيدان. ولما كان مولاي إسماعيل يستشيرها في قضية الأسرى الإسبان المسجونين في مكناس وغيرها من المدن المغربيَّة، اقترحت عليه أن يطلبَ في مقابل افتكاكهم، مئةَ أسيرٍ مسلم في مقابل كلِّ واحد من هؤلاء الإسبان، ومُقايضتِهم بالخزانة الزيدانيَّة التي استولى عليها القراصنة في عهد السُلطان مولاي زيدان من دولة الأشراف السعديِّين، واحتفَظَت بها الكنيسة في دَيرِ الإسكُوريال. وافق السُلطان على مقترح لالَّة خناثة، وأرسل سفيره محمد الوزير الحَسَني يحمل رسالة في الموضوع إلى الملك كارل الثاني، لكنَّ كبار أساقفة دير الإسكوريال وقساوسته رفضوا تسليمَ الكُتُب، وطلبوا من الملك أن يتخلَّصَ من طلب السُلطان بالحيلة، وأن يخبره بأنَّ كلَّ الكتب والمخطوطات قد التهمتها نيران حريق سنة 1671 التي أتت على كلِّ ما في الدير، وحَلَّلُوهُ من هذا الكَذِبِ الصُراح. أمَّا بخصوص الأسرى المسلمين، فلم يَبقَ لدى المَلك عددٌ كافٍ لمقايضتهم بالأسرى الإسبان. ولمَا وصل خطاب كارل الثاني إلى المولى إسماعيل، أطلع عليه لالَّة خناثة، وتناقش معها، فاقترحت عليه مرَّة أخرى أن يطلب منهم الجلاء عن مدينة العرائش التي كانوا يحتلُّونها، فأبى الملك الإسباني مرَّة أخرى. وأخيرًا، تمَّ الاتفاق على تحرير مئة إسباني في مقابل ألف مسلم من أيِّ بلدٍ كان، ودفع مئة وخمسين ألف «بَسِيطَة» (العملة الإسبانيَّة)، وتم التبادل في مدينة سبتة.

كان المنافس الأبرز لابن زيدانة، الأمير مولاي محمد العالِم، ابن إحدى زوجات مولاي إسماعيل، وكانت جورجية الأصل. وكان السُلطان يحبه ويُؤثِره، فانشغلت زيدانة بالكيد له ولأمِّه الجورجيَّة، وقرَّرَت قتله معها. ومن مكائدها التي وقفت عليها لالَّة خناثة ضدَّ أمِّ محمد العالم، أنَّها لفَّقَت

إليها تهمةً خطيرة، واتُّهمتها بخيانة السُلطان، حيث دبَّرَت لها مكيدةً شاركت فيها مجموعةٌ من نساء الحريم اللَّائي كُنَّ تابعات لها، وخائفات منها، فلم يمكنهن أن يخالفنها فيما طلبت منهن من شهادة الزور على الخيانة. لقد استغلَّت غياب أم محمد العالم خارج دارها في قصر المحنشة، فأمرت أحد الحراطين بأن يدخل الدار، ولا يخرج من هناك حتَّى يأتيه أمرُها. امتثل الحرطاني كما أمرته لالَّة عيشة من دون أيّ استفسار. فلمَّا رجعت أمّ محمد العالم، واطمأنَّت لالَّة عيشة إلى وجودها داخل دارها، أرسلت إلى مولاي إسماعيل تُعلمه بأنَّ إحدى نسائه متلبِّسةٌ بالخيانة. جاء السُلطان فأخبرته لالَّة عيشة بأنَّ نساء القصر أخبرنها بأنَّ أمّ محمد العالم تخون السُلطان مع أحد الحراطين، وأنَّه معها في دارها. ذهب السُلطان مسرعًا مع عبدَين من عبيده العتاة نحو دار أمّ محمد العالم، فدهمها، وصرخ في وجهها: أين هو ذلك الحرطاني الكلب؟

لم تفهم المسكينة ما يجري، فلم تستطع جوابًا، فطلب من رجاله البحث عن العبد، فبحثوا في كلّ الأركان، حتَّى وجدوه مختبئًا ومرعوبًا ممَّا يجري. حاولَت أن تتحدَّث فلم تستطع أن تدفع هذه التُهمة المغلَّظة. أمَّا الحرطاني المسكين، فلم يدر ما حدث. طلب مولاي إسماعيل من بعض نساء الحريم أن يشهدن على ما حدث، فأقررنَ زورًا بأنَّ المرأة كانت تخونُه. أخذ العَبدانِ الحرطاني فقتلاه بعدما عذَّباه عذابًا شديدًا، أما أُمُّ محمد العالم، فقد قتلاها خنقًا. وكانت لالَّة خناثة تتألَّم لأنَّها كانت تحسُّ بأنَّ هناك ظلمًا تعرَّضَت له هذه السيِّدة، وأنَّ هناك مكيدة دُبِّرت لها، لكنَّها لم تكن تملك أدلةً على شعورها، ولا يمكنها أن تقف أمام شهادة سائر النساء، وهو أمر كان سيُعَرِّضُها لخطر كبير.

أمَّا محمد العالم، فقد أبعده والده إلى مدينة تارودانت في السوس الأقصى، حيث عيَّنه مولاي إسماعيل حاكمًا هناك ونائبًا عنه. وهكذا ضَمِنَت لالَّة عيشة أن تُبعده عن الحاضرة الإسماعيليَّة.

كان السُلطان يقوم بحركات عسكريَّة متعدِّدة لتحرير بعض الثغور من أيدي القوات الأجنبيَّة، مثل المَعمُورَة، وهي مدينة المهدية التي بناها الفاطميُّون على مَصَبّ المحيط الأطلسي، وكان البرتغاليُّون يحتلُّونها في البداية، ثمَّ حرَّرها المغاربة، وما لبثت أن سقطت مرَّة أخرى في أيدي الإسبان، فحرَّرها مولاي إسماعيل. كما كانوا يحتلُّون مدينة العرائش إلى الشمال من المعمورة (المهدية) على نهر لُوكُوس الذي يصبّ في الساحل الأطلسي. وقد كان احتلالُها في آخر عهد السَّعدِيِّين بعد ضُعفِ دولتهم، فاجعةً لأهل المغرب قاطبة. فلما جاءت دولة الأشراف العَلَوِيِّين، قرَّرَ

المولى إسماعيل استعادَتها منهم على الرّغم من تحصيناتها الهائلة، ومَدافعها العظيمة التي جلبها الإسبان إليها، كمِدفعها المسمَّى «الغَضَّاب»، وطوله خمس وثلاثون قَدَمًا، ووزن كُرَتِه خمسة وثلاثون رطلًا. فتمَّ له ذلك النصر العظيم، وغَنِمَ ما لا يُحصَى من العُدَّة والبارُود، والمَدافع النُّحاسيَّة العظيمة، ومِدفَعَ الغَضَّاب الحديديّ. وقد انتعل المغاربة من فرط سعادتهم، نعالًا صُفرًا لتخليد هذا الانتصار العظيم، بعد ما كانوا ينتعلون النعال السُّود، من فرط الأسى والحزن، منذ سقوط تلك المدينة. وأصبح هذا النعل الأصفر، المسمَّى «البَلغَة الزّوانِيَّة»، عنوانًا للمدنِيَّة منذ هذا الحين. ثمَّ حرَّر المولى إسماعيل مدينة طنجة من أيدي الإنكليز، وحرَّر مدينة أصيلة، وحاصرَ سبتة وكاد يَستَرِدُّها، لكنَّه صُرِفَ عنها لقمع بعض حركات التَّمرُّد، فاستغلَّت السُّلطانة زيدانة غيابه، وأرسلت إلى ابن غريمتها رسالةً مختومة بالعَلامة السُّلطانيَّة تأمره، على لسان السُّلطان، بقتل أحد كبار العلماء في تارودانت. لم يفطن الأمير الشاب إلى المؤامرة، وحَسِبَ أنَّ الأمر جاءه من والده السُّلطان، فقام بقتل ذلك العالم، فثارت ثائرة الناس عليه في تلك المنطقة، وقصد أبناءُ العالم المذكور مكناسةَ الزيتون، حيث كان السُّلطان قد عاد مِن حَرَكَتِهِ العسكريَّة، فاشتَكَوا إليه من معزَّةِ ابنِه مع والدِهم. استشاط السُّلطانُ غيظًا، وأمر ابنَه بالمثول حالًا بين يديه، وأغلظَ له القول، لكنَّ الولدَ أطلعَ والده على حقيقة ما جرى، وأخرجَ له رسالة براءَتِهِ المختومة بخاتم السُّلطان، فغضب مولاي إسماعيل من زيدانة، وأنكرت قيامها بما نُسب إليها، وادَّعت أنَّ معلومات عن دعوة هذا العالم إلى التمرُّد والخروج على السُّلطان قد وصلتها من قوّاد الجيش. لم يعاقب السُّلطان لالة عيشة على فعلتها المنكرة، لكنَّه قتلَ القائد الذي ساعدها في هذه المؤامرة.

***

كانت خناثةُ تواصِلُ انشغالها بالعلم، ورَبطِ الصِّلات بالعلماء، وقادَةِ المغافرة في جيش الوداية من البِيض، الذي يُشَكِّلُ الجناحَ الثاني من أجنحة جيش المولى إسماعيل مع الجناح الآخر لعَبِيد البخاري السُّود. وكلاهما كان من عُمقِ المغرب الصَّحراوي. أمَّا سائر نِسوة المولى إسماعيل، فكنَّ في تنافُسٍ لتمكين أبنائهنَّ من الوصول إلى حكمِ البلاد. وكانت تنافس لالَّة عِيشَة، الملقَّبَةَ بالسُّلطانة زيدانة، السَّيِّدةُ مَعزوزة مالكية، والسَّيِّدةُ عُودَة الدكالية، وهي تصغير لمسعودة.

كانت لالَّة عيشة هي التي ترتَّبَ دخول السُّلطان على نسائه، فكانت تُؤَخِّرُ مَن كانت تراها منافسةً لها، أو تتناساها بالمرَّة. وقد استَشعرت

طموحَ لالّة خناثة، الزَّوجَة الصَّحراويَّة لمولاي إسماعيل، فَعَمِلَت على إبعادها عن السُلطان. وبقيَت خناثةُ تنتظر زيارة مولاي إسماعيل، لكنَّه لم يأتِ إلى دارها. حاولت عدَّة مرَّات أن تَخطُرَ في مماشي القصر حتَّى يلاحظها، لكنَّه كان مشغولًا بتثبيت شؤون الدولة، وتَركَ تنظيم الدخول على نسائه لزوجتة لالّة عيشة. كان هدف خناثة يبتعد شيئًا فشيئًا، بل لربَّما كاد يموتَ ويندثر. وكان تحقيقُه مَنوطًا بإنجابها، لكنَّ الوصولَ إلى هذا الهدف كان مرتبطًا باستدراج مولاي إسماعيل إلى فراشها، وهذا لم يكن أمرًا سهلًا، لأنَّ لالّة عيشة كانت تعاكس رغبتها، ولأنَّ العدد الكبير من النساء كان يجعل الزَّورَة الشَّرعيَّة لا تحدث إلَّا في فترات متباعدة. هكذا كانت حظوظُ إنجاب خناثة تبتعد نهائيًا، ومعها هدفها. كانت تُساوِرُها الشُكوك والوَساوس حتَّى أصابها الأرق، إذ كانت مُتخوِّفة من ألّا تُنجِبَ مطلقًا، فَتَهرَمَ ويُرسِلَها السُلطان لتمضي بقية حياتها في إحدى الدُورِ في سلجماسة. رفضت هذه النهاية المفجعة لسيدةٍ مثلها، إذ كان طموحُها يتجدَّد دومًا بأن تصبح سلطانة في يوم من الأيَّام. كان أقربُ طريق إلى بلوغ هدفها هو أن تنجبَ ولدًا ذَكَرًا، ثمَّ تسعى بعد ذلك بكلّ ما أوتِيَت كي ينالَ ابنُها حظَّهُ أمام سائر المنافسين من أولاد السُلطان. كان الأمر مستحيلًا، لكن خناثة لم تكن لتقبلَ بهذه النتيجة، فقد سبق لها أن خاطرت بحياتها حين كانت في قبيلتها لمَا ثارت على عادات قومها، فخرجت تعدو على فرسها الأزهر في الصَّحراء إلى أن صار ما صار. ثمَّ رفضت مرَّة ثانية كلَّ الخُطَّاب من قبيلتها ومن سائر القبائل، ولم تكن تتوقَّعُ أبدًا أن يَطلُبها السُلطان الأعظم، مولاي إسماعيل. وها هي اليوم قد أصبحت إحدى زوجاته الأربع، وليست جاريةً كسائر الجواري في قصره. مرَّت كلُّ هذه الخواطر والذكريات في ذهنِها، وقَلَّبتها على كُلِّ الأوجُه، ففكَّرت وقَدَّرَت، ثمَّ عزمَت على أن تجدَ طريقًا إلى مولاي إسماعيل على الرَغم من مُعاكسة السُلطانة زيدانة لطموحاتها، ومَنعِها من التَّشوُّف إلى الإنجاب، فكيف بالأحرى أن تحلُمَ بولد يصبح سلطانًا على الإيالة الشريفة كلِّها. كانت ترفُض، بكلّ ذاتها وإدراكاتها، أن يكون مستقبلُها، وتحقيقُ أهدافِها، منوطين بإرادة غيرها، ومُعَلَّقين على تَدبِير سِواها. أليسَت لها إرادةٌ تختار، وقدرةٌ تُخصِّصُ ذلك الاختيار؟

وهكذا، بدأت تُطلِقُ عيونَها، وتستخبِرُ عن أسرار غَريمتِها، فكان خاصَّةُ خدمِها من أهل الثِّقَة، يأتون إليها بكلّ تحرُّكاتِ مُنافِستِها، وُمناوراتِها المختلفة، وأخبارِها السرِّيَّة. كان عليها أن تعلمَ بمكامِنِ الضُّعفِ عندها حتَّى تستطيعَ أن تتصرَّف على الوجه الصَحيح.

ومما بلغها عن لالّة عيشة زيارةُ بعضِ النساء مِمّن كُنّ من مُريدات الشّيخ سيدي علي بن حمدوش، فكانت لالّة عيشة تعتني بهنّ وتُغدِق عليهن، وتُرسِل معهُن الهدايا إلى الشّيخ وزاويته، وكنّ يُخبِرنَها عن خوارِق الشّيخ وكَراماته، ومن ذلك أنّهنّ كُنّ عازِبات، فلما زُرنَهُ وتبرّكنَ به كتب اللّه لكلٍّ منهنّ الحصولَ على الزّوج المرجُوّ. استرعى هذا الأمرُ لالّة خناثة، لكنّها لم تكن تُريدُ أن تسلُك سلوك هؤلاء النسوة في الاستعانة بكرامات الشّيخ وبركاته. لقد طار صِيتُ الشّيخ في الآفاق، وقصدَهُ الزُّوّار، وبلغ إلى علم السّلطان مكانته وزهادتُه.

عقدت لالّة عيشة العزم على أن تذهب لزيارة الشّيخ حتّى تُمكّنَ لولدها زيدان ليصبح سلطانًا على الأنام. لكن مولاي إسماعيل لم يكن يسمح لنسائه بالخروج من القصر، فكيف، بالأحرى، خروجهنّ من مدينة مكناسة. احتالت لالّة عيشة في أمرها، واستغلّت مناسبة المولد النبويّ الشريف، بحيث كان للسّلطان عنايةٌ عظيمةٌ به، فَيُكثِرُ من الصّدَقات، ويجُودُ بالمكرُمات، ويَهَبُ الهِبات، فطلبت منه أن يسمحَ لها بزيارة سيدي علي بن حمدوش، السّاكنِ في قرية بني راشد، قرب مدينة مولاي إدريس زَرهون، على بعد نحو مرحلة شماليّ مكناسة. أصبحت القرية محجًّا لكلّ طالب حاجة، ولاسيّما النساء العازبات. رفض السّلطان الاستجابة لزوجته لالّة عيشة، فاستعطفته واستشفعت عنده برسول اللّه ﷺ، فلم يستطع ردّ طلبها لاستشفاعها بجدّه ﷺ، ولانَ لها وقَبِلَ مُلتمَسَها، لكنّه اشترط عليها أن تعود قبلَ غُروبِ الشمس إلى مكناسة. وافقت على هذا الشرط على الرّغم من أنّه كان من الصعب عليها الالتزام به. لم تكن لالّة عيشة فارسةً، كما هو شأن لالّة خناثة، لكنّها قَبِلَتِ الأمر على الرّغم من بُعدِ المسافة، وصعوبةِ المَركب، إذ عادة ما كانت نساء السّلطان يسافرن في الهوادج مُرفّهاتٍ على مَطارِح وثيرة، وعليها الآن أن تصبر على اهتزاز الحصان في أثناء غدوه.

أمّا خناثة، فقد أعدّت العُدّة كي يزورها السّلطان خلال غياب لالّة عيشة. كانت تسكن في «عَرصَة لالّة» ضمن قصر «المحنّشة»، وهو أحد أفراد قصور المولى إسماعيل في مدينة مكناسة، وكان السّلطان يخرج للصلاة في مسجد القصر المسمّى «جامع المحنشة»، الذي كان يوجد في جهة الجنوب. وتوجد إلى الشرق منه «دُويرَة السّبع» أو الأسد. وإلى الشمال من المسجد بيت المال، وإلى جانبه «دويرةُ النّسر»، ثمّ إلى الشمال «رياضُ

المحنشة»، وإلى الشرق من هذه الرياض «قُبّةُ سيدي البخاري»، حيث كانت تُحفَظُ نسخةُ صحيح البخاري التي أخذ العهدَ عليها أفرادُ جيش عبيد البخاري، ويحملونها معهم في كلّ حركاتهم وغزواتهم. وإلى الشرق من هذه القُبّة «المِشوَر»، وهي ساحة شرفية عند مدخل القصر. وضمن هذا القصر مجموعة كبيرة من الجِنان والحدائق والمنازِه والقِباب، مثل «قُبّة النبيتة» و«قبة گناوَة»[10]. ثمّ هناك «قبةُ مولاي إسماعيل»، و«قبةُ السويرة»، «وقبةُ السَّقّايَة»، و«العَرصَةُ القديمة»، و«عَرصَة النخلة»، و«عرصةُ الزَّحّافَة»، أي المُقعَدَة، و«عرصةُ البلينزَة»، أي شجر السَّرو، و«عرصةُ الرُّمّان»، و«عرصة الرخام»، وفيها ساحة لها أقواسٌ مغطّاة تحُدُّها من جهاتها المختلفة، وفيها يحتمي الفرسان بخيولهم. ثمّ هناك «عَرصَة لالّة»، أيْ حديقة السيّدة، وهي خاصّة بنساء السُلطان. وفيها دُور مُرَفّهَةٌ، وفيها أثاث رفيع، وسكنى «لالّة خناثة». كان السُور الذي من جهة قصر الحريم، أعلى من سائر الأسوار، وفيه كُوّاتٌ وفُرَجٌ، ولا ينقطع عنه طوافُ عبيد الدار المخصيّين. وإلى جانب هذه العرصات، غرفٌ لسكنى الخادمات، وفي أقصى العرصة غرفٌ لسكنى «عَبِيد الدّار». وفي أقصى الشمال الشرقيّ من هذا المجموع المعماريّ، «قصرُ الشمس». وقد سماه السُلطان باسم أحَبّ مُهورِه العربيّة الأصيلة إليه، «شمس الدين».

كان مُلحَقًا بالمحنشة من جهة ساحة المِشوَر الشرفيّة، إضافةً إلى كلّ هذه المكوّنات العمرانيّة، «دارُ الماء»، وهي مجموعة من الأبنية، فيها عَشرُ ناعورات تحمل الماء، وتَصبُّه في «صهريج السّواني» لسقي الجِنان والحدائق والعرصات والبساتين، تُجلَبُ مياهُه من خارج مكناس عبر قناة تدعى «أسرّاگ»، محمولة على سور، تتخلّلُه عِدّةُ أبراج على طول المسافة. وكانت هذه المياه تُحمَلُ من وادي «بُوفَكران» على قناة تدعى «السّلُوقِيّة المائية الكبرى» حتّى تُزوّدَ المدينة السُلطانيّة بكاملها.

كان هذا المجموع العمرانيّ المسمّى «قصر المحنشة» على شكل مستطيل. وسُمّي المجموع بكامله باسم النافورة المائيّة التي تبتدئ على شكل مثمّن، ثمّ ينساب الماء منها على أرضية رخاميّة بيضاء حتّى يَصُبّ في ساقية ملتوية كالحَنَش تمتَدُّ إلى الخارج، ثمّ تتفرّع في شكل مَتاهة مربعة يدور الماء بين أقسامها الهندسيّة، لتنتهي بعد ذلك عند صهريج ماء.

ما أشبه المتاهات بالأفكار الملتوية التي تسكن الإنسان، فتبدأ نَقرَةَ خاطرٍ مثل قطرَةِ ماءٍ، ثمّ تَكبرُ حين تتجمّع مع غيرها، إلى أن تصيرَ جدولًا ينسابُ في ساقيةٍ، يَتلوّى ذاتَ اليمين وذاتَ اليسار، ثمّ يكُرُّ راجعًا، فتَحسِبُه سَيَنخَنِقُ في انعِطافاتِه الداخليّة، وفجأةً ينفَتِحُ أمامَه سَبِيلٌ يخرجُ به إلى

فُسحَةٍ تُخَلِّصهُ من سِجنِه الدَّاخليِ. كذلك الأفكار، تبدأ نَقرَ خاطرٍ، أو هاجِسًا يتردَّدُ ثمَّ يَغيب، فإن تقَوَّى النَّقرُ سُمِّيَ حديثَ نَفسٍ، إلى أن يُصبحَ هَمًّا لما يترجَّحُ الفعلُ على التَّرك. ويزيدُ قوَّةً ورجحانًا حين يقصدُ إلى الفعل فَيُسَمَّى قَصدًا، فإذا عزم الأمرَ سُمِّيَ عَزمًا. إنَّ نشوءَ الأفكار وتأرجُحَها بين الفعل والتَّرك، يشبهان، إلى حَدٍّ كبير، حالَ المتاهة التي ينسابُ فيها الماء مُسرعًا تارة، وبَطِيئًا تارة أخرى. إن حَنَشَ الأفكار مياهٌ تجري ثمَّ تَتَباطَأ، حتَّى تكادُ تتوقَّف إلى أن تنفرجَ أمامها الفُسَحُ التي تجري بها إلى أفضِيَةٍ أخرى. ليس غريبًا أن يُبدِعَ الإنسانُ في مَعمُولاتِه شَكلَ المتاهة لِيُصوِّرَ مسارَ الأفكار التي تسكنُه. أمَّا أحوالُ الرُّوح، فإنَّها هي الماءُ ذاته الذي يجري في المتاهة المُحنَّشة.

***

لمَّا كان اليوم الموعود الذي قرَّرت أن تخرجَ فيه لالَّة عيشة لزيارة الشَّيخ علي بن حمدوش، باتت خناثة تتأهَّبُ للقاء السُّلطان. اهتمَّت الخادمات بتحضير الغاسول، وهو خليط من طِينٍ لَزِجٍ يُجلَبُ من جبال الأطلس نواحي مدينة فاس، لتدليك الجسم بكامله، وأيضًا للعناية بشعر الرأس. كان الخليط يحتوي على هذا الطين ممزوجًا بالخُزامَى والرَّيحان والورد والقَرنفُل والسُّنبُل. دخلت خناثةُ الحمَّامَ في القصر فاستحمَّت وتطيَّبت، واعتنت وصيفتُها «مِسكُ الجُيوب» ببشرتها أيَّما عناية، ووضعت لها قِناعًا من الغاسول المسقيِ بالأعشاب على وجهها، تركته مدَّةً ثمَّ صَبَّت «مِسكُ الجيوب» عليها ماءً فاترًا. كان حمَّامًا منعشًا. تناولت مشروبًا ساخنًا مُحلًى بمُرَبَّى، بعد أن خرجت، وجلست تستريح، ثمَّ اعتنت «مسك الجيوب» بتزييِنها، ودَلكِ بشرتها بمرطَبات. أقبل اللَّيل، وقد كانت خناثة جاهزة للقاء مولاي إسماعيل. تذكَّرت أيَّام زَفَّتِها للسُّلطان في مضارب قبيلتها، واشتاقت إلى بساطة تلك الأيَّام. بقيَت تحبِكُ خيوط التَّدبير حتَّى تصل إلى مبتغاها. كانت متوتِّرة بعض الشيء، وهجرها المنام، فبقيت مُسَهَّدَةً في فراشها الوثير. بدأ المُؤنِسُ ينشد بصوته الجميل من أعلى المئذنة، ويردِّد عِظاتٍ وأشعارًا جميلةً يأنَسُ بها المريض والغريب والمسافر والمكروب، وكلُّ ذِي حاجة. كانت تستمتع بتلك المناجاة اللَّيليَّة. قامت فَصلَّت عِدَّة ركعات، ثمَّ قرأت جزءًا من سُورة الحِجر. كانت تُواظِبُ يوميًّا على حِزبها الرَّاتب، بحيث كانت تَختِمُ المصحفَ كلَّ شهر. واستغرقت خلال هذه الأيَّام في تدبُّر سُوَرِ يونس وهُود ويوسف وإبراهيم، وأخيرًا سُورة الحِجر. كانت هذه

السُوَر تبتدئ كلّها بالفاتحة النورانيّة « الٓر»، فتدعو وتبتهل طوال هذه الأحزاب السّبعة في هذه السور «الألف ـ لام ـ رائية»، أن يبارك اللّه الرؤوف في رَحِمِها، وأن يرحمها برحمته حتّى تُنجِب ابنًا للسُلطان، ويَحبُلَ هذا الرَّحِم بالخُلاصة السُلطانيّة، والمُجاجة اللُجَينيّة الشريفة.

جاءت وصيفتُها «مسك الجيوب» تُخبِرُها بأنَّ لالّة عيشة تأهَّبت للخروج، بعدما أخبرها بذلك أحدُ عَبيدِ الدّار الذي كلّفته الوصيفة ليكون عينًا يتتبَّعُ حركات لالّة عيشة. أسرعت خناثة لتراقِبَ غريمتها من خلف مشربيّة تُشرِفُ منها على ممرٍّ أمام دُورِ الحريم، يؤدّي إلى الحديقة المخصّصة لهنّ. وفي نهايته، من جهة الشمال الشرقيّ، بابُ «عَبِيدِ الدّار». كانت لالّة عيشة تمشي، وخلفها وصيفتُها تمتَشِقُ سيفًا لا يغادرها. كانت هذه الوصيفة فارسةً مِغوارَةً، تُعدِلُ في شراستِها أشجعَ الرجال، وتُرهِبُ من يقترِبُ منها. مَشتا على طول الممشَى الذي تَحُفُّ به العَرصاتُ المختلفة. عن اليمين العَرصَةُ القديمة، وتقابلها في جهة اليسار عَرصةُ الرمّان، ثمَّ بعد ذلك عَرصة الزُحّافَة، وتقابلها عَرصة البِلِينزَة، حتّى وصلتا إلى عرصة النَّخلة الملاصقة لباب الرُخام، والذي يؤدّي إلى قصر آخر هو قصر المدرسة.

كان إلى الجنوب من قصر المحنشة، عدّةُ وحدات عمرانيّة ملحَقة بالقصر، مثل «قصبة المراح»، و«دار البَقَر»، التي كانت تُزوِّدُ سكان القصر بما يحتاجون إليه من ألبان وأجبان وزبدة ولحوم. ثمَّ إلى الجنوب «جنانُ بن حليمة»، و«جنانُ السّواني»، ثمَّ «صِهريجُ السّواني»، والمخازنُ العظيمة، المسمّاةُ «الهرِي»، والتي كان يخزِّن فيها مولاي إسماعيل الحبوبَ التي يمكن أن يُطعِمَ بها سكانَ إيالَتِه الشريفة في أوقات القَحطِ، لمدّة عشرين سنة.

وجدتا أربعة عبيد بخيولهم ينتظرونهما عند باب قصر المحنشة، ساعدت الوصيفة المسمّاة «شَطّابَة الرّحابي» سيدَتها على ركوب فرسها، ثمَّ ناولت أحد العبيد صندوقًا صغيرًا محكَمَ الإقفال، وضعَت فيه لالّة عيشة مثاقيل ذهبيّة، وأواقيَ ومَوزُونات، وهي وحدات التعامل النقديّ في هذا العهد، والتي كانت تنوي إهداءها إلى سيدي علي بن حمدوش. قفزت الوصيفة على فرسها. كان اثنان من العبيد يتقدّمان الركب، واثنان يحرسانه من الخلف. كانوا من أشدّاء عبيد البخاري. وانطلقوا في تلك الممرّات قرب «الدار الكبيرة» التي كانت قصرًا يسكن فيه السُلطان مولاي إسماعيل أوّلَ أمره قبل أن يبني قصر المحنشة. واجتازوا الممرّ المحاذي للدار الكبيرة

حتّى وصلوا إلى ساحة «لالة عُودَة»، اختصارًا لاسم «لالّة مسعودة»، أُمّ السُلطان يعقوب المنصور الذهبيّ من دولة الأشراف السّعديّين الذين كانوا يحكمون المغرب قبل وصول دولة الأشراف العلويّين. هذه السّيّدة التي تغنّت بها الأهازيج الشعبيّة:

«عُودَه كلات رَمضان بالخُوخ والرُمّان

تَغفر لِيها يا رَحمان».

ويحكى أنّها كانت حاملًا بولدها السُلطان أحمد المنصور الذهبي في رمضان، وكانت تتنزّه في بستان فيه خوخٌ ورمّان، فأكلت سهوًا من تلك الأشجار المثمرة، فأرادت التكفير عن فطرها بأعمال الخير، فبنت المساجد والمدارس والمآوي والقناطر ودُور الحراسة اللّيليّة التي كانت تسمّى «دارَ أمّ السلطان». وأجرَت الأوقاف على السقايات، وحَفَرَتِ الآبارَ والعيون.

ومن هذه السّاحة التي فيها مسجد مَرِيني يحمل اسم لالّة عُودَة، كان بعضُ أهلِ المدينة السُلطانيّة يتوجّهون إلى الصّلاة. وصلوا إلى قرب الباب الذي يؤدّي إلى خارج السور، والذي سَيَبنِيه بعدَ هذا التاريخ مولاي إسماعيل، بناءً فخيمًا، وسيُسمّيه «باب المنصور العلج». وإلى يساره «قبّة الخياطين» أو قبّةُ السُفراء، التي كان يُستقبَلُ فيها سفراءُ الدول الأجنبيّة من أجل المفاوضات بشأن الأسرى أو غير ذلك من الشؤون. نظرت لالّة عيشة إلى باب قبّة السفراء الذي تعلوه ناعورةٌ عظيمة منقوشة على الباب ومزيّنةٌ بألوان ذهبيّة بهيّة، كأنّها كوكب الشمس، وتذكّرت لحظتها شَرطَ زوجِها لها بالعودة قبل غروب الشمس. خرج الركب من الباب المذكور، وأخذوا يعدون بخيولهم قبل أن يستيقظ أهل المدينة، وتكثرَ حركةُ الناس والدوابّ. كانت لالّة عيشة تتنكّرُ في لباس فارس. جاء أحد عبيد الدار بالأخبار إلى لالّة خناثة يُخبرها بأنّ الركبَ غادر المدينة. كان المؤنِسُ يُوقّعُ بترانيمه فُسحَةَ الثُلثِ الأخير من اللّيل، حتّى إذا طلعَت نجمةُ الغَرّار في السّماء، أذّنَ المؤذن لصلاة الفجر.

خرجت لالّة خناثة مع وصيفتها «مسك الجيوب»، مُتلَفّعَةً في رِداءٍ أبيض اللّون، إلى مسجدِ القصر، «جامع المحنشة». كانت تعلم وقت خروج السُلطان، وبينما كانت تتأهّب لدخول المسجد، وقف السُلطان خلفها فانتهى إليه طيبُها، وراقه قَدُّها وقَوامُها، فسلّم عليها. استدارت نحوه وسلّمت عليه. سأل عنها وعن أحوالها، وأخبرها بأنّه استوحشَها واستبطأ لقاءَها، فأخبرته بأنّها في شوق عظيم إليه، وسعيدة بأن يُشَرّفَها زوجُها السُلطان في دارها. فوعدَها بأن تستَعِدّ لزيارته بعد الصلاة.

دخلت خناثة المسجد، وصلّى الإمام بالسُلطان، وجُملةٍ قليلة من رجاله.

ثمَّ استفتح مولاي إسماعيل معهم الحزب الراتب. كان من المعتاد ألّا يُكمِلَ القراءةَ حتَّى نهاية الحزب، بل يقرأ ثُمُنًا ثمَّ يقوم، نظرًا إلى انشغالاته في تسيير شؤون الدولة. فلمَّا وصلوا بالقراءة إلى قوله تعالى من سورة «

الحِجر»: }وَنَبِّئهُم عَن ضَيفِ إبراهِيمَ إذ دَخلُوا عَلَيهِ فَقالُوا سَلامًا، قالَ إنَّا مِنكُم وَجِلُونَ، قالُوا لا تَوجَلِ إنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ، قالَ أبَشَّرتُمُونِي عَلَى أن مَسَّنِيَ الكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ، قالُوا بَشَّرناكَ بِالحَقِّ فَلاَ تَكُن مِنَ القانِطِينَ{، أصابته خشية إيمانيّة، واستبشر بهذه المبشّرة، وقام للتَّوِّ من مقامه، وقصد دار لالَّة خناثة، وطلب من الحاجب ألّا يُزعجه أحد.

كانت خناثة قد خرجت مباشرة بعد الصلاة، وأمرَت وصيفتَها «مسك الجيوب» بإعداد ما يلزم لاستقبال مولاي إسماعيل.

جاء السُّلطان فوجد خناثةَ آمِنَةً في سِربِها، قد لَبِسَت غُلالةً شَفِيفَةً تُظهِرُ مفاتنَها، وتَضوعُ منها روائحُ زكيّة لا يُقاومها زاهِدٌ ولا حَصُور، فكيف بِفَحلٍ جَسُور؟ كان السُّلطان فحلًا لا يُشَقُّ له غُبار، وقد يأتي عليه يوم فيطوف على عدّة من نسائه من دون ملل ولا كلَل، بل لعلّه كلَّما قَطَفَ الغَرسَ من واحدة، نَبَتَ له بُرعمٌ يتوقُ إلى الالتواء بأغصان السّيقانِ اللَّدنَة، والأفخاذِ الخَذلَة. كانت خناثة تعلم من زوجها فُحولَتَه، فاستطالت عليه حتَّى تُديمَ القَطف. أخبرها ببشارة الحزب الرَّاتب لهذا الصباح، فأخبرته ببشارة فواتح

الرَّحِمِ والرَّحمة النورانيّة «». أعجبَ السُّلطان بفهمها كيف أنَّ بِشارةَ الغلام جاءت مرتبطةً بفاتحة الرَّحمة والرَّحِم. ذاق عُسَيلَتَها وذاقت عُسَيلَتَه، وكان ما كان ممَّا يكون بين الأزواج من بِعالٍ واستِحكام، ثمَّ ارتِفاق واستِخداد. وصل إلى **حجرها**، وتلا فاتحةَ سورةِ **حجرها**، وأودع من صُلبِه سُلافةً في رَحِمِ رحمتها، فتقاذفَت في طَلعِها أفراسُ الأشراف تعدو في مضمارها حتَّى حلَّ في مُستَقَرِّها نبيلٌ كريم، فاق أترابَه في مِشراعِ السّباحة القويم. تنهَّدَت خناثة، وحُقَّ لها أن تتنَهَّد، فها قد سَفَّتِ العِلقَ النَّفيس، ومَصَّتِ المُجاجَةَ الشَّريفة، وأودعَتها في حُقٍّ مَكين، واستَلقَحَتها بِخَندَرِيسٍ وخمر قديم. قرأتِ الفاتحة، وجاءها النَّوالُ السُّلطاني. ارتعشَت بكلّ ذَرّاتها تسبيحًا، وانبجَسَ العِطرُ شَمُولًا مُسكِرًا وتَرويحًا. كانت عيونُ السُّلطان تبرقُ بنظرة لها مَدى القُرون. لا شكَّ في أنَّ طلبَ الولَدِ للسَّلاطين العظام لَمِمًّا يستوجبُ التَّوقُّفَ والبَيان. لم يكن طلبُ الولَد شَهوةً عابرة، بل هو لذّةٌ تُطاوِل القرون، إذ بها يكون استمرار الدُّول.

فتخيَّل أنَّك تَحمِلُ في قَذفِك مستقبلَ دولة، ومصيرَ أُمَّة، وحِفلَ حَضارة، كيف يمكن أن يكونَ إفراغُ تلك النطفة وآهاتُها؟ وما هي التَّنهيدة التي رافقتها، والتَّكبيرةُ التي مهَّدَت لها، والتَّسبيحةُ التي أفرغَتها عندها؟ ولك أن تتخيَّلَ في المقابل، في جهة المرأة، كيف أنَّها تتشَرَّبُ ذلك القَذف؟ وكيف تستلقِحُه في الرَّحِم؟ وكيف تُربِّي ذلك اللِّقاح وتُخصبُه وتُنمِّيه حتَّى يَستجِنَّ في بطنها تسعةَ أشهر ثمَّ يخرج مولودًا، يجعلُ الدولة مَشروعًا مستمرًّا، ويحقِّقُ آمالَ الأُمَّةِ ويتقلَّد الحَمالَةَ الكبرى للحضارة؟ لا شكَّ في أنَّ في الأمر ذوقًا متعاليًا، لا يعرفُه إلَّا مَن كان على هذه الصِّفة الملوكيَّة، بحيث يستودِعُ في نُطفَةِ قَذفِهِ كلَّ هذه الأمور العظام، وكذلك الشأنُ في الأُمِّ الحامل التي هي الوِطاءُ والغِطاء. لقد فَطِنَتِ الأمم والشعوب إلى هذا الأمر، فكان الاحتفال بالمولودِ الأميرِ مَقرونًا دومًا باحتفالات عامَّة. ولقائلٍ أن يقولَ كيف يُقرَنُ بين الإفراغ والتَّسبِيح؟ فلعلَّ السائلَ قد غاب عنه أنَّ في ذِروةِ النكاح تَلبُسًا بصفة الخَلقِ، وقد يأتي المرءَ في ذلك تلبيسٌ وَوسوَسةٌ، فأسلَمُ له أن يؤُوبَ إلى مُعتَصمِ التَّنزيهِ بقوله «سبحان اللَّـه» حتَّى يبرأ من اعتقادِ المشاركة في الخَلق لأنَّه أولَدَ الوَلَد، ولعله إن تلا قولَه }تَبارك اللَّـهُ أحسَنُ الخالِقِينَ{ يكونُ قد سَلِمَ من تلك الخواطِر الملتبِسَة في ذِروَةِ إسقاطِ النُّطفَةِ في الرَّحِم.

احتفى مولاي إسماعيل بتلك السَّهدة الصباحيَّة في خِدرِ خُناثة العَنبَريَّة، فتشامَما... وتَلاَثَما... وتَرافَقا... ثمَّ تَعاطَفا حين تَلاطَفا. كان الوصلُ حبلًا رقيقًا، وحديثًا مُتَسارِرًا عميقًا. لم يقترب من تلك الأحياز أحدٌ، وكأنَّهم نَجَمُوا من أرضِ السَّاهِرَة في موقف الحشر من مواقِفِ الآخِرَة. إذا هَزَعَ الأسَدُ في عَرِينِهِ، لم تُلفِ لِعصافيرِ الطَّريقِ زقزقةً ولا صفيرًا. وإذا حلَّقَ البازي وَصرصَر، فلا ديكَ يصيحُ أو يَعبُر. أمضى مولاي إسماعيل الصباح كلَّه مع خناثة، وأحسَّ بِرقَّةٍ معها لم يعهدها مع غيرها من نسائه. كانت امرأةً من طرازٍ فريد، تُنسِيك بعضُك إن لم تَمحُ عنك كُلَّك، فلا تطلُبْ سوى أن تتوحَّد معها في هجعةٍ أبديَّة. قام العشيقان، وانتضَى مولاي إسماعيلُ زِيَّ السُّلطان من جديد بعدما ذاق أسرار العشق بِهُيامٍ سَدِيد، وقلبٍ مُؤَيَّدٍ عَتِيد. كان نَهِمًا للطعام فأكل ممَّا أعدَّتهُ خناثةُ له من حساءٍ وفواكه وشراب. كانت تُطعمه بأصابعها، وتسقيه بيدها، وتُقَبِّلُه فيقَبِّلُها على ثغرها، ويرشُف ماءها، ويستجوِدُ رحيقَها. كان رقيقًا معها، لطيفًا في جانبها. أين الأسد الهَصُور؟ أين أبو النَّصرِ الجَسور؟ كان في نظراته رقَّةٌ وحلاوة، وزاده بياضُ الثياب على سُمرَةِ بَدنِهِ، هَيبةٌ ووقارًا وطَلاوة.

بعد أن ارتوى الحِبَّان كالنِّياقِ العِطاشِ من سبيل ماءِ العشق، قام مولاي

إسماعيل من خِدرِ خناثة، ونصحها بأن «تَزُدَّ بالَها» من نفسها، وتَحذرَ ألَّا تُنهِك جسمها حتَّى تَعلقَ النُّطفةُ **حجرَ** رَحِمِها. أجابته خناثة بابتسامة لطيفة، وكانت أحرصَ منه على الولد، ثمَّ قالت: **حجري** ورَحِمِي محكوم عليه **بالحَجر** يا مولاي، فَواصِلْ وِصالِي **ثلاثةَ وعشرين**[11] **وَصلًا، وثَنَّها** ليرى **الناسُ** ليلَ وِصالِنا منشورًا **عن رُؤيا** حُبِّنا وعشقنا. نظر إليها السُّلطان مُستَفهِمًا كأنَّه كان لا يرى حُكمَ **التَحجير** على ذَكَرٍ **حجره**، لأنَّه كان يريد أن يُؤَثِّلَ ذِكرَهُ بين الأنام فَأولَدَ المئات من الذُّكران والإناث بما لم يستطِعهُ أحدٌ قبلَه ولا بعدَه. كان يريدُ أن يفاخرَ بذريَّته كما فاخر النَّبِيُّ بأُمَّتِه على باقي الأمم، وكاثَرَ بها على بقيَّةِ الأنبياء والرُّسل. خرج السُّلطانُ للحَمَّام بعد قضاء وَطَرِه، فاغتسل، ثمَّ صلَّى ركعتَيِ الضُّحى، وحَمِدَ اللَّه وأثنى عليه، وقرأ بِضعَ آيات من سُورة إبراهيم.

***

بعد أن خرجت لالَّة عيشة مع وصيفتها «شَطَّابَة الرَحابِي»، ويَمَّمت رجال عبيد البخاري المكلَّفين بمرافقتها، شمالًا صوب مدينة مولاي إدريس زَرهُون، حيث يوجد قَبرُ ماهِدِ الدولة الإدريسيَّة، مولاي إدريس الأكبر بنِ عبدِ اللَّه الكامل، بنِ الحسن المثنى، بنِ الحسَن السِّبط، بنِ عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين، ومولاتِنا فاطمة الزهراء، رضي اللَّه عنهم.

وصل الرَّكبُ إلى مشارِفِ قَريَةِ بني راشد مع الزَّوال. كان المكان يَعُجُّ بالمريدين الذين كانوا يأتون من كلّ الجهات لزيارة الشَّيخ الحمدوشي، الذي كان رجلًا سُنِّيًا زاهِدًا، يُعَلِّمُ أتباعَه ويُرَبِّيهم على النَّهج السُّنِّي الذي سارَت عليه الزاوية الشرقاويَّة الشاذليَّة التي تخرَّجَ منها، ويدعوهم إلى الابتعاد عن التَّكلُّف في القول والفعل حتَّى تكون محبَّتُهم صادقة.

ترجَّلت لالَّة عيشة عن فرسها لتستريحَ قليلًا من طولِ تَعَبِ الرُّكوب، قبلَ وصولها إلى زاوية الشيخ. وبينما هي كذلك، إذ قَدِمَ نحوها شخصٌ غريب، يَلبسُ خِرقَةً صوفيَّة باليةً مثل المجاذيب، ويَحمِلُ عُكَّازًا يَتَّكِئُ عليه، وركوَةً يتأبَّطُها على كتفه. كان معه أتباعٌ لهم سَحناتٌ مخيفة مُنَفِّرَة، يجلسون على حَصِيرٍ مُهتَرِئٍ الحواشي قد حَوَّلَت لَونَهُ الأصليَ الأوساخُ. كانوا يتناهَشُون بعض الطعام كقطيع من الذئاب الجائعة، ويحملون بعض الأدوات الحديديَّة، ويعَلِّقُونَ مثيلاتها على ثيابهم، ومنها آلة اسمُها «الشَّاكِرِيَّة»، وهي على شكل هِلالين حادَّين، ثمَّ «الزَّرزَبانة»، وهي كرةٌ حديديَّة، ومجموعةٌ من العِصِيِّ الصغيرة يسمُّونها «الحمل»، وشكلٌ خشبيّ مخروط اسمه «القالب». رَحَّبَ زعيمُهم بِلالَة عِيشَة ورَكْبِها. كان يجلس إلى جانبهم نساء في أوضاع غير محتشمة. نَفَرَت لالَّة عِيشَة منهم،

واستنكَرت هيئَهُم، لكنَّها أشاحت ناظريها عنهم. حاولَت الابتعادَ عن ناحيتهم، لكنَّ زعيمَهم كان يُلقي نحوها كلامًا منحُولًا كُلُّهُ ألغازٌ يُمَوِّهُ به على المغَفَّلين، ويستدرِجُهُم به حتَّى يُعَظِّمُوهُ ويَرهَبُوه. أصاب لالَّة عيشةَ الذُّعرُ من أفراد هذه الجماعة الذين كانوا على هيئة واحدة، إذ كانوا جميعًا يحملون العكاكيز، كما لو أنَّها شارةٌ لهم، ورَمزٌ يميِّزُهُم. طلب منها زعيمُهم أن تجلسَ معهم حتَّى تحظى بالبركة، لكنَّ أحدَ العبيد، تقدَّمَ نحوَه، ووضع يدَهُ على طُبا سَيفِه، وَشَهرَهُ من غِمدِهِ، فتراجَعَ الدَّعِيُّ وارتعَدَت فَرائِصهُ، لكنَّه حاولَ أن يُمَوِّهَ على المملوك فأخرجَ شيئًا مثل الغُبار من شُكَّارَتِهِ (جِراب جِلدي يُعَلَّقُ على الكتف)، وذَرَّاهُ في الهواء، ثمَّ نطق ببعض «الخَنقَطِيرات[12]»، فارتاعَ العبد، وخصوصًا أنَّ لِعَبِيدِ «اگناوَة» اعتقادًا بأُمُورِ السِّحرِ والجِنِّ وما شابَههما، والشائعة في قبائلهم السُّودانيَّة. تدخَّلَت لالَّة عِيشَة التي أفزعَها ما جرى، وطلَبَت من رجالها مغادرةَ هذا المكان الموبوء بأصحاب العكاكيز، ونسائهم المومِسات.

تقدَّمَ الوُصفانُ الأربعة، وحَجَزُوا ما بين لالَّة عيشة وذلك المُمَخرِق حتَّى تركبَ على فرسِها. أمَّا وصيفَتُها «شَطَّابَة الرَحابي»، فكأنَّما انتابها شَيءٌ من سِحر الجماعَة، فَذهِلَت عمَّا يجري حتَّى انتهرَتها سيِّدَتُها، فانتبَهَت أخيرًا.

لم تَطعَم لالَّة عِيشَة من الرَّاحة، واستمرَّت في التَّوجُّه نحو زاوية الشَّيخ علي بن حمدوش. أمضَى الرَّكبُ بعض الوقت حتَّى وصلوا أخيرًا إلى الزاوية. سألت بعض مَن كان بالرِّحابِ عن الشَّيخ، فطلبوا منها أن تذهب لتغتسلَ في عينٍ إلى جانبِ بيت الشَّيخ حتَّى تُقضَى حاجتُها، لأنَّ من شَرطِ قضاءِ الحاجة امتثالَ الشَّرط. امتثلَت السُّلطانةُ التي كانت معتادةً على إعطاء الأوامِر كي تتلَقَّى هذه المرَّة قَواعِدَ السُّلوك، وطَرحَ النَّفسِ. هناك دومًا قابليَّة في الإنسان للتسليم بقبول التداول في بعض الأدوار.

بعد أن اغتسَلَت غسلًا خفيفًا، وتَوضَّأت، صاح أحدُ مَن كان في مِراحِ الزاوية: هذه لالَّة عِيشَة جات.

وردَّدَ سائر مَن كان هناك: «ها هي جات، ها هِيَ جات، لالَّة عِيشَة[13]، مولاة الواد جات».

خرج خادمُ الشَّيخ من الزاوية لمَا سمعَ أفراد الجماعة يَتصايحُونَ، فأقبَلَ نحو لالَّة عِيشَة وسَلَّمَ عليها لما رأى هيئتَها المُلوكيَّة.

ردَّت عليه السَّلام، وأخبرتهُ بأنَّ أفراد الجماعة طلبوا منها أن تغتسلَ في العينِ لملاقاة الشَّيخ، فقال لها الخادم: الشَّيخ هو من يتحدَّثُ في هذه الأمور، وليسَ لأحدٍ أن يتكلَّم باسمه. فإن جِئتِ لزيارة الشَّيخ، يا سيِّدتي، فتفضَّلِي معي. أمَّا أولئك، فلا دخلَ لهم في أحوال الشَّيخ وآداب الزيارة.

فَهِمَت لالَّة عِيشَة أنَّ الجماعةَ ربّما كانت من قَبِيلِ فِئَة أصحابِ العكاكِيز الذين اعترضُوا طريقها عند مشارِفِ القرية، وتَبِعَتِ الخادم.

سمعت لمّا دخلتِ الزاوية، الفُقراءَ يُرَدّدُونَ الذِّكْرَ الجماعيّ بقولهم:

«لا إلهَ إلا اللّـه.

المعبود اللّـه.

اللّـه الدّايم اللّـه.

اللّـه الحَنّان اللّـه.

اللّـه المقصُود اللّـه.

اللّـه، اذكُر اللّـه».

ارتاعَت لهذه الأرواح الذاكرة التي لا يشغَلُها شيءٌ عن ذكر اللّـه. توقَّفَ الذاكرون، ثمَّ تُلِيَتِ الفاتحة والدُّعاء. خرج الفقراء من الزاوية، بإشارة من الشَّيخ، وبقي مع ضيفتِه ووصِيفتِها، بينما وقف العبيدُ عند باب الزاوية.

سلَّمت لالَّة عيشَة عليه، فردَّ عليها السَّلام. كان أوَّلُ شيء قاله لها: ألتَمِسُ مِنكِ العُذرَ يا سيِّدتي في كُلِّ شيء، ولا ألتمِسُ العُذرَ في المحبَّة. ثمَّ صار يتكلَّمُ في المحبَّة، ويقول لها: المحبَّةُ لها عربون، فما هو عربونُ محبَّتِك؟

طلَبت من وصيفَتِها، التي كانت تُلَقِّبُها، لِشراسَتِها، بـ «شطَّابَة الزّحابي[14]»، أن تُعطيها الصُّندوق. فناولتها الوصِيفَةُ إيّاه، فوضعَتهُ أمام الشَّيخ، وقالت له: هذا عُربونُ محبَّتي، وهي صَدَقَةٌ لكم وللزاوية.

ابتسم الشَّيخ ونظر إليها مَلِيًّا، وقال: لا أرى إلَّا أوساخًا جِئتِ بها لِتُلقِيها علينا، فإنّا لا نَقبلُ أوساخ الناس.

كُسِرَت نَفسُ لالَّة عِيشَة، وسالت من عينها دَمعة، فرأى الشَّيخُ أنَّ الرِّسالةَ وصلَت، وأنَّ العِلاج تَمّ. مَسَحَت دمعتَها ثمَّ اعتذرت من الشَّيخ، وقالت له إنَّ ما في الصندوق إنَّما هو هديَّةٌ يستعين بها على تَوسِعَةِ الزَّاوية لإيواءِ الفقراء واستقبال الزُّوَّار وإطعامهم، وغير ذلك.

أمَّا محبَّتها، فهي أنَّها تركَت كُلَّ الجاه، وأتَت إليه لِتُمَرِّغَ وجهها عند قدمَي الشَّيخ.

أشفَقَ الشَّيخُ على حالها، وسألها عن حاجتها، فأخبرَتهُ بأن يدعُو لابنِها زيدان فَدعا له بدُعاءٍ عامّ، ودعا لها وللسُّلطانِ مولاي إسماعيل ولعامّة المسلمين، ثمَّ أخذَت منه وِردَ طريقَتِه القائِمَة على الصَّلاة على النبيّ الكريم، والاستغفار، والهيللة، وقراءة خمسة أحزاب من القرآن يوميًّا. وقال لها لتنبيهها إلى سِرّ الوِرد: أوَّلُهُ تطهير، ووسطُه تنوير، وآخِرُهُ تَعمِير.

فقالت له: ما معنى هذا الكلام؟

فأجاب: الاستغفارُ تَطهِيرٌ وتَخلِيَة، والصَّلاةُ على النبيّ تَنوير وتَحلِية،

وذكرُ «لا إلهَ إلَّا اللّـه» تعميرٌ للقلب وتَجلِيَة. وِردُنا يُلَخِّص حقيقةَ الصلاة، فإنَّ أوَّلَ ما يبدأ به المصلِّي هو الطهارةُ، فإذا تَطهَّرَ وتوضَّأ قام للصَّلاة، ولا شكَ في أنَّ القصدَ من الصَّلاة هو مناجاةُ الحقِّ بذِكْرِه، وأفضلُ ذِكْرٍ، هو ذِكرُ الكَلمةِ المشَرَّفَة «لا إلهَ إلَّا اللّـه». فـ «الاستغفارُ» هو بمثابةِ الطَّهارة، و«الصَّلاةُ على النبيّ» هي بمثابة الصَّلاة المفروضة خلف الإمام، ولا شكَ في أنَّ الإمام الحقيقيّ هو سيِّد الخَلْق. أمَّا ذِكْرُ «لا إلهَ إلَّا اللّـه» فهو بمثابة المناجاة التي تحدث في أثناءَ الصَّلاة. فالوِردُ جَمَعَ حقيقةَ الصَّلاةِ وأركانَها. وإذا كانت الصَّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فإنَّ ذكرَ اللّـه أكبرُ من أن يُحصَرَ فقط في النهي عن المنهيات، بل إنَّه يَحُثُّ على كلّ المكارم المُنجيَات.

سألَتهُ أيضًا عن أفراد الجماعات الكثيرة الذين كانوا كالوَباء في تلك النَّواحي، يعترضونَ الناسَ وأصحابَ الحاجات من الزَّمنَى والمرضَى ومَن سواهم.

فقال لها: يا سيِّدتي، هؤلاء جماعاتٌ خرجوا عن الجادَّة، وتعلَّقُوا بالبِدعة، ولهم مُسمَّيات كثيرة، منها العكاكزة و«اشراگـة». وهم يقومونَ بإيذاء أنفُسِهم لَمَّا تحدث لهم بعض الأحوال الشيطانيَّة السُّفليَّة، فلا يُحِسُّونَ بالألم، فَيظُنُّ بعضُ أصحابِ النيّات الطيِّبة، بهم خيرًا، وما هُم بِخَير، وإنَّما هم جماعاتٌ من المتسَكِّعِين، من أصحاب البِدعَة والرَّذِيلَة والإباحة، أخزاهُم اللّـه لاعتقاداتهم القَبيحة، وسِيرَتهم المُنكَرة، ونحن منهم بَراء. وقد نهيناهم عن أفعالهم مِرارًا، لكنَّهم مُصِرُّونَ عامِدونَ على الفُسُوقِ والفُجُور، ومعهم نِساء، فلا يُقِرُّون أمرًا، ولا يَقِفُونَ عند نَهْي، وأمورُهُم شيطانيَّة لا شكَّ في ذلك. وجهالاتُهم أكثرُ من أن تُحصَى، ولعل السُّلطانَ يَقطَعُ شأفَتَهُم ويستأصِلُ فُلُولَهُم، ويمنعُهُم من اعتراضِ الزُّوَّار إلى زوايانا. وقد أفتى فيهم العُلماء كأبي الحسن اليوسي في رسالة له عن العكاكزة، وعبد الوارث الياصلُوتِي في «المسلَك القريب الموصِل إلى حضرة الحبيب»، وأبانوا خِزيَهُم ومَعَرَّتَهُم. ولعلَّكِ رأيتِ، يا سيِّدتي، الآلاتِ التي يحملونها، فإنَّ بعضَهم يضربُ نفسَه بها لِيُخرِّبَ ظاهِرَه. وهذا أمرٌ مُنكَرٌ شرعًا وعقلًا لأنَّه اعتداءٌ على بُنيانِ اللّـه. وقد نهيناهم مِرارًا، وأمرناهم بأن يتوقَّفُوا عن هذه المنكرات، لكنَّهم جالِسونَ بالرِّحاب، لا يبرحونَ، وليس لنا جيشٌ نَذُودُ به عن زاويتنا وحِمانا، حتَّى نَطرُدَهم عنها، وإنَّما جيشُنا الدُّعاء والتَّهليل والتَّسبيح والتَّكبير. وقد وقفوا عند مشارف القرية يَصدُّون القادمين، ويُشَوِّشُونَ على الزائرين، ويُمخرِقُونَ على الطَّيِّبِين. وقد أسقَطُوا التكاليفَ، فلا صلاةَ ولا صومَ، بل إنَّهم يُبِيحونَ الرَّذِيلَة، فترى الرجلَ منهم إذا جاءهُ

ضيفٌ ظنَّ أنَّ من الكَرَمِ أن يَعرِضَ امرأته عليه، وهو راضٍ بهذه الدّيائة المنكَرَة، والعِياذُ باللّـه. بل إنَّ بعض الناس يَنقُلونَ إلينا أخبارًا لا نَعلمُ صِحَّتها من فسادها، وهي أنَّهم يَستَحِلُّونَ الخنزير، ويأكلونَ لحمَ المِيتَة، ويَزعُمونَ أنَّ ذبائحَ المسلمينَ اعتِداءٌ على الأرواح، وإزهاقٌ للأنفاس. كما يُبيحونَ دِماءَ المسلمينَ وأموالَهم. وإنَّنا لا نعلم صحَّة هذه الأمور، لكنَّ الأخبارَ سارت بها، والأفواهَ لاكَتها حتَّى صارت في حُكمِ الحاصِل، والأولَى عندَ كُلِّ ذِي قلبٍ سليم، وسريرةٍ صافية، تجنُّبُ الشبهات. لكنَّنا ننكر عليهم أشَدَّ الإنكار ما رأيناه بأعيننا، وما تحقَّقناه من أفعالهم التي شاهدنا، وعلى رأسِها شُربُ الماء الساخن، وتعذيبُ النَّفسِ بأنواع الآلات، وشَقُّ الرؤوس. وهذه كافية لوضعهم خارج أهل السُّنَّةِ والجماعة. ولعل هذه المنكرات كالتَّطبِيرِ والإدماءِ مِن شَعائِرِ بَقايا بعضِ الفِرَقِ الضَّالَّة التي انقرَضَت من بلادنا، وبَقِيَت بَعضُ جُيُوبِها في القبائل السَّائِبَة والمنعزلة. ثمَّ إنَّ كثيرين من العَوامَ والجَهَلَة يقعون في أسرِهِم لِما يُظهِرون من المَخارِيقِ الشَّيطانيَّة، وتَخرِيبِ ظواهِرِهِم بتلك الآلاتِ الحادَّة، والكُراتِ الحديديَّة. فإنَّ الجاهلَ حين يرى أنَّهم لا يُحِسُّونَ بالآلام ولا يَكتَرِثُونَ لما يُصِيبهم منها، يَظنُّ بهم خَيرًا ويَعتقِدُ أنَّ فيهم الوِلايةَ والصَّلاحَ، ولا يَفقَهُ المسكِينُ إنَّما هُم أولياءُ الشيطان، لأنَّ الوِلايةَ الحقَّةَ حِفظٌ إلهيٌ يُحَصِّنُ من الوُقُوعِ في المحرَّمات، ويَزجِرُ عن أحابِيلِ الشَّيطانِ الدَّنِيَّات.

يا سيِّدتي، أرجو أن تُبلِّغِي السُّلطانَ عمَّا شاهدتِ من أفعالِ هؤلاء المجانِين والفاسِقِين حتَّى يَقطعَ شأفتهم، ويَستَصفِي ما عندَهُم، ويُعِزَّ الدِّينَ والسُّنَّة كما أعزَّهُما بتطهير ثُغورِ بلاد المسلمين.

***

لم يكن للشَّيخ علي بن حمدوش أولادٌ لأنَّه كان أعزبَ غيرَ متزوِّج، لكن أبناءَ شقيقه كانوا بمثابة أولاده. كان شريفَ النَّسَب، زاهدًا مَعروفًا بالاستقامة والصَّلاح، حافظًا لكتاب اللّـه، عالِمًا بالسُّنَّة والحديث، درسَ في جامع القَرويِّين. كان رجلًا بَسيطًا يُحِبُّ الفقراءَ والمساكين، والأراملَ والأيتامَ، ويخدُمُهم، ويُؤويهم في زاويته. له جَذبٌ ظاهِر، إلَّا أنَّه راسِخُ القَدَم، يُؤمِنُ بأنَّ العبدَ وما كَسبَ لمولاه، مُحِبٌّ للمَديح والسَّماع.

أمضَت لالَّة عِيشَة طَرفًا من النَّهار في الزاوية، وطلبَ منها الشَّيخُ أن تَبِيتَ في ضِيافَتِه في مكان مخصَّص للضيوف، لكنَّها أخبرتهُ بأنَّ عليها أن تُغادِرَ حتَّى تَصِلَ قبل غُرُوبِ الشَّمسِ إلى مكناسة، كما اشترطَ عليها زوجُها السُّلطانُ، فقال لها الشَّيخ: إنَّ المسافةَ بعيدةٌ، وخروجَها عصرًا من الزَّاوية لن يجعلَها تَصِلُ قبلَ الغروب.

تأسّفت لالّة عيشة وخَشِيَت على نفسها من توبيخ زوجها السُلطان، فَهَدّأ الشّيخ رَوعَها، وطمأنها بأنّه سيدعو اللّـه حتّى تصل بالسّلامة في الوقت الذي كتبه اللّـه لها.

كان أحد المجاذيب واقفًا عند الباب، ورأى الشّيخ يرفع يديه بالدُعاء، ثمّ ودّعَت لالّة عيشة الشيخَ وخرجت. جاء إليها ذلك المجذوب، وقال لها: سيّدنا الشّيخ هو «گـوّاد الشّمس»، وكرّرها، ثمّ انصرف عنها.

لم تفهم كلامَه، لكنّ أحدَ أصحابه التقطَ هذه العبارة، ثمّ أنشد بالغناء الملحون قائلًا:

«باسم اللّـه بدِيت فَنظام، وَنصَلّي على طُول الدّوام
وعلى طهَ بَدر التمام، نهوَى رسول اللّـه
بعد صلاة الهادي، ونمجّد سلطان الفحُول
بن حمدوش مراح العقُول، حُب القَلب سباه
راني ناديت غِيثني، را حُبّك ساكَن مُهجتي
گـوّاد الشّمس، تجارتي بغيت أمري تتولاّه».

صارت الجماعة تردّد مع المنشد، لكنّ لالّة عيشة غادرت بسرعة مع وصيفتها «شَطّابَة الرّحابي»، وعَبيد البخاري نحو مكناسة. كان الرّكْب يركض نحو العاصمة الإسماعيليّة، ويعاين أشعّة الشمس التي تدلّت بعد التّطفِيلِ نَحوَ الغروب. كانت لالّة عيشة خائفة من رَدّةِ فِعلِ السُلطان، لِمَا تَعلَمُ عنه من صرامة. فقد كان صَلبًا لا يَنِي في تأديب المخالفين، مهما فعلوا من أمر حقير أو جليل. كانت خيوطُ الشمس تمتدّ وتمتدّ كأنّها سَوالِفُ عائشة القِدّيسَة التي استحمّت في عين الشّيخ علي بن حمدوش. استطالت تلك الأشعّة كما استطالت سوالفُ لالّة عيشة. كانت مكناسة تتراءى من بعيد رابِضةً في حِضن وادي الرّمان ووادي بوفكران، لكنّ الرّكْبَ لن يدركَ أبواب المدينة إلّا بعد الغروب. أُسقِطَ في يد لالّة عيشة، ونسيَت أمر الشّيخ، ولم تعد تُفكّرُ إلّا فيما ستقوله للسُلطان. وصلوا أخيرًا إلى باب ساحة لالّة عُودَة، ودَلفُوا من الممرّ المُحاذِي لقصر الدار الكبيرة الذي كانت تسكنه بعضُ مَحظِيّاتِه. سلك الرّكبُ تلك الدُروب حتّى وصل إلى القصر. كانت السّماءُ مُحمَرّةً، وخيوطُ الشمسِ الغاربةِ ما زالت تَلُفُّ الفضاءَ بضوء غير معهود. لمّا مرّت قرب قصرِ السّتّينيّة، انتابها شعورٌ عجيب، ففي هذا القصر ناعورةٌ من خشب تُزَيّنُ سقفَ إحدى قِبابه الفخيمة تسمّى «الستينيّة». إنّها تشبه كوكب الشمس لأنّ مولاي إسماعيل كان شمسًا بين السّلاطين، كما كان معاصره لويس الرابع عشر يُلقّبُ بِمَلِكِ الشمس. بين زوجِها الذي كان شمسَ السّلاطين، والشيخِ بن حمدوش «گـوّاد الشمس»،

ثمَّة نسبةٌ عجيبة. تعجَّبَت لالَّة عيشة من كرامة الشَّيخ ودعائه لها بأنَّها ستصل في الوقت، ثمَّ تذكَّرت قولَ ذلك الفقير المجذوب عن شيخه بأنَّه «گـوَّاد الشمس». فهل كان يقصدُ شمسَ زوجها المرموزِ إليه بتلك النَّاعورَة الستينيَّة التي تُشبِهُ الشَّمس؟ أم كان يقصدُ شمسَ الكونِ التي تَغرُبُ كلَّ مساء؟ زادت ثقةً بالشَّيخ علي بن حمدوش، وحصلَ في روعِها أنَّ هذه من كراماته.

دخلَت لالَّة عيشة من باب الرُّخام، ودخل في إثرها العبيدُ، إذ مشوا في الممشَى الذي يخترقُ القصرَ بين العَرصات إلى أن وصلوا إلى «قُبَة اگـناوَة». ترجَّلُوا عن أفراسهم، وأنزلوا سروجهم وجِلاَسَ البهائم، وأخذوها إلى الإسطبل حتَّى يعتني بها صغارُ عَبِيدِ البخاري. أمَّا لالَّة عيشة، فقد تقدَّمت حتَّى وصلَت إلى دارها في الحريم السُّلطاني.

خرج السُّلطان من المسجد الجامع بعدما أدَّى صلاةَ المغرب واستفتح على عادته ثُمُنًا من القرآن في القراءة الجماعيَّة للحِزبِ الرَّاتِب، على عادة أهل هذه البلاد في ختم القرآن كلَّ شهر بمعدل حزبين في اليوم، حزبٍ بعد صلاة الصبح، وحزبٍ بعد صلاة المغرب. فما زالت بلادُهُم محفوظةً بالقرآن، وما زال القرآن متلوًّا وحفوظًا عنهم، يعرفه الصغير والكبير، والعالم والجاهل، ومَن لا يُحصَى عددًا من الحَفَظَةِ للذِّكر الحكيم. والعادة المتَّبَعَة عندهم، والمقرَّرة عند صغيرِهم وكبيرِهم أنَّهم لا يحفظون إلَّا في الألواح، لأنَّ القاعدةَ الرائجةَ بينهم هي «أنَّ ما نزلَ من اللَّوح لا يُحفَظُ إلَّا في اللَّوح»، فيتعلَّمُ الحافظُ لكتاب اللَّـه، الرَّسمَ القرآنيّ، والضَّبطَ الصَّحِيحَ للكلمات، إضافة إلى الحفظ. بعد ذلك، قام مولاي إسماعيل من مكانه إلى جانب الإمام في المحراب حتَّى خرج من باب المسجد، ثمَّ توجَّه إلى قصره. سأل حاجبَه عن زوجته لالَّة عيشة، فأخبره بأنَّها وصلت، فمضى إلى ناحيتها حتَّى يقف على جَلِيَّةِ الأمر.

وصل إلى «عَرصَة لالَّة»، ودخل دار لالَّة عيشة، فجاءت إليه مَرعوبةً، وقال لها: لقد تأخَّرتِ عن الموعد المحدَّد.

فقالت: يا سيِّدي، لقد وصلتُ مع المغرب كما اشترطتَ عليّ على الرَّغم من أنَّ المسافة طويلة. وقد أخَّرني رعاياك الذين مررنا عليهم في الطريق، والذين كانوا يهتِفون باسم سيِّدي ويرجون كرمَه ونوالَه، فلم يكن لائقًا أن أُخَيِّبَ آمالهم. ومع ذلك، فقد وصلنا إلى مكناسةَ، وخُيُوطُ الشَّمس الحمراء ما زالَت في السَّماء.

ثمَّ سألها عن رحلتها، وعن الشَّيخ بن حمدوش، فأخبرته بشكل موجَز بمَا رأت وسَمِعت، ونقلَت إليه دعواتِ الشَّيخ. ثمَّ سألها عمَّا يمكن أن تكون قد

وقَفت عليه من بِدَعِ العَوامّ عند الشَّيخ، فأخبرَتهُ بأنَّ الشَّيخَ حريصٌ على تربية الناس على المنهج السُنّي. ومن رآه مخالفًا لذلك زَبّاه ورَقّاه.

فأعاد عليها السُؤال فأخبرته بما رأت من بِدَع فرقة العكاكزة، ومُلتَمَسِ الشَّيخ للسُلطان بهذا الخصوص، فقال لها: إنَّ هذه الفرقة الضَّالَّةَ المُضِلَّة، التي تجمَعُ الجَهَلَة والفُسّاقَ وأهلَ الشَّرّ، قد تمادَت في انحرافاتها على الرَغم من تنكيلِنا بأتباعهم في تادلا وزمور قبل ثلاث سنوات عام (١١٠٢هـ/ ١٦٩١م.). لقد نفَّذنا حكمَ الزندقة بإعدام ثلاثةٍ وستينَ من رؤوسهم آنذاك، ولم نقبل استتابتهم لأنَّهم خارجون عن الملَّة، وسنفعل بفُلولهم المتبقية ما فعلناه بهم سابقًا حتَّى لا يبقى لهم ذِكر، ولا يستغلُّوا عطفَنا على أهل الولاية والصَّلاح بالاقتراب من زواياهم، والاختلاط بهم حتَّى يُمَوّهُوا على الجهَلَة، ويصطادوا الغَفَلَة. وقد أفتانا في ذلك خاتمةُ العلماء الشيخ المجدّد، العلامة أبو الحسن اليُوسي، الذي قال فيه الإمام أبو سالم العياشي:

«مَن فاته الحَسنُ البصريُّ يصحَبْه فَليَصحَبِ الحَسنَ اليُوسِيَّ يكفيهِ»

فقالت لالَّة عيشة: إنَّ الشَّيخ علي بن حمدوش يحارِبُهم ويَصدُّهم عن الاقتراب من زاويته، لكنه يَستَغِلُّونَ جُموعَ النَّاس الذين يزورون الزاوية في المناسبات الدينيّة ليعترضوا طريقَهم، ويَصُدُّوهُم عن الخير والصلاح بإظهار مَخاريقهم التي يتصيَّدون بها العوام.

فقال السُلطان: سَنُرِيحُ الشيخَ من وصول هؤلاء إلى ناحية زاويته، وسأرسل فرقة من جيش البخاري لاقتلاعهم من هناك، والتنكيل بهم، ومعاقبة القبائل التي تؤويهم.

ثمَّ ترك السُلطان زوجته لالَّة عيشة، وتوجَّه نحو بعض نسائه، ولم يَنسَ أن يمرَّ على لالَّة خناثةَ التي أمضى معها الصباحَ كلَّهُ لِيَطمَئِنَّ عليها. لقد كانتِ السَّاعاتُ التي أمضاها معَها آسِرَةً، بحيث لم يَبرَح يُفَكِّرُ فيها طَوالَ النَّهار على الرَغم من مَشاغِلِهِ الكَثِيرَة. وَصَلَ إلى دارِها فاستَقبَلَتهُ بِابتِسامَةٍ عَرِيضَةٍ فيها من المَكرِ النِّسائيِ ما فيها. سألها عن حالها، وطلَبَ منها أن تستريحَ، وألَّا تُكثِرَ من الوقوف والحركة، لأنَّها تحمِلُ في رَحِمِها النطفةَ السُلطانيَّة. وبعد أن انتهى من الحديث معها ومُلاطفَتِها، عاد إلى شُؤونِه المعتادَة.

لم يَغِب عن لالَّة عِيشَةَ زيارةُ السُلطان لبعض نِسائه، ومنهنَّ لالَّة خُناثة. سألَت أهلَ ثِقَتِها عمَّا جرى خلال غيابِها، فأخبرُوها بقضاءِ السُلطانِ نِصفَ النَّهارِ مع لالَّة خُناثة. نزل الخبرُ كالصاعقةِ على لالَّة عيشة التي كانت هي من يُشرفُ على اختيار مُفَضَّلَةِ ليلةِ السُلطان، فإذا بهذا الخبرِ يُنَغِّص عليها

كُلَّ تدبيراتِها السَّابقة. كتمت غيظها، وعزمت على تقصّي الأمرِ حتّى تَعرِفَ ما جرى. أرسلت عُيونَها خلال الأيّام التّالية، فأخبَرُوها بعد التّقَصّي، بأنَّ السُلطانَ شَرَّفَ خنائَة في فراشِها، وتجدّدَ ما بينهمُا من البِعال في النَّهار على غير العادة مع سائر نسائه.

---

1 عبارة تفيد بالنَّفي في اللَّهجة الحسانيّة، المتداولة عند عرب حسان في صحراء المغرب وموريتانيا.

2 أي: نَعَم.

3 الشَّيخ: (بكشر الشين) تُطلَق في اللَّهجة الحَسانيَّة على الأمير أو القائد أو صاحب الشوكة؛ بينما تُطلَق كلمة الشَّيخ (بفتح الشين) على العالِم الصوفي. والجمع في الأولى على شيوخ، وفي الثانية على أشياخ.

4 التّازُبّة: بتفخيم الباء، كلمة حسانيَّة تعني العقوبة الإلهيَّة الناتجة من الظلم والفساد في الأرض.

5 الـكـاف: وحدة شعريَّة في الأنظام الحسانيَّة، له أربعة مصاريع. للأوّل والثالث القافيةُ والروِيُّ نفساهما، بينما يتَّحد الثاني والرّابع في قافية ورَوِيٍّ آخَرَين.

6 شَكوَة: قِربة من جلد الماعز تصلح لحفظ الماء أو اللَّبَن.

7 الحرطاني: كلمة محرَّفة عن استعمالها الفقهي «الحُرُّ الثاني»، مقارنةً مع الحُرّ الأوّل، وهو الحرّ بالأصالة، بينما الحرّ الثاني هو الذي يحصل على حرّيَّته بعد أن كان عبدًا. وقد يتكلَّف البعض في إيجاد أصل صنهاجي للكلمة من «أحَرضان»، لكنَّ الاستعمال الشرعي للكلمة مقدَّم على غيره، نظرًا إلى تَشَوُّفِ الشرع إلى العتق عبر كثير من الأحكام التي تدعو إلى ذلك، وكثرة استعمال الفقهاء لهذه اللَّفظة بهذا المعنى.

8 مدينة **مكناسة الزيتون**، نسبة إلى إحدى القبائل المغربيَّة التي استوطنتها، وقد أضيف إليها لفظة «الزيتون» تمييزًا لها عن مكناسة تازة، ومكناسة الأندلس. ومكناسة هي التي تغنَّى بها أبو الحسن الششتري في زجله الشهير «شُوَيخ مِن مَكناس».

9 إنَّ استعمال عبارة «عبيد البخاري» في الرواية إشارة إلى واقع تاريخي. وقد اختار السُلطان مولاي إسماعيل تسمية هذا الجيش بهذا الاسم تأكيدًا على أنَّه هو ورجاله عبيد للسُنة النبويَّة، كما وردت في أحاديث صحيح البخاري. والدَّليل على أنَّهم لم يكونوا عبيدًا كونهم كانوا يتمتَّعون بحرّيَّتهم في الزواج والإنجاب وبناء المنازل وغير ذلك، ضمن هذا الجيش المهني.

10 كُنية لنسبة جغرافيَّة كانت تُطلَق على أهل جيني أو گيني، وهي مدينة جنوبي تمبكتو على حوض نهر النيجر في خليج غينيا. وبعض التأويلات تُرجعها إلى غانة.

11 لعلَّ الباحث عن تفصيل هذه الإشارات العرفانيَّة والتلويحات النورانيَّة في منزل الحِجر من كتاب الفتوحات المكيَّة، ليقفَ على سرّ عجيب.

12 رموز وطلاسم سحريَّة.

13 عند بعض النُحَل الشعبيَّة، تظهر شخصيَّةُ امرأةٍ أسطوريَّة بحريَّة تُنسَب إلى الجنّ، تدعى «عِيشَة قَنديشَة»، ولعل الكلمة مُحَوَّرة عن امرأة من أهل الصلاح، كانت تدعى «عائشة القديسة»، لِمَا كان لها من فضل في الإنعام والصَّدَقة، حتَّى تحوَّلَت إلى أسطورة ما زالت تُرَدِّدُها الألسُن إلى اليوم. ويوجد قرب زاوية علي بن حمدوش عينٌ تسمَّى «حُفرة لالة عيشة» تغتسل فيها النساء العازبات الطالبات للزواج قبل الزيارة. ولعلَّ هناك تداخلًا لاسم شخصيَّة تلك الأسطورة مع «لالة عيشة»، زوجة مولاي إسماعيل التي أنفقت كثيرًا على زاوية الشَّيخ علي بن حمدوش.

14 شطابة الرحابي: عبارة تعني المطر الخفيف الذي يبدأ في فصل الخريف، والذي ينظُّف الرِّحاب، وهو مكان مُبَلَّطٌ بالطين وَرَوثِ الدَّوابّ يتم فيه دَرسُ الحبوب، وعزلها عن التبن. والاستعمال المجازيّ للعبارة يفيد بأنَّ قليلَ الفعل يَحسِمُ الأمور، مثل المطر الخفيف أوَّل الخريف الذي يَكنِسُ الرحاب، قبل حلول فصل الشتاء. ومن الأمثلة المرتبطة بهذا المعنى، قولهم: «الخريف الخاوي»، و«الشَّمس الضفِيرة تمرَّض البـگـيرة».

كتاب اللّام

فإن يَبنِ إسماعيلُ في البَيتِ كَعبةً — يَحُجُّ إليها الناسُ في مَوسِمِ النَّحرِ

فقد شادَ في الدِّينِ المتينِ سَمِيُـهُ — بَنا كعبةً قامَت على عُمُدِ الـذِّكْـرِ

أبو عبد اللّـه محمد الشريف العلمي

***

كانت لالّة خناثة حَذِرَةً أشَدَّ الحذَر، مُتَكَتِّمَةً في شأن حملِها أشدَّ التَّكَتُّم. بل لمّا بدأ بطنُها ينتفخ، أخذت تعملُ على إخفاءِ أمرِها حتّى لا تَكِيدَ لها غريماتُها. لاحظ بعض من كان مُستأنِسًا قُربها، أنّها لم تَعُد تَركبُ فرسَها في عراصِي القصر. أمّا لالّة عِيشَة، فقد وضعتِ العيونَ لِمُراقبةِ حَكاتِ لالّة خُناثَة، بل إنّها لَمّا عَلِمَت بِحَملِها، سَعَت بِكُلِّ ما أُوتِيَت من مَكرٍ نسويّ، وَدَهاءٍ سُلطَوِيّ، لإسقاط الجنين، وذلك بأن جاءت تسألُ عن أخبارها، وتُهَنِّئُها بِحَملِها، وتنصَحُها عِدَّةَ نصائح كمن يخافُ عليها وعلى جنينها، وهي تتمنّى لها عكس ذلك، كقول المتنبي يهجُو كافُورًا بما يبدو مَدحًا:

وَلَولاَ فُضُولُ النَّاسِ جِئتُك مادِحًا بما كنتُ في سِرّي به لَكَ هاجِيا

كانت تُرسِلُ إلى خناثةَ، مُبالَغَةً في مُصانعتها وإظهار مودَّتِها، بعضَ ما تشتهيهِ النِّساءُ الحوامِلُ من مَرغُوبِ الطَّعام وَأطايِبِ الخِوان، لكنَّ خناثةَ التي كانت مُعتادةً على أكلِ البادية البَسِيط، لم تَكُن تَغتَرُّ بهذه المُلتَقَماتِ الشَّهِيَة، فَتُعطِيها للخدم، أو للقطط التي كان مولاي إسماعيل يُرَبّيها في قصوره. وذاتَ مَرَّةٍ، أعطَت لالّة خُناثةُ الطَّعامَ واحدة من خادماتها، على جارِي عادَتِها، ممّا كان يأتيها من المطبخ السُّلطانيِ، المُسمَّى «قصر الكشاشَن»، فأصابَ الخادمةَ مَغَصٌ قَوِيّ، وقَيءٌ شديد، خرجَت له أحشاؤُها. كما أنَّ إحدى القطط أكلت من الطعام ذاته فسقطت جثّة هامدة. سارعَت لالّة خُناثَة إلى إخطار السُّلطان مولاي إسماعيل عمّا وقع، ورأت أنَّ تُعلِمه بحَملِها، وطلَبَت منه أن يُرسِلَ إليها طبيبًا لِعلاجِ الخادمَةِ المسكينة. استبشَرَ خيرًا بِخَبرِ حَملِ زوجتِه، ثمَّ أرسلَ إليها طبيبًا راهبًا، كان في زيارة لمكناسة ضِمنَ وَفدٍ سِفارِيٍّ إسبانيّ جاء للتفاوض من أجل إطلاق الأسارَى الأوروبيّين في المغرب، كان مكلَّفًا بعلاج أبناء جلدَتِه ومِلّتِهِ، المسجونين في سِجنِ قارَة. جاء الطبيبُ إلى دارِ لالّة خُناثة مَرفوقًا بعبدينِ من عبيد الدّار، وعايَنَ المريضةَ المسكينة، وأعطاها دواءً لِتسكين الوَجَع، وَماسِكًا

ضِدَّ القَيء. ثمَّ لمّا رأى القطَّ المسكين ميّتًا، أدرك أنَّ السَّمَ فعل فعله. كان يتحدَّثُ عربيَّةً مُتكسّرَةً، يخلط فيها بين الحروف، وينطِقُ بصعوبةٍ حروفَ الحلق كالعين والحاء كما لو كان سيختنق. سألَتهُ لالّة خُناثَة عن سِرِّ تحدُّثِهِ بالعربيَّة، فأخبرها بأنّه تعلَّمها في دَيرِ الأسكُوريال في مدريد. ثمَّ سألَتهُ عن الكتبِ العربيَّة التي قرأها، فأخبرها بأنّه اطَّلعَ على القرآن وبعض كتب الكلام والمنطق والفلسفة والطبّ وغيرها. ثمَّ سألته مرَّة أخرى عن بعض العناوين المفقودة من الخزانة الزيدانيَّة، والتي انتهبها القراصنة لما حاول مولاي زيدان في عهد الدولة السعديَّة، نقلَها في سفينة إلى إحدى مدن الساحل المغربي، فأخذ الراهب يذكرُ لها الأسماء من دون أن يفطنَ إلى أنَّ لالّة خناثة جَرَّتهُ كي يعترفَ بوجودِ تلك الكتب التي كان ملوكُ المغرب يتفاوضونَ دومًا على استرجاعها، لكنَّ الإسبان كانوا يُنكرون وجودها، ويتعلَّلُون بشتَّى العِلَل. كانت تُؤكِّدُ على الراهب في السُّؤال مبديةً الإعجابَ بعلمه وبمعارفه حتَّى تستدرجه إلى الاعتراف، فأقرَّ بوجود تلك العناوين في دير الأسكوريال. لم تُظهِر له نيّاتها، وعزمتْ على إخبار مولاي إسماعيل عن أكاذيب ملك إسبانيا الذي ادَّعى أنَّ الكتب قد التهمتها النيران في حريقٍ تعرَّض له الدَّير. أخبرها الراهِبُ بأنَّ تلك العناوين التي تسأل عنها موجودةٌ في خزانة الدير، ويقرأ فيها الرهبان الذين تعلَّمُوا العربيَّة. ثمَّ لمّا رأى اهتمامها، صار يتحذلقُ بمعرفته، فيذكر لها موضعَ كلّ كتاب في الدير على وجه التَّحديد. كانت لالّة خناثة تُسايِرهُ في تَحذلُقِهِ حتَّى أخبرها بما كانت ترغبُ في معرِفتِه. وبعدما انتهى الطَّبيبُ الرَّاهبُ مِن إعطاء العلاجِ للخادمةِ، اِستأذنَ في الانصراف، فمنحتهُ لالّة خُناثة كِيسًا صغيرًا به بضعة مثاقِيل ذهبيَّة، فأخذه شاكرًا ثمَّ انصرف. كان السُّلطانُ ينتظر أن يسمع منه ما جرى، فأخبرهُ بأنَّ الطعام الذي تناولته الخادمةُ كان مسمومًا، ولو كانت حاملًا لسقط منها الحمل، لكنَّها لم تكن كذلك، بينما لم يحتمل القطُّ المسكين درجةَ السُّمِّ التي كانت عاليةً بالنسبة إلى حيوان صغير الحجم مثله، فهلك.

أدركَ مولاي إسماعيل بسرعةٍ أنَّ المستهدَفَ من إسقاطِ الجنين لالّة خُناثة، فاغتاظَ للأمر، وصرف الطَّبيب. ثمَّ جاء لزيارة زوجته ليسمعَ منها ما حدث، فأخبرتهُ. نَبَّهَها إلى أن تحتاطَ أكثر فيما يأتيها من طعام، وأخبرها بأنَّ مثلَ هذه الأساليبَ القذرة كانت معتادةً بين النِّساء في القصور. ونصحها بألّا تشربَ إلّا في كؤوس البِلّور، فسألته عن السَّبب، فأخبرها بأنَّ من خصائص البلّور التي لا توجد في أيّ زجاج سواه أنَّه يتكسَّر بمجرَّد أن تلامسه السُّموم. تعجَّبت لالّة خناثة من هذه الخاصيَّة، فسارعت إلى القول:

لهذا السبَّب كنتَ تهدي أبناءَك كأسًا من البلّور حتَّى يداوموا الشربَ فيه. فقال لها المولى إسماعيل: بالضَّبط، لكنْ اكتُمِي هذه المعلومة عن الخدم وغيرهم، فهي من الأسرار التي تجعلنا نتوَقَّى محاولات الاغتيال. وقد أهدانيه ملكُ الإنكليز بعد أن اكتشف علماء بلاده صناعة هذا النوع من الزجاج.

ثمَّ أخبرته عن المكتبة الزيدانيَّة في دير الأسكوريال وما حكاه لها الراهب الطبيب، فأعلمها بأنَّه يعرف هذا الأمر، وقد حاول افتِكاكَ الكتب من ملك الإسبان لكنَّهُ أنكر إنكارًا شَدِيدًا لأنَّ القَساوِسَةَ أفتَوهُ بِحُرمَةِ إعادتها إلينا، لما فيها من العلوم النافعة. وانصرف السُّلطان بعدما ودَّع زوجته.

طلب مولاي إسماعيل إشخاص الطَّبّاخين واستنطاقهم عمَّا حدث، فاستُجوِبوا لكنَّهم أنكروا، فَأُخِذَ اثنان منهم، إضافة إلى «الشَّوِيردِي»، وهو العبدُ المكلَّف بالسُّخرة والذي حمل الطَّعام، فَعُذِّبَ الثلاثة عذابًا شديدًا، وذلك بأنَّ ثلاثةً آخرينَ من عُتاةِ عَبيدِ السُّلطان، ويدعون «عَبِيدَ العافيَة»، أيْ عبيدَ النار، لأنَّهم مكلَّفون بتطبيق العقوبات الصادرة في حقّ أهل دار المخزن، العاملين في القصور السُّلطانيَّة، أخذوا المتَّهَمين واحِدًا بَعدَ آخَرَ، من أيديهم وطَوَّحُوا بهم في الهواء بأقصى قوَّتهم، ثمَّ ألقَوهُم إلى أبعد مسافة، فَهَوَى المساكينُ على الأرض كأنَّما قُذِفوا من شاهق، أو أُرسِلُوا من فوَّهة مِدفَعٍ أو طاسةِ مَنجَنِيق، وقد كُسِرَت عِظامهم، وتهشَّمت رؤوسهم، وتفكَّكت أطرافُهم ومَفاصِلُهم. فَعلُوا بهم هذا، فلم يَنبِض لهم عِرقٌ. كانت العادة إذا تحرَّك المقذوف أن يستمرُّوا في تعذيبه، لكنَّ العبيدَ المساكين كانوا يعرفون القاعدة، فلم يتحرَّكوا على الرَّغم من أنَّهم كانوا يتلوَّونَ من الألم في دواخلهم، فأخذهم «عبيد العافية» وَرَمَوا بهم في «سجن قارَة». كانت المؤامرات كثيرة في دهاليز القصور، وكان العبيد والخدم طرفًا أساسيًّا فيها، فكانوا هُم مَن يؤدي الثمن أوَّلًا. فهم أدواتُ الموت، كما أنَّهم حَطَبُ النار التي تلتهمهم.

كان ما حدث كافيًا كي تأخذَ لالَّة خناثة الحِيطةَ والحذر مِن غريمتِها لالَّة عِيشَة وسائر النساء، فكانت تُشرِفُ على طَبخِ أكلاتِها بنفسِها مع خادمَتِها الوَفِيَّة. وزيادةً في التَّحَفُّظِ والاحتياط، كانت لا تَأكُلُ ما يأتيها من طعام إلَّا بعدَ أن يتذَوَّقَ الطَّعامَ عَبِيدُ الدَّار، إذ ربَّما يَدُسُّ أحدُ هؤلاء في غَفلَةٍ منها سُمًّا، أو مادَّةً تُسرِعُ في إسقاط جنينها وقتله مع أُمِّه. وهكذا، بقيتْ لا تَبرَحُ دارَها إلَّا قليلًا، وتهتَمُّ بمطالعة الكُتُب. كما كانت تخرجُ للتَّنزُّهِ في عَرصاتِ قصر المحنشة، وخصوصًا «جنان ابن حليمة»، من طريق سريّ اسمه «طالع

هابط»، من دون المرور بالنَّهجِ العُموميّ الذي يسلُكه عامة الناس، ويُمنعُونَ منه وقت خروجِ حُرَمِ السُلطان. لم تكن خناثة تريد أن يتضرَّر السُكَّانُ من خروجها للفُسحة في «جنان ابن حليمة»، لهذا كانت تسلك من هذا الطريق السرِّيّ مباشرةً إلى مقصدها. كانت تحبُّ أن ترى النَّعامَ والطَّواويس تخطر في تلك الأنحاء. لكنَّها كانت تُشَدِّدُ على العبيد بحراسة دارها، ومَنعِ أيِّ أحدٍ من دخولها في أثناء غيابها.

ومن بين اهتمامات لالَّة خناثة أنَّها طلبَت من زوجها أن يُقطِعَها أراضي لِغَرسِ شجرِ الزيتون، وقَطَعت على نفسها عهدًا بأن تستصبحَ مصابيحُ بلاد الحرمين بزيت هذه الأشجار، فأعطاها أرضًا كبيرةَ المساحة لغرس أشجار الزيتون، واستحسنَ المولى إسماعيلُ صنيعَها فغرس بنفسِه مساحاتٍ أكبرَ حتى بلغَ مجموعُ ما غرسَ مئةَ ألفِ شجرة زيتون، من جهة باب العمائر الذي قيل فيه:

فَلَن تَرى في سائرِ العَمائِرِ مِثلَ مَحاسِنِ أبي العَمائرِ

ويخرج من هذا الباب بعد المرور على قنطرة وادي العمائر إلى جنان الحمرية المغروسة بالزيتون على مرمى البصر.

كما واصلَت اهتمامَها بافتِكاكِ الأسرَى، وحدثَ أن طلبَ زيارتها أحدُ التُّجَّار اليَهود بعدما توسَّط له بعضُ العلماء لِلِقاءِ لالَّة خُناثة، فاستقبَلَتْهُ، فأخبرَها عن فاجِعَتِهِ وإفلاسِه بسبب استيلاء الإسبان على سفينته المحمَّلَةِ بالبضائع في مدينة قادِس جنوبي إسبانيا. ساء لالَّةَ خُناثة نَكثُ العُهود، والتَّعَرُّضُ للتُّجَّار المغاربة، مع أنَّ هناك اتفاقيَّةً تحكمُ حركةَ التِّجارة بين الدولةِ العلويَّة والدُّولِ الأوروبيَّة، فوعدتُه بعملِ كُلِّ ما في وُسعِها حتَّى يستردَّ سفينتهُ وبضائِعَه، ثمَّ صرَفَتهُ، وأعطَته كِيسًا من المالِ لِيَستَعِينَ به. كان مولاي إسماعيل كثيرًا ما يَمُرُّ على لالَّة خُناثة لِيَطمَئِنَّ عليها وعلى حَملِها، فأخبرتهُ بفاجِعةِ اليهوديّ المغربّي، فأمرَ للتَّوِّ بحبسِ جميعِ الرُّهبانِ الإسبان من طائفة الفرنسيسكان في سجن قارَة، وأرسل رسالةً إلى مَلِكِ إسبانيا يشترِطُ عليه إرجاعَ السَّفينة، وإرسالَ كتب الخزانة الزيدانيَّة في مُقابِلَ إطلاقِهم. سارع الملك الإسباني إلى إعادة السَّفينة إلى التاجر. أمَّا الكتب، فلم يُرسِل منها إلَّا مجموعةً صغيرةً، من بينها نُسَخٌ من القرآن الكريم، ونسخةٌ نفيسة من صحيح البخاري، وتعلَّلَ بما كان يتعلَّلُ به في الماضي من ضياعها، فأطلق مولاي إسماعيل الرُّهبانَ الفرنسيسكان، الذين كانوا يُطَبْبِبُونَ أبناءَ جِلدَتِهِم، ويَسهَرُونَ على التَّفاوُض باسم أفراد الأُسَر الذين يرسِلونَهُم لافتِداء أقربائهم. كانت سعادةُ التاجر كبيرةً، وأهدى خُناثةَ من بِضاعَتِه المُستَرَدَّة، بعضَ أنسِجَةِ الكتَّان الفرنسيَّة، المصنَّعة في مدينة

سان مالُو.

***

أنجبَت لالَّة خناثة «عبدَ اللَّـه»، في سنة ١١٠٦هـ/١٦٩٤م، في قصبة الفرخ قرب الدار البيضاء في تافيلالت، موطن الأشراف العلويّين كانت فرحةُ لالَّة خناثة لا تُوصَف، فقد عادَت مرَّةً أخرى إلى المنافسة فيما كانت تُؤَمِّلُهُ وتَطمَحُ إليه، وانتعشت أحلامُها بأن تصبحَ سلطانةً مرَّة أخرى. فإن لم تستطِع أن تُزيحَ لالَّة عيشة عن عَرشِ المرأة الأولى في الدولة، فقد تستطيعُ الآن، أن تصلَ إلى مبتغاها، شريطةَ أن تُمَكِّنَ لولَدِها في قَلبِ والده، وترعاهُ وتهذِّبُه بما يَضمَنُ له حظوظًا أوفرَ مِن سائر إخوَتِه. لم تَكُن تتخيَّلُ أنَّها بِقَدرِ اقترابِها من هدفها، كانت المخاطرُ تتضاعفُ وتزداد، إذ لَمَّا كانت غيرَ حامِلٍ، كانت مَحرُومَةً زياراتِ السُّلطان المتكرِّرةَ. فلما حملَت، أصبحَت مستهدَفَةً بشكل متزايد، وصارت هي وجنينُها مهدَّدَين بالتَّسمِيم والتَّصفِيَة والمؤامرات، فاحتاطَت لأمرها. أمَّا الآن، وقد وَضَعَت، وصارَ ابنُها ضمن المرشَّحين على السُّلطة، فإنَّ المخاطرَ ازدادَت عليها وعليه. فلا شَكَّ في أنَّ غريماتِها سَيُحاوِلنَ الكَيدَ لها وله. لقد كانت سابقًا مُؤتمَنةً على نفسِها فقط، بينما هي اليومَ مُؤتَمَنَةٌ على ولدِها وعلى نفسِها. وإذا كان ائتِمانُها على نفسِها مَنوطًا بها، فإنَّ ائتِمانَها على ولدِها أصعَبُ لأنَّه ذاتُ ثانيةٌ مُنفَصِلَةٌ عنها، سيصيرُ لها من الحركةِ والاستقلاليَّة غَيرَ ما لَها من التَّحَفُّظِ والحَذَر.

كان من عادة السُّلطان أن يَنقُشَ على كأسٍ مِنَ البِلَّورِ، اسمَ كُلِّ وَلَدٍ يُرزَقُ به، ثمَّ يُعطِيهِ خاتَمًا نَفِيسًا لِيَتَمَيَّزَ به عن سائر إخوتِه. وكان يمتَحِنُهُم حينما يَكبَرُونَ بسؤالهم عن الخاتم والكأس، فإن أجابوا قَرَّبَهُم، وإن ارتَبَكُوا وضَيَّعُوا المطلوبَ أخَّرَهُم. تسلَّمت لالَّة خناثة كأسَ ولدِها وخاتَمَه، كما أهداها مولاي إسماعيل نسخةَ صحيحِ الإمام البخاري التي كانت ضمنَ كُتبِ الخزانة الزيدانيَّة التي افتَكَّها من مَلِك الإسبان. فحرصت على الاحتفاظِ بالكأسِ والخاتم في صندوقٍ سِرِّيٍّ مُحكَمِ الإقفال، مُنجَحِرٍ في جِدارٍ عَظيمِ السُّمك، بحيثُ لا يمكِنُ إخراجُه إلَّا بِهَدْ الجِدارِ كُلِّه. أمَّا النُّسخةُ النَّفِيسةُ لصحيح البخاري، فقد اكتشفَت أنَّها نسخةُ القاضي عِياض عن شيخِه أبي علي الصَّدَفِي، وعليها تقريراتُ عِياض وتمليكُه. كانت سعادَتُها بهذه النسخةِ عظيمةً، وأضحَت لا تُفارقها، وتقرأ فيها باستمرار.

لقد كان مَصِيرُ كُلِّ وَلَدٍ مُعلَّقًا بكأس، فإن كُسِرَت الكأس كُسِرَت حظوظُه في ادِّعاءِ البُنُوَّة لأبيه، لكنَّ الكأسَ تبقى كأسًا مهما كانت، فلا هي تُقَدَّمُ لِلمَلِكِ ولا تُؤَخَّرُ له، وإنَّما هي شَرطٌ في التَّرَشُّحِ فقط. كان أمرُ هذه

الكؤوس عجيبًا، إذ تحوَّلَ تقليدٌ كان يريد به المولى إسماعيلُ حِفظَ أولادِه من الاغتيال بالسُّمِّ، إلى دليلٍ على إثبات البُنُوَّةِ للسلطان. ثمَّ تحوَّلَ هذا التَّقليدُ إلى أن أصبحَ محطَّ عنايةِ مِمَّن كان في حوزَتِه، ومحطَّ أثَرَةٍ لمن ليس معه، ومحطَّ كَيدِ مِمَّن كان يريدُ إقصاءَ أحَدَ المرشحين لِتَوَلِّي السُّلطَة، إن بتكسيرِ الكأس أو محاولةِ دَسِّ شرابٍ مَسموم فيها. فإن حدث ذلك، انكشفتِ المؤامرةُ بانكسار الكأس.

تخيَّل أن يُصبحَ مصيرُك مُرتَهَنًا بكأس تحمِلُ اسمَك، فإن كُسِرَت فَقَدتَ بُنُوَّتَك لأبيك، وأضحَت حالَتُك المدَنِيَّة والشَّرعيَّةُ مُشرَّعَةً أمام كلِّ احتمال. وإن أردتَ إثباتَ بُنُوَّتِك مرَّةً أخرى لَزِمَك أن تُعِيدَ الكأس كما كانت، وقد فاتَك الأمرُ بانكسارها، فما العمل؟ إشكالٌ لا بدَّ للفقهاءِ العُدُولِ المتخصِّصين بإثبات النَّسَبِ من إيجادِ حلٍّ له، وإلَّا كَثُرَتِ الدَّعاوِي واختلَطَتِ الأنسابُ، وربَّما انقرضَت لِعَدَمِ وُجودِ الكؤوس. ولعلَّهُم يُفرِدُونَ لذلك بابًا في الفِقه يُسَمُّونَهُ «بابَ إثباتِ النَّسَب بكأسِ البِلَّورِ المنتخَب».

ثمَّ إنَّ الكأس وحدها لا تكفي، بل لابدَّ كذلك من إبراز الخاتم الذي سُلِّمَ يومَ الولادة، فكأنَّ الكأسَ والخاتمَ شهادةُ ميلاد لا بدَّ منها، فصارت هويةُ الأبناءِ معلَّقَةً على خاتم المعدِن وكأسِ البِلَّور. فَوا عجبًا لِأمرٍ كهذا؟ إذ كان الإخوة والأخوات بالمئات، فكيف التَّحَقُّقُ من زَعم هذا، وادِّعاء ذاك؟ وأرض اللَّه واسعة، فتخيَّلْ أن يذهب أيّ شخص يحمل كأسًا وخاتمًا ويدَّعِي أنَّه ابنُ السُّلطان الأعظم، فتنفتح له الأبواب، ويحصل على مختلف الامتيازات، بل لعلَّه، إن لم يتورَّع عن المحارم، يَسفِكُ الدِّماءَ ويفعلُ ما يشاء. ما أشرفَ النِّسبَةَ الطينيَّة التي غُلِّفَت بإثبات طبيعة زجاجيَّة؟ قد يقول قائلٌ: ليسَ بين الطين والرَّملِ بُعدٌ وفَرقٌ في الطبيعة، فإن صحَّ النَّسَبُ طينًا، فقد يَصِحُّ رَملًا، لكنَّه نسي أنَّ الرَّملَ وحده لا يكفي لإثبات النَّسَب، وإنَّما لا بدَّ له من نار تَصهَرُهُ حتَّى يتحوَّلَ إلى زجاج، ثمَّ بعد ذلك يُشَكَّلُ بالنَّفخ والتَّسويَّة في صورةٍ من صُوَرِ التمثيل كأسًا. ما أعجبَ أمرَ البَدو، فهم يشبهون رملَ صحاريهم وما يؤولُ إليه حين يُصهَرُ حرقًا فيتحَوَّل إلى زجاج لطيف شفَّاف، لكنَّه سريع الجرح، سريع الغضب، سريع الانكسار. وما أعجبَ أمرَ سُكَّانِ السُّهول، فهم يشبهون طينَ أراضيهم، لكن، لابدَّ لهم من الاحتراق حتَّى يتحوَّلوا إلى حمأ مسنون وصلصال مكنون لِتُبعَثَ فيهم الحياةُ.

أشغل مولاي إسماعيل الناسَ بهذه القضايا الوهميَّة حتَّى لا يقفوا على سِرِّ حماية أبنائه من الاغتيال بالسُّم، لكن كان عليه أن يترك الناس يتحدَّثون عن إثبات النَّسب بإبراز كأس الهوية. قد يحتاج المرء في بعض

الأحيان، كي يحمي سِرًا، إلى أن يخترعَ حكايةً تشغلُ الناسَ بقضايا تبدو عظيمة بينما هي تافهة في أصلها وحقيقتها.

كانت لالَّة خُناثَة تُراقِبُ ولدَها مُراقَبَةً صارِمَةً، وتُرضِعُهُ بنفسِها، ثمَّ إنَّها عَهِدَت به بعدَ ذلك إلى امرأةٍ مِن منطقة القِبلَة في الصَّحراء لإرضاعِهِ بعد أن استوثقَت منها. كانت تحضُنهُ كما تحضُنُ الدجاجةُ فَرخَها، وتَذُودُ عنه من كُلِّ خَطَر.

بدأ الطِّفلُ الصَّغِيرُ يَشِبُّ، وكان أبوه مُعجبًا به حتَّى أثارَ حَفِيظةَ سائر نسائِه وإخوته، لكنْ لم يَكُن في إمكانِ أحَدٍ أن يُظهِرَ هذه الأحاسيس أمام السُّلطان، وإلَّا فَتَك به.

نَما عَبدُ اللَّه وبدأ يَحفَظُ القرآنَ في كُتَّابِ القَصر. وعندما كان يعود إلى والدته كانت تَستَعرِضُ معه كلَّ ما حَفِظَه، فتقَدَّمَ على أقرانه بسرعة كبيرة. كانت والدته قد أظهرت له الكأس والخاتم، وكانت تحضُّهُ على أن يعتادَ الشُّربَ من كأسه وألّا يعدلَ عنها إلى غيرها إلَّا إن كانت كأسَ بِلَّور، وأكَّدَت عليه في ذلك. كان عبدُ اللَّه مُحِبًّا للخُيول مثلَ أبيهِ وأمِّه، ويُحِبُّ أن يتفَرَّجَ عليها، فيأخذه أحدُ عبيدِ الدَّار إلى «الزوَى»، وفيه قصرٌ يسمى «سَبع قِباب» لأنَّه كان على شكلِ مُسَبَّعٍ، كلُّ ركنٍ فيه قُبَّةٌ، وفي الوسَط قُبَّةٌ كُبرَى تُحيطُ بها القبابُ السبع، إحاطةَ الدَّائرةِ بالنُّقطَة. كانَ عبدُ اللَّه يُحِبُّ أن يتفرَّجَ على خيولِ والدِه العجيبة، وكان السُّلطان يَضَعُ في هذا القصر، مُهورَهُ المفضَّلَة التي كان يركبُها ويُؤثِرُها على غيرها، لكلِّ مُهرٍ قُبَّةٌ خاصَّة كأنَّه مَلِكٌ على مملكة تَضُمُّ أقاليمَ الأرض السَّبعة، أو الكواكب السَّبعة التي تشرق في جهاتها. ومن بين مهوره العجيبة، مُهرٌ اسمه «شمس الدين»، هو الكوكبُ الدُّرِّيُّ بين الدَّراري السَّبعة.

كما كان عبدُ اللَّه يحبُّ أن يتنزَّهَ مع والدَتِه في صِهريج السَّواني، حيث تسير الزَّوارق والفُلْك للنزهة، وفي جنان ابن حليمة حيث الطواويس البديعة تخطر في بهاء وخُيَلاء.

أسندَ مولاي إسماعيل إلى زوجته لالَّة خناثة، بعدما تميزَت في المشورة، مهمَّةً جليلة تَخُصُّ الإشرافَ على العلاقات بالدول، وافتكاكَ الأسرى والتَّفاوضَ في شأنهم، فزاد نفوذُها في الدولة، بعدما كانت تُظهِرُ دومًا لزوجها اهتمامَها بهذه المواضيع، إذ كانت تستعطفها أَسَرُ الأسارَى للتَّدَخُّلِ في افتكاك أبنائها وأقربائها. فلما اعتزم مولاي إسماعيل بَعثَ سفير له إلى الملك لويس الرابع عشر، أمرَهُ بأن يستشيرَ لالَّة خناثة في أمرِ الأسرَى. كانت هذه السَّفارة في سنة ١٦٩٩م، إذ بعث السُّلطانُ إلى الملكِ هدايا قيِّمة. وقد كان لويس الرابع عشر معجَبًا بالسُّلطان مولاي إسماعيل ومنجزاته

العظيمة في التشييد والعمارة واستتباب الأمن، واسترجاع كثير من الثغور التي كانت بأيدي منافسيه من ملوك الإسبان والبرتغال والإنكليز. لَمَحَ السَّفير الريس عبدُ اللّه بن عائشة السلاوي، في أثناء سفارته، في حفل راقص في القصر الملكيّ عند مونسنيور أورليان (Monseigneur d'Orléans)، أميرةً حسناء تدعى دُو كونتي (De Conti)، فسأل عنها، فقيل له إنَّها بنت الملك، فأسَرَّ في نفسه بأن يخبرَ السُّلطان مولاي إسماعيل عن هذه الأميرة، ويُرَغِّبَهُ في طلبِ يدها من الملك. كان السَّفير مُفَوَّضًا من مولاي إسماعيل لتمتين العلاقات بفرنسا، ورأى أنَّ زواج مولاي إسماعيل يُسَهِّلُ بلوغَ هذا الهدف. وتفاديًا لكلّ ما من شأنه أن يُفسِدَ علاقةَ البلدين في حال رَفضِ الطلب، فقد انتظرَ السَّفيرُ حتَّى عودتِه ليخبرَ السُّلطان، ويقدِّمَ تقريرَه المفصَّلَ عن تلك السِّفارة.

لمَّا عاد السفير ابن عائشة إلى المغرب، أطلعَ السُّلطانَ على الأمر، وأخبره عن نجاحه في مهمَّته، وتمكُّنِه من الاتِّفاق على تمتين العلاقات بين البلدين، وتبادل الأسرى، وافتداء جملة منهم. وحتَّى يقنع السُّلطان بقضية الزواج من ابنة الملك، فقد توسَّل للوصول إلى هذا الموضوع بالحديث عن بعض مُناوَراتِه العَجيبة في قَصر المَلِك في فِرساي، وقَصَّ عليه ما جرى بينه وبين سَيِّدَةٍ من نبيلات المجتمَع المخمَليّ الفرنسيّ لما سألته عن سِرّ زواج الرِّجالِ في بلاده بِعِدَّةِ نساء، وكيف تخلَّصَ السَّفيرُ الظَّرِيفُ من سُؤالها بتغزُّلٍ نالَ إعجابَ الحاضرين، وألجَمَ كبرياءَها في طَيّ الثَّناء عليها، لَمَّا قال لها: «إنَّ الرجلَ مِنَّا يتزَوَّجُ من عِدَّةِ نِساءٍ كَي يَجِدَ في مجموع نسائه بعضَ ما يجِدُه عِندَ امرأة فرنسية مثلك، يا سيدتي». ضحك السُّلطانُ من حكاية سفيره ودهائه، وتعجَّبَ من مجتمع النَّصارَى الذي يَسمَحُ للنِّساءِ بالزَّهو على الرجال، وعَرضِهِنَّ كنوادِرِ البَهائم الوَدِيعَة، أمام الغُرباء والأجانِب من دون خَشيَةٍ ولا حِشمَة. ولما انبسط السُّلطان من حكايات السَّفير، خلص هذا الأخير إلى ذكر الأميرة الحسناء، ابنةِ الملك لويس الرابع عشر، ورغَّب السُّلطان في الزواج بها.

أمر مولاي إسماعيل من السَّفير أن يكتبَ رسالةً إلى الملك لويس الرابع عشر يطلبُ فيها يدَ ابنتِه، ماذوموازِيل دُو بلوا (الأميرة دو كونتي)، كما دعاه إلى الدُّخول في دين الإسلام.

وصلت الرسَّالة إلى مستشار الملك السيد بونشارتران (Monsieur de Ponchartrain) مع هدايا قيِّمة من السُّلطان مولاي إسماعيل، ومنها جوادُه الأصيل «شمس الدين». أطلَعَ المستشارُ الملكَ على رسالة المولى إسماعيل التي يطلبُ فيها المصاهرةَ مع الجالس على عرش فرنسا. تحرَّجَ

الملك في الرَّدّ، وعرض الأمرَ على مستشاريه فنصحوه بتجاهل الطَّلَب تجنُّبًا لمعارضة الكنيسة، وعدَمِ مُوافقتها على إمضاء الزِّيجَة بين السُلطان المسلِم والأميرة المسيحيَّة، لكنَّ الملك طلب من المستشار أن يكتب رسالة جوابيَّة يشكر فيها السُلطان على الهدايا القيِّمة التي بعثها. وفيما يخصّ الزواج من ابنته، طلب أن يُبلِغَهُ بأنَّ الاختلاف الدّيني يجعل هذا الزواج أمرًا صعبًا، ويرجو أن يقبل اعتذاره.

أعجِبَ لويس الرابع عشر بالحِصان العربيّ الأصيل، واستولدَهُ من أحسن أفراسِهم في الإسطبلات الملوكيَّة الفرنسيَّة، فتناسَلَت سلالة الخيول العربيَّة الأصيلة عندهم من نسله.

كانت الأميرة ذو كُونتِي مَحَطَّ نظر المجتمع المخمَلِي في كلّ أوروبا، وتقدَّم لخطبتها ابنُ ملك بولونيا، ووليُّ عهد الدنمارك، وذُوق باريس، وذُوق جِنوَة، لكنَّها ردَّت كلَّ هذه الطلبات، ولم يكن في مقدور الملك لويس الرابع عشر أن يُزَوِّجَها ملكًا مسلمًا حتَّى لا تَحنَقَ عليه الكنيسة الكاثوليكيَّة. ولأنَّ مثلَ هذه الأخبار لا تبقى طويلًا طَيَّ الكتمان، فإنَّها بلغَت مسامع الشعراء في فرنسا، فَتَبارَوا في التَّغَزُّل بالأميرة وامتداحِها، حتَّى قال الشاعر الفرنسيّ جون باتيس روسو:

«جمالُك أميرتي العظيمة
يرسل سهامًا جريحة
بلغت أقاصي البلادِ البادية.
أفريقيا لجمالك خاضعة
ولفتوحات لحاظِ عينيكِ غاوية
وَصَلَت أبعَدَ من فتوحات هرقل الواسعَة»[1]

***

كان مولاي إسماعيل مُنهَمِكًا طوال الوقت في البناء والتَّشييد بفضل النشاط التجاريّ الكثيف، وتزايُدِ مَداخِيلِ افتِداءِ الأسارى الأوروبيِّين الذين كان يأسرهم في معاركه في البَرّ والبحر. أصبحَت مكناسَةُ مدينةً سلطانيَّةً لا نَظيرَ لها من حيث العظمةُ والعُمران الجماليّ بين الحواضر العالميَّة، إذ فيها جوامع وقصور ومدارس وقَصَبات وحدائق وبساتين وحمَّامات وإسطبلات وقناطر وأبواب عظيمة ومخازن وسيعة وصهاريج مائيَّة. كان سجن قارَه تحت الأرض يَسَعُ الآلاف من المساجين، وفيهم كثير من الأوروبيِّين، قراصنة، وقساوسة، لكنَّه سَمَحَ بفتح عيادة يسهر عليها أربعة من القساوسة وطبيب نصرانيّ لتطبيب أبناء ملّتهم وعلاجهم. ومَن دَخَلَهُ لا يَضمَن أن يَخرُجَ منه إلى يوم الحشر. كما في السجن كثير من أهل

الدَّعارَةِ والإجرام. كان السُلطان يستعملُ هؤلاء في البناء والتَّشييد، ولا يستنكفُ أن يَحمِلَ الطُوبَ بنفسه، ليساعدَ في البناء، كما كان يراقبُ شخصيًا سَيرَ الأعمال، ويراجعُ البنَّائين إذا لم يُوافِق على شيء. كان أغلبُ من يشتغل في هذه المشاريع من هؤلاء المساجين الذين يخرجون طوال النهار للعمل، ثمَّ يعودون إلى السَجن لقضاء اللَّيل.

كان للسُلطان أيضًا إسطبلٌ سلطانيٌ مُسَقَّفٌ يُعرَف بقصر الخيل، مَربوطة فيه اثنا عشر ألف فرس. كما بنى في كلّ أنحاء البلاد عدَّةَ قِلاعٍ وقَصَباتٍ، بلغَت سِتًّا وسَبعِينَ قَصَبَة. كانت هذه القلاع أو القصابي في مواضع إستراتيجيَّة من الإيالَةِ الشريفة، وتفصل بين كلّ قلعة وأخرى مسافةُ يوم من المشي.

أمَّا الأبراجُ التي شَيَّدَها، فكانت كثيرةً، سواءً في مكناسة أو في غيرها من المدن والحواضر. لقد عَرَفَ عَهدُ مولاي إسماعيل نهضةً حضاريَّة لا مثيلَ لها في تاريخ الدول. بنى المدارسَ والجوامعَ والسَّقَّايات والحدائق الغَنَّاء والقناطرَ العجيبة. واعتنى مولاي إسماعيل أيضًا بالعلم والعلماء، وشيَّد المدارسَ العلميَّة، والعسكريَّة الخاصَّة بالفِرَقِ المكوِّنَة لجيوشه المختلفة، سواء منها جيش عبيد البخاري، أو جيش الوداية المكوَّن من عدة وحدات من المغافرة، وأهل سوس، وأهل الريف، وجيش الرُّماة الطُّبجِيَّة، المكلّفين بالمدافع والمجانيق والكُور والقنابل وآلات الحصار. كما نزع السلاحَ من أيدي القبائل المتقاتلة، فَعَمَّ الأمنُ والرخاء.

***

بدأ الأمير مولاي عبد اللّـه يَشِبُّ، وكان مُعجَبًا بفنون الفروسيَّة، ويجالسُ بعضَ قُوَّادِ الجيشِ المغافري، لأنَّهم أخوالُه، بينما كان أخوهُ مولاي زيدان ومولاي أحمد قَرِيبَين من قادةِ جَيشِ عبيد البخاري. كان عبدُ اللّـه محبًا لقَصَصِ الفروسيَّة، ويقرأ الكتبَ التي انتسَخَها مولاي إسماعيل لجيوشِه، وقرَّرها في برامج التَّعليم في المدارس العسكريَّة، ومنها كُتُب العَنتَرِيَّة والفِداوِيَّة والأزَلِيَّة لسيف بنِ ذي يَزَن، والظاهر بيبرس، والتي كانت مُوَزَّعَةً بأعداد كبيرة على كلّ القِلاع العسكريَّة، وذلك قَصدَ تَحمِيسِ الجُيُوشِ، وبَثِّ رُوحِ الشَّجاعَة والإقدام في نُفوسِ الجند. وكثيرًا ما كان بعضُ قادةِ الجيوش يَحكُونَ له عن والده مولاي إسماعيل، ويُسِرُّونَ إليه تعريضًا أو تلميحًا، بأنَّه يَملِكُ خاتمَ سليمان، وإلَّا لما كانَ في إمكانِه أن يملِك ما مَلَك، ويَرُوضَ كُلَّ هذه الجيوش العظيمة، ويبني هذه البنايات الفَخِيمة، والأبراج العظيمة، والقِلاع الحَصِينَة، والقصور البديعة، والقناطر الفَسيحة، ويملأ المخازن، ويَتَّخِذَ الخيول بمئات الآلاف. كانوا يتحدَّثُونَ عن ذلك بسَذاجة

الأطفال، ويرتاعون من جَرَيانِ اسمِ سَيِّدِهِم على اللِّسان. كانوا مُقتنعينَ بأنَّه يملكُ خاتَمَ سليمان، الذي يَحكُمُ به أُمَمَ الإنسِ والجان. وقد شاعَت هذه الحكاياتُ في القِلاع وقصبات الجيوش، وَذاعَت، ولم يعمل مولاي إسماعيلُ على تكذيبِها حتى يتركَ شعورَ الرَّهبَةِ في نفوس رجاله، ويُقِيمَهُم في الطَّاعة والوَلاء. ومنهم من جازف بإيذاع السِّرِّ المكتوم، فَأَسَرَّ إليه بأنَّ السُّلطان كان دائمًا يضع الخاتم في أُصبُعِه، وحينما يَخلُدُ إلى النوم، فإنَّه يحفَظُه في مَكانٍ سِري في المدينة السُّلطانيَّة، لا يعرفه إلَّا السُّلطان، وأن صُلَحاءَ الجِنِّ تحرُسُهُ داخلَ القَصَبَة الإسماعيليَّة، وله خُدَّام. كانت هذه الحكاياتُ تُثِيرَ حماسة الوَلَد، وتَبعَثُ فيه الزَّهو، وتَشحَذُ خَيالَهُ لِمَزِيدِ تَخَيُّل، ويتمَنَّى بُلوغَ اليَومِ الذي سَيَمتَلِكُ فِيهِ الخاتَمَ السُّليماني. كان يُقَلِّبُ خاتَمَهُ، الذي أهداه إيَّاه والده، في يده بعدما سلَّمته إليه أمُّه، ويحاول أن يستدعي خُدَّامَه، لكن لم يكن يحضر أمامَه أحدٌ سوى خُدَّامُ أحلامِه المتلاشية. كانت لالَّة خناثة تحلُم دومًا ببلوغ هدفها، وصار هذا الهدفُ مُعَلَّقًا اليومَ بتحقيق هدف آخر هو وصولُ ابنِها إلى سُدَّةِ الحُكم. فهل يا تُرَى سَيَتظافَرُ الهدَفان ويَتَّحِدان لِبُلُوغِ المَرام؟

كانت قَدَما عبدِ اللَّه صغيرتين مثلَ قَدَمَي الأطفال، وكان هذا يسبِّبُ له إزعاجًا كبيرًا، ولاسيَّما أن أحدَ قُوَّادِ العبيد كان يُغَيِّرُه بذلك، ويُسَمِّيه «عبدَ اللَّه بُوسبِيبِيط» (ذا الحذاء الصغير). بل كان يتجَرَّأُ عليه بشَتَّى أنواع التَّجَرُّؤ. وأخذ مرَّةً لجامَ فرسِ الأمير يختبرُ متانةَ ركوبِه ويُظهِر له قوَّتَهُ العَضَلِيَة، حتَّى أسقطه عن ظهر الفرس ثمَّ نَهَرَه وقال له: ابتعد من هنا، فأنت طفل صغير. فتألَّمَ كثيرًا لهذا الإذلال فارتقى إلى ربوة وأخذ يبكي طويلًا حتَّى كادت دموعه تنزلُ دَمًا. أقسمَ يومَها بأن ينتقِمَنَّ من هذا العبد الذي حَقَّرَه، فمن يَظُنُّ نفسَه؟ أنَسِيَ أنَّه أمير وأنَّه ابن السُّلطان مولاي إسماعيل؟ كتم غيظه في نفسه، وبقي يَكبُر معه، وينتظر أن يَظفَرَ يومًا بذلك العبد حتى يؤدِّبَهُ ليعلَمَ مَن هو «بُوسبِيبِيط».

كانت خناثة، في مرَّات أخرى، تطلب من ولدها أن يرافِقَها لزيارة بعض الأولياء في مكناسة، فكان يصاحبها، فيحضر حصَّة من المديح والسماع. ومن بين ما كان يُطربُه تواشيحُ أبي الحسن الششتري وأزجالُه التي كانت تُنشَدُ في الزوايا، ومنها قوله:

«شُوَيخ مِن أرضِ مَكناس وسط الأسواق يغني

آش عليَّا من الناس واش على النَّاس مني»

ثمَّ كان يسمع في الزوايا قصصًا أخرى عن والده غير تلك التي كان

يسمعها من قوّاد الجيوش وعبيد الدار. كان صلحاء مكناسة يُخبِرُونَه بأنَّ مولاي إسماعيل وَلِيٌّ مِن أولياء اللّـه الكِبار، فكان الفتى يسارع إلى مساءلتهم عن دلائل ولايته، فيخبرونه بأنَّها كثيرة، ومنها ما هو عن طريق الكشف، ومنها ما هو مُشاهَدٌ لِلعِيان. ومن ذلك، أنَّه حرَّر السَّواحل، وهذه النُّصرَةُ لا يمنحُها اللّـه إلَّا لأنبيائه وأوليائه. كما أنَّه سلطانٌ مجاهِد، وهذه أيضًا من علامات ولايته. ومن الكشف، أنَّ اللّـهَ اختَصَّهُ بطولِ العُمر، وطولِ المُلك، وكَثرةِ العِمارة والبناء.

لما سمع عبدُ اللّـه عن طول مُلكِ والده من هؤلاء الصلحاء، تَلَبَّدَت في ذِهنِهِ الأفكار، وسارعَت إلى نفسِه الوساوِس، إذ بَدَت له فُرَص وُصُولِه إلى حكم البلادِ عَديمةً متعَذِّرَة. وما لبث أن قال عن والده «هل هو الحيّ الدّايم؟»، لكنَّه سرعان ما استغفر اللّـه، وأعرضَ عن هذه الخواطر النفسانيّة، حتّى يسمَع سائر دلائل ولاية والدِه، فأخبروه بأنَّ من علاماتها، حفظَه كتابَ اللّـه، ومحافظَتَه على الشرائع، وأنَّه لم يَشرَب قَطُّ خمرًا.

وذكروا له أنَّ الأخبارَ المبشِّرة بولايته قد شاعَت قبل ولادته، بحيث ذُكِرَ أنَّ «مَلِكًا اسمُه إسماعيل يُمَهِّدُ المغربَ كُلَّهُ، ويَدِينُ لَهُ السَّهلُ والجَبَل»، لِما سَبَقَ له من العِنايَة في الأزَل. «وإنَّ وجودَ مولانا إسماعيل أمانٌ من الغَلاء، وسَبَبٌ في الخِصبِ والرَّخاء، لأنَّ المَلَك الذي ببابِ السَّماءِ الدُّنيا يقالُ له إسماعيل، كما ذكره السّيوطي وغيرُه، أدام اللّـه وُجودَه، ونصرَ جنودَه». كان الولدُ يَزهُو بأخبار والده التي تتأرجَحُ عند الناسِ بين ولاية الظاهر وولاية الباطن، أو الولاية على الإنس، والولاية على الجنّ. وهكذا، سارت الأخبارُ خلفَ الأسوار، يَحكيها أهلُ الولاية، وأصحابُ الأسمار، بين مُكثِرٍ مُمِلٍّ، وَمُقِلٍّ مُجحِف، ومُنصِفٍ مُتَوَقِّف، لكنَّهم أطبقوا على أنَّ والدَه الجليل، مولايَ الشريفَ بنَ علي، رُزِقَ بولده مولاي إسماعيل، كما رُزِق الخليلُ عليه السلامُ بإسماعيل، مصداقًا لقوله تعالى }الحَمدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الكِبَرِ إسماعِيلَ{. ثمَّ قال له أحدُ الصالحين من أهل المكاشفة، ممَّن زارَه مع والدته «ما رأيتُ وليًّا من أولياءِ الوقتِ إلَّا ونفسُه تميلُ لِجَنابِ مولانا نصره اللّـه، وذلك لأنَّ أنفاسَ النبيّ [redacted]، دائِرَةٌ معه». ويكفي ما استَحدَثَ مِنَ البِناءات الباهِرَةِ المُبهِرَة التي لم يَأتِ بِمِثلِها زَمانٌ، ثمَّ أخَذَتهُ أريَحِيَّةٌ، فأنشد:

«أمَكناسَةُ إني لِرُؤياكِ آمِل ... وَإن عاقَنِي شُغلٌ مِنَ الدَّهرِ شاغِلُ

فأنتِ التي حُزتِ المفاخِرَ كُلَّها ... ومِنكِ تَفَشَّت في البلادِ الفَضائلُ

إذا افتخَرَت مُرّاكُشُ بِبَدِيـعِهـا ففي القُبّةِ الخَضرا تَضِيقُ الأقاوِلُ

وَإن ذُكِرَت مِصرُ بِجـامِعِ أزهَر فَفِي جامِع الخَضرا بُـدورٌ كَوامِـلُ

للهِ الفَخرُ يا مكناسة قد حَوَيتِه كـأنَّكِ بـحـرٌ والـبــلادُ جـداولُ»

بنى قصرَ البديع في مراكش السلطانُ أحمد الذهبيّ، كبيرُ سلاطين الدولة السَّعدية سنة ١٠٠٢هـ. وفي سنة ١١١٩هـ، قام مولاي إسماعيل بهدمه وأخذ أعمدَتِه وأجفانِه وعَجائبه الكثيرة، واستعملها في قصوره العديدة في مملكته، ولاسيَّما في مكناسة. فوا عجبًا لهذا القصر الذي صمد 117 سنة على عدد اسمه «البديع»، بحساب الجُمَّل.

***

كان مولاي إسماعيل قد أرسل قبل سنوات، بعضَ أولادِه الكبار خلفاءَ عنه في نواحي إيالتِه الشريفة، وزوَّدهم بالجنود والمال، فَوَلَّى ابنَه أحمد على تادلة وأنزله قصبتها، وعبدَ الملك على درعة، وأنزله قصبتها، وعقد لابنه المأمون الكبير على سجلماسة بعدما نقله من مراكش، وأنزله في قصبة تِيزِيمِي. ثمَّ لم يلبَث أن توفي هذا الابنُ فعَيَّنَ مكانَه أخاه المولى يوسف. وعيَّنَ المولى محمّد العالم على إقليم سوس، وقد هزمه بعد هذا التَّعيين بخمس سنوات، أخوه مولاي زيدان، الذي وَلاَّه أبوه على الشرق ليحاربَ الأتراكَ حتَّى أجلاهم عن تلمسان، ومولاي المأمون على سجلماسة. أما عبدُ اللّـه فكان صغيرًا وقتَها، ولم يظفر بأيّ منطقةٍ من هذه المناطق. كانت والدتُه تنتظر أن يكبرَ حتَّى تُفاوِضَ من أجل إقناع والدِه بتوليتِه على إحدى المناطق، لكنَّها كانت تطمحُ إلى أكثرَ من ذلك، فاستغلَّت بقاءَه في مكناسة لتكسِبَ الولاءَ له. ثمَّ عملت على تزويجه، وأسكنَتهُ في أحد القصور في مكناسة. ثمَّ لم يلبَث أن أنجبت زوجتُه ولدين، سمَّى البِكرَ مولاي أحمد، وسمَّى الثاني سيدي محمّد.

كانت سعادةُ خناثةَ غامرةً لكونها أصبحت جدَّة، وتضاعفت حظوظُها كما همومها في التَّمكين لولدها وحفيدَيها في أجهزة الدولة.

ارتأت أن تسافرَ إلى مدينة فاس برفقةَ ولدها عبد اللّـه وحفيديها، لزيارة مولاي إدريس الأزهر، مؤسِّس مدينة فاس. وكان مَقامُه مُعظَّمًا لدى ملوكِ المغرب وأهلِه، فأذن لها زوجُها.

خرجت لالَّة خناثة من مكناسة، في ذي الحجّة من سنة ١١٣٢هـ/ ١٧٢٠م، وتركت غريماتها يُخَطِّطنَ داخلَ أسوارِ القصبة الإسماعيليَّة. كان مولاي إسماعيل قد أمر في بداية العام بتجديد ضريح مولاي إدريس الأكبر في زرهون، وقُبّة ولدِه مولاي إدريس الأزهر في فاس. وقد صادف وصولُ لالَّة

خناثة ووليدِها مولاي عبد اللّـه انتهاءَ الأشغال في ضريح مولاي إدريس الأزهر في فاس. كان وصولُهما آخرَ ذي الحجَّة. نزلت في دار الدبيبغ مع ابنِها وحفيدَيها. وكان في استقبالها كبارُ قُوَّادِ الوداية والعلماء والأشراف. وصلت إلى الضريح الإدريسي فاستقبلها الشرفاءُ الأدارسة بعد أن تمّ تجديدُه وبناءُ قُبّتِه وإعادةُ تسقيفِها، وتوسعةُ صحنِ المسجد. أنفقَت على الشرفاء مالًا عظيمًا، وأدّت حقَّ الزيارة مع مولاي عبد اللّـه والحفَدَة. وخرج الإمامُ وصَعِدَ المِنبَرَ، فقام المسمِّعُ يَسرُدُ حَديثَ الإنصات، الذي يرويه الإمامُ مالك عن أبي الزِّنادِ عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي اللّـه عنه قال، قال مولانا رسول اللّـه [redacted]: «إذا قلتَ لصاحِبِكَ أنصِت والإمامُ يَخطُبُ يَومَ الجُمُعَةِ فَقَد لَغَوتَ». لقد أصبحَ سرد حديث الإنصات مُقَرَّرًا قبلَ اثنتي عَشرَةَ سنةً خَلَت، في عموم مساجد المملكة الشريفة. وصلّت خناثة أوّلَ جمعة في مسجد المشهَد الإدريسي بعد انتهاء الإصلاحات.

اجتمعت خناثة بعد ذلك بكبار قوّاد جيش الوداية ممن يَدينون لها بالولاء، وحضر مولاي عبد اللّـه معها هذه اللّقاءات التي كانت بمثابة ترتيبات لترشيح ابنها مستقبلًا. أغدقَت على رؤسائِهم الأموالَ، وأخذت منهم العهدَ بأن ينصروا مولايَ عبد اللّـه حينما يتعيَّن ذلك. ثمَّ اجتمعت بالعلماءِ وكسبَت وُدَّ الجميع، وقامت بزيارةِ الصَّالحين في فاس، وقصدَت زاويةَ المَخفِيَّة للتَّرَحُّم على شيخِها أبي العباس أحمد بن محمد بن محمد ابن عبد اللّـه مَعَن الأندلسي، الذي كان معروفًا بالولاية والصلاح. ولقد سبق أنَّ كاتبه مولاي إسماعيل عن طريق وزيره أبي الربيع الزرهوني، سائلًا منه الدعاءَ والنُّصحَ فلم يُجِب عن رسالته، وتكرَّر منه هذا الأمرُ فرفَض حتَّى يَئِسَ منه السُّلطان، وكتب إليه كتابًا لم يَزِد على أن كرَّرَ فيه عبارةَ «يا سبحانَ اللّـه»، يُكنِي بها عن استِنكاره عدمَ رَدِّ الشيخ على طلباتِه المتكرِّرة مع أنَّ الشَّرع يحضّ على إجابَةِ مَن دَعا غَيرَه. نَقِمَ السُّلطان على الوزير الذي كان يُثنِي دومًا على أبي العباس ويرفَعُ من شأنه، ولم يُفلِح في استمالته إلى مولاي إسماعيل. وكاد السُّلطان يبطِشُ بالوزير، وهدَّده بالقتل والتَّعذيب إن لم يُقنِعِ الشَّيخَ بالرَّدِّ. ولم يَبقَ أمامَ الوزيرِ سوى استِعطافِ الشَّيخِ حتَّى يَرُدَّ على السُّلطان مخافةَ أن يَنالَهُ مَكروهٌ من جانب مولاي إسماعيل، فاستجاب الشَّيخُ وكتبَ كتابًا إليه قال فيه «مَنَعَنِي من الجواب خوفُ الفتنة، فمن توجَّهَت إليه السَّلاطين توجَّهَ إليه الناسُ من كُلِّ البِقاع، فإن كان طالبًا للدنيا فَتَنُوه عن دنياه، وإن كان طالبًا للآخِرة فَتَنُوهُ عن آخِرَتِه...».

ارتضى مولايَ إسماعيلُ هذا الجواب، وبلغَ الشَّيخُ من نفسِه منزلةً عظيمة وإجلالًا كبيرًا، واغتفَرَ لوزيره، وعلِم بأنَّ امتناعَ الشَّيخ من الجواب لم يكن بسبب معارضته له أو تَرَفُّعِه على وُلاةِ الأمور، وإنَّما كان بنِيَّةٍ صادقة من أجل الابتعاد عن كلِّ ما يَصرِفُهُ عن الدَّلالَةِ على اللَّـه.

صادفت لالَّة خناثة في زيارتها الزاويةَ المخفية، الشَّيخَ أحمدَ القادري، تلميذَ الشَّيخِ أبي العباس أحمد مَعَن، فصار يُحدِّثُها عن شيخِه وكراماته. ومن ذلك ما جرى للعلاّمة الحاج عبد السَلام جَسُوس الذي امتنع من الشَّهادة في قضية الحَراطِين حتَّى سُجِنَ وعُذِّب، ثمَّ قُتل على يَدِ القائد الرُّوسِي من رجال مولاي إسماعيل. وممَّا أخبر به القادري خناثة أنَّ الفقيهَ جَسُوس كان يُنكِرُ على الشَّيخِ سيدي محمد بن عبد اللَّـه مَعَن، والدِ أبي العباس، وشدَّد في النَّكير على تلميذِه سيدي قاسم الخصاصِي، وآذاه، فجاء أحمدُ مَعَن ذات يوم باكيًا إلى شيخِه قاسم الخصاصي، وذكر له أنَّ الفقيهَ عبد السَّلام جَسُوس يَطعَنُ في والدِه محمد مَعَن، الذي هو أستاذُ الشَّيخ قاسم الخصاصي، وقال له «يا سيدي، هذا الإنسانُ قد آذاكَ في نفسِك فَصَبِرتَ، والآن قد بلغَ أمرُه إلى سَبِّ الأمواتِ مِن أشياخِك»، في أوراق ألَّفَها عَنوَنَها «الرِّصاصَةُ المَطفِيَّة في أهلِ المَخفِيَة»، فقال الشيخُ قاسم الخصاصي لتلميذِه أحمدَ مَعَن «هَوِّنْ على نفسِك، فإنَّ إسماعيلَ يَفصِلُ بيننا وبينَه». وكان هذا الإخبارُ قبل ظهورِ أمرِ السُلطان مولاي إسماعيل، فلما ظهر، كان مِن قَدَرِ اللَّـهِ ما كانَ حتَّى قُبِضَ على الفقيه عبد السَلام جَسُوس في قضية امتناعِه من الإشهادِ في مسألةِ إجبارِ أهلِ فاسَ على تسليمِ الحَراطِينِ الذين كانوا في مُلكِهِم حتَّى يَدخُلوا في سِلكِ الجُندِيَّة. وقد رأى الشَّيخُ عبد السَّلام جَسُوس ألّا يُجبَرَ أهلُ فاس على التَّخَلِّي عن الحراطين الذين كانوا في مُلكِهِم، متعلِّلا بأنَّ هؤلاء أحرارٌ بخلاف المماليك الأرِقَّاء الذين يُجبَرُون. وقد وقَّعَ سائرُ العُلماء على الأمرِ باستثناءِ الفقيه جَسُوس، فامتُحِنَ واستُصفِيَت أموالُه، وسُجِنَ وعُذِّبَ حتَّى مات. وقد كان وراءَ محنَتِه القائدُ عبدُ اللَّـه الرَوسِيّ الملقَّب بـ «سَفَّاح العلماء»، ومحمد بن قاسم عليلّيش الذي كان مُشرفًا على جَمعِ كُلِّ حَراطِينِ المغرب. ولم يَتَّخِذ مولايَ إسماعيل قرارَ إجبارِ أهلِ فاس على تسليم مماليكِهِم وحَراطِينِهم كسائرِ أهلِ المغرب إلَّا بعدَ أن عقَدَ مناظرةً فقهيَّة في الموضوع، فتمَنَّعَ أهلُ فاسَ، بزعامةِ عبد السَّلام جَسُوس، عن تسليم حَراطينهم، فقام السُلطان مُغضَبًا من المناظرة، إلَّا أنَّ الفقيهَ جَسُوس مَسَكَ مولايَ إسماعيلَ من طَرَفِ ثوبه، وقال له مُوبِّخًا «اِجلِس

تَسمَعْ ما قالَ جَدُّك رسولُ اللّه »، فخرج، يا سيِّدتي، مولانا السُّلطانُ مُغضَبًا، ولَحِقَ به عِليلّيش وقال له «ما فَعلَ بك ذلك إلّا أنَّهُ حَديثُ عَهدٍ بالإسلام، وذلك منهُ كراهيةٌ فيك وفي جَدِّك»، ويشير بذلك إلى أُصولِ جَسُوس اليهوديَّة. وكانت هذه الواقعةُ مما عجّلَ بمحنةِ هذا العلّامة، رحمةُ اللّه عليه، وإن كان مولانا السُّلطان لم يرغَب في أن يَصِلَ الأمرُ إلى ما وصل إليه من تعذيبٍ وقَتلٍ، لكنَّ رجالَهُ تصَرَّفُوا واستَغلُّوا واقعةَ المناظرة وإمساكِ الشَّيخ بثوبِ السُّلطانِ حتَّى يُنَكِّلُوا بالرَّجُل الذي كان عالِمًا كبيرًا، إلّا أنَّه لم يكن له دِرايَةٌ بسياسَةِ العِلمِ، وبكيفية مُعامَلةِ الملوك، غفر اللّه للجميع.

كانت خناثة وعبدُ اللّه يسمعان بتمَعُّنٍ هذه الحادثة التي هَزَّت أركانَ العِلم في المغرب، وبدا لخناثةَ أنَّ أهلَ فاسَ ما زالوا حانِقينَ على السُّلطانِ ممَّا حدث، فأصَرَّت على إصلاح ما أفسدَه رجالُ زوجِها ببطشِهِم الزائد. كما أنَّها أدركَت أنَّ فاسَ، حاضِرةَ العلم والعلماء، لم تَرضَ بأن تَسرِقَ منها مَكناسَةُ الأضواءَ حينَ أصبحت حاضرةَ الدولة، وهذا ما زاد في تعميقِ الشَّرخِ بين أهلِ المدينتين حتَّى تحوَّلَ إلى منافسة صامتة بينهم. تفكَّرَت خُناثَةُ في أنَّ مثلَ هذه المنافسة يمكن أن تكون لمصلحة ابنِها لو أحسنَت تدبيرَ الخِلاف، بحيث تضمَنُ انحياشَ أهلِ فاسَ لنُصرَته إن هي أطمعتهم في تفضيل مدينتهم على منافستها، ما دام لها دالَّةٌ على أهلها لوجود جيش الوداية، الذي يَدينُ لها بالولاء في فاس، بينما يرابط جيش البخاري في مكناسة. وقد بدأت معالم التنافس تظهر بين الجيشين كما بين المدينتين. ولعل لمثلِ هذه التَّناقضات أن تتطوَّرَ لاحقًا لتصبحَ منافسةً غيرَ محمودةٍ بين الحاضرتين الكبيرتين، فاسَ ومكناسة، ومن ورائِهما بين الجيشين. كانت لالَّة خناثة تقرأ في هذه الوقائعِ الصغيرة العواقبَ والمآلات الوَخيمة التي يمكنُ أن تَنتُجَ منها، ولم يَغِب عنها أبدًا هَدفُها في أن يُصبحَ ابنُها السُّلطانَ بعد أبيه. كانت تريدُ أن تُمَكِّنَ له في هذه الحاضرة الفاسيّة باستمالة أهلِها بعد أن ضَمِنَت استمالةَ جيشِها بحُكمِ قرابة جنوده منها.

نادت لالَّة خناثَةُ على أحدِ رجالِها وسلَّمَته صُرَّةً فيها مَثاقيلُ ذهبيَّة حتَّى يُسَلِّمَها إلى أبناء جَسُوس، وقالت له: اذهب وسلِّم هذه الصُّرَّةَ إلى أبناءِ الفقيه جَسُوس، وقُل لهم إنَّها صِلَةٌ من ابنِها مولاي عبد اللّه. ذهب الرجلُ ثمَّ عاد وأخبر سيِّدَتَه بأنَّ أبناءَ الفقيه فَرِحُوا بالهدية وطلبوا من الخادم أن يُبَلِّغَ مولايَ عبد اللّه ووالدَتَه لالَّة خناثة شُكرَهُم ودعواتهم بكلِّ خير. كانت لالَّة خناثة تعلمُ بأنَّ خَبَرَ هذه الصِّلَة سيصل إلى جميعِ أهلِ فاس حتَّى

يَشِيعَ في كلّ مجلس، ويَتَحدَّثَ عنه الناس. كان هذا هو الهدف المرجوّ من الصُلة التي مسحَت بعضَ ما كان مِن بَطشِ رجالِ مولاي إسماعيل، فإنَّ يَدًا قَد تُؤذِي وتَقطَع، وتأتي يدٌ أخرى بعدَها لِتَحنُو وتَصِل، كما أنَّ يدًا قد تبطِش وأخرى تمسَح الدموع وتُواسِي.

بعد أن اطمأنَّت إلى تدبيرها في استمالَة أهلِ فاسَ من البيوتات الكبيرة، انجَرَّ الحديثُ مع القادري إلى رحلةِ الحَجّ التي قام بها مع شيخِه أحمدَ مَعَن. كان القادري أحرَصَ من لالّة خناثة على الحديث عن شيخِه في تلك الرحلة التي رافقه فيها سنة 1100هـ/1688م. قام الشَّيخُ أحمدُ القادري إلى خزانة الزاوية، وأخرجَ من بين الكُتبِ كتابًا سلَّمه إلى لالّة خناثة وقال لها: هذا الكتابُ هديةٌ مني إليك، وقد دَوَّنتُ فيه رحلةَ الحجِّ مع شيخي، وسمَّيتُه «نَسمَة الآسِ في الرّحلَة مع أبي العَبّاس».

أخذت لالّة خناثةُ الكتابَ وبدأت تتصفَّحُه، فَراقَها بيانُهُ وأسلوبُه، ثمَّ شكرَتِ الشَّيخَ القادري على هديَّتِه الثَّمينة، وقالت له: أرجو اللّـهَ أن يُكتَبَ لي أداءُ فريضةِ الحجّ.

فقال لها الشَّيخُ: سَتَحُجّينَ، بإذن اللّـه، يا مولاتي.

فرِحَت لالّة خناثةُ بهذه البِشارة، فتكلَّم ابنُها مولاي عبد اللّـه، وقال لها: إن كتَبَ اللّـهُ لي أن أتولّى المُلك، فسأرسِلُكِ على رأسِ رَكبِ الحاجِّ المغربيّ يا أمّاه.

ثمَّ حكى القادري للالة خناثة رحلةَ الحجّ المباركة التي قام بها مع شيخه ابن معن، فتأثَّرت وأخذها شوق عظيم، فقال لها القادري مُواسيًا: لقد أخبرنا بعض الصالحين خلال رحلتنا الحجيَّة بأنَّه قال «رأيت رسول اللّـه

في المنام فقلت: يا رسول اللّـه مَن تُحِبُّ من المجاورين؟ فقال: أحِبُّ المغاربةَ، والمسلمينَ من الهنود». فلعلَّ ذلك تأليفٌ لقلوبهم لكونهم يَقدُمُونَ مِن أقصى البلاد الإسلاميَّة، وشوقُهُم للوصول إلى بلاد الحرمين

عظيمٌ، وحُبُّهم للمصطفى عَديمُ النَّظير، والمشقَّةُ في وُصولهم أكبَرُ من غيرهم، وعلى قدر بَذلِ النَّفس يكونُ الجَزاء، فلهذا استَحقُّوا هذه المَزِيَة من دون غيرهم، وإلَّا فالمحبُّون كلُّهم سَواء مِن أيّ مكان وفدوا، بل لعل ظاعِنًا لم يَركَب قَطُّ، ولم يُبحِر، وليس له علم بالمراحل والسَّير، هو في عَينِ العين مُقيم، لا يَشبَعُ مِن تَكحِيلِ العين بِمرورِ الوِصال الدائم، ولا يَطرَفُ عن مُشاهدة الحِبّ خوف الحجاب.

زاد شوق خناثة لمّا سمعت القادري يردّد منام ذلك الرجل الصالح عن

حبّه للمتشوّقين إلى زيارته من أقاصي بلاد الإسلام.

ثمَّ قال القادري: لمّا خرجنا من المدينة المنوّرة في رحلة العودة، وأمضينا المولدَ في مصر، جاء كتابٌ من المغرب يخبرنا بأنَّ مولانا السُلطان إسماعيل بن الشريف الحسني، نصره اللّـه، قد استعاد مدينةَ العرائش التي قال فيها ملك الإسبان إنَّها وحدها تعدل كلَّ موانئ أفريقيا، فكان رجوعُها إلى المسلمين بشارةً عظيمة استَحَثَّتنا على العودة السريعة إلى بلادنا حتَّى ننعم بهذه المفخرة التي أدخلت البهجة العظيمة على الشَّيخ حتَّى كان وجهه يَبرُقُ من السُرور. وكان هذا اليومُ الذي وصَلَنا فيه هذا الخبرُ، موسِمًا من مواسم الخير الكبرى. كان السُلطان قد استردَّ مدينة العرائش في محرم من عام 1101هـ. ولم يمض على دعاء الشَّيخ في عرفات باستردادها شَهرٌ من الزمان حتَّى استجاب اللّـه له، فَرَجَعَت إلى المسلمين، وفرحوا بها.

تأثَّرَت لالّة خناثة بحديث الشَّيخ أحمد القادري، وغشيتها أحوال سَنِيَّة، وسألَت أخذَ وِردٍ تستعين به، فدلَّها القادري على وارثِ سِرّ الشَّيخ من أبنائه، سيدي محمّد العربيّ بن أحمد مَعَن، واتَّفَقَ أن وَصَلَ سيدي محمّد العربيّ إلى الزاوية مع صاحبه سيدي عَلِي الجَمَل، لمّا علم بوصول لالّة خناثة للزيارة، فقصدها للترحيب بها والسَّلام عليها، فاجتمعت به. كان سيدي محمّد العربيّ في حدود الأربعين من العمر. له أحوالٌ ربّانيَّة ظاهرة، ومواجيدُ عرفانيَّة باهرة. كان يلبس كساء فوق قشابيَّة من صوف أبيض. رأسه مُعَمَّمٌ بعمامة بيضاء عليها طرف كسائه. كان يبدو من هيئته تخريبٌ ظاهرٌ لِقَهرِ رُعوناتِ النَّفس، ومَنعِها من الشُفُوف. عليه «هيبةُ مَلِك وهِمَّة مَلَك». كانت تُطَوِّقُ عُنُقَهُ سُبحَةٌ عظيمة تجعلك تهابه من بعيد قبل أن يُبادئك بالحديث. كانت السُبحةُ شارةَ الولاية وحَبلَ الوصول، ولعلَّها تكون مِشنَقةَ الرؤوس لمن زاغَ عن حقيقة الذِّكر، أو أحجارًا تَدُكُّ هاماتِ كلّ مَتعُوس. فلا يبلغ المرءُ حقائقَ المواجيد حتَّى يقطعَ صفحة الجِيدِ بِسِرّ القرآن والذكر المجيد.

طلبَت منه أن يُلَقِّنَها الوِردَ، فقال لها: لقد اجتمع فينا البحران يا سيدتي.

فقالت له: ما البحران؟

فقال لها: إن شئتُ قلتُ بحرَ الشريعة، وبحرَ الحقيقة، وإن شئتُ قلت بحرَ القادري وبحرَ الشاذلي. وفينا اجتمعَت طريقتهما.

فقالت: ما سِرُّ الطريق؟

فقال: «ألّا يَغفلَ طالبُ الحقّ عن التَّشريف والتَّعظيم لمن ظهر بعضُ الفتح على يده؛ لأنَّ في التَّشريف والتَّعظيم للحُرمَة مفتاحًا عظيمًا لزيادة

الإمدادات والخيرات والأسرار والأنوار. فلا يَغفُلُ طالبُ الحقِّ عن هذا الباب».

فقالت: واللّهِ ما أتينا هذه الزاوية، ولا حاضرةَ فاس إلّا تعظيمًا لأولياء اللّـه.

فقال الشّيخ محمّد العربيّ: بورك فيك يا سيدتي، فأنت صاحبةُ الفضل، وإنّما كنتُ أُذَكّرُ نفسي.

ثمّ قالت له: يا سيّدي، لقد تحدّثتَ عن البحرين، بحرِ الشريعة وبحرِ الحقيقة، وإنّي أحيانًا أكون في المنام أرى أشياءَ، فإذا بها تتحقّق في الحِسّ بعد ذلك، فما معنى هذا؟

قال الشّيخ: يا سيّدتي، المَرائي من حضرة الخيال، وهو مَجمَعُ البحرين، بحرِ المعاني وبحرِ المحسوسات، ففي الخيال تتجسّد المعاني وتتكثّف، كما أنّه يُلَطّفُ المحسوسات. ألا ترينَ يا سيّدتي أنّ المرأة حينما يأتيها الوَحَم، يكون ذلك بقوّة التّخَيُّل، فيخرُجُ الولد على صورة ذلك التّخَيُّل.

فقالت: سيّدي الشّيخ، كيف لِقُوّةِ الخيال أن تعمَل في رَحِمِ المرأة؟

فقال الشّيخ: **الرّحم** محكوم عليه **بالحَجر والتحجير**، فلا يَحكُمُ بكلّ ما يريد، بل بما شُرِّعَ له. وحينما تأتي فترة الوَحَمِ للمرأة، فإنّ قوّةَ التّخَيُّل عندها ترتبط بمثالات ما في خزائن الجود، فيتَصَوَّرُ منها في خيالها وِفقَ ما قَدّرَ اللّـه أن يكون، ثمّ تتجسّد في قوالبَ حِسّيّة، فيخرُجُ الولَدُ على الصورة التي حدّثت من مثالات خزائن الجود.

كان الشّيخ يتكلّم بعلوم عالية وإشارات في التوحيد راقية، لم تَلُكْها الألسن، ولا مَضَغَتها الأضراس، ولا عرّجَت عليها الأقلام، وإنّما هي مَواهبُ لَدُنّيّة، وعلوم مُصطَفَوِيّة. أذعنَت لالّة خناثة لكلام الشّيخ المستنير، وأصابها من تلك النّفحات خيرٌ عظيم، وتذكّرَت أنّها لما حَبلَت بولدها عبد اللّـه كانت تستحضِر مسألةَ أن يُوَلّيهِ اللّـهُ السُلطانَ على البلاد، فارتاحت إلى هذا الأمر، وَوَقَرَ في قلبها يَقِينٌ ببلوغ ابنِها ما أملَت، لكنّها لم تُخبِر بما حاكته في صدرها وخاطَتهُ خَواطِرُها التي انتَشَأت عَقِبَ سماع كلام الشّيخ. سارعَت تطلُبُ منه أن يُلَقّنَها الوِردَ، فقال لها: وهل تُداومين على قراءة وِردٍ من القرآن وشَيءٍ من الحديث؟

فقالت: نعم، يا سيّدي، أقرأ جُزءًا في كُلّ يوم، كما أطالعُ في الجامع الصحيح للإمام إسماعيل البخاري. ثمّ أخرجتِ النسخة التي أهداها إيّاها المولى إسماعيل حينما رُزِقَت بولدها عبد اللّـه.

أخذ الشّيخ النسخة من خناثة، وصار ينظر فيها بإجلال وخضوع، وقبّلَها واشتَمّها، وأخذته حال عجيبة بملامسته لها ونظره إليها، فدمعت عيناه.

وبعد أن سُرِّيَ عنه قال لها: لقد حُزتِ خيرًا كثيرًا يا سيِّدتي بوجود هذه النُّسخة النادرة من الجامع الصَّحيح التي قرأها عياض على شيخه الصَّدَفِي، وهما من أجَلِّ حُفَّاظِ الأمة، مع ما فيها من الضبط والإتقان. وإنِّي سعيد بأنِّي رأيتُ هذه النسخة. ثمَّ توجَّهَ إلى القادري: خُذ وانظُر فيها يا أبا العباس.

أخذ أبو العباس أحمد القادري نسخةَ القاضي عياض التي انتسخها من أصل نسخة الصدفي، وقرأها عليه وصحَّحها، فقال القادري: لم نكن نحلم بأن نرى مثل هذه النسخة العجيبة، وإنِّي قد سمعت أنَّ نسخة الصدفي التي كانت محفوظة في خزانة القرويِّين قد اختفت، ولم يبق لدينا إلَّا نسخة موسى بن سعادة التي قرأها على صهره الصدفي وصحَّحَها عليه أكثر من ستِّين مرَّة حتَّى صارت الأصلَ المرجوع إليه. كما أنَّ الشَّيخ أبا المحاسن يوسف الفاسيَ، الملقَّب بغزاليِ عصره، والذي كان يسكن قريبًا من زاويتنا المخفيَة قبل مُضِيِّ قرن من الزمان، قد اعتمد على نسخة ابن سعادة المذكورة، ونَسَخَ نسخةً فيها من الضبط والإتقان ما لم يتمَّ في غيرها حتَّى سُمِّيَت «النسخة الشيخة[2]» التي يُرجَعُ إليها عند الخاصِّ والعامِّ. أمَّا نسخة عياض هذه المأخوذة من أصل نسخة الصَّدَفِي، فقد اعتمد عليهما ابنُ حَجَر العسقلانيِ في تأليف كتابه «فتح الباري في شرح صحيح البخاري». ويأبى اللَّـه إلَّا أن يجتمع في بلدنا هذا العلمُ الشريف في عهد مولانا أمير المؤمنين إسماعيل بن الشريف، فأنعِم بهذا الزمان الذي استظلَّتنا فيه سحائِبُه.

توجَّهت لالَّة خناثة إلى الشَّيخ محمَّد العربيِ، وقالت: بمَ تنصحني؟

قال لها: انتسِخي من هذا الأصل عدَّة نُسَخ ووزِّعيها قَدرَ ما تستطيعين حتَّى تَنشُرِي العِلمَ الشريف.

فقالت: سأفعل، بإذن اللَّـه. ثمَّ طلبَت منه مرَّة أخرى أن يُلَقِّنَها الوِرد؟

فقال لها: هل لكِ فيهِ حاجَة؟

فقالت: واللَّـه إنِّي لَفِي أشَدِّ الحاجة إلى حَبلٍ يُوصِلُنِي إلى المُراد.

فقال لها: نحن لا نُطعِمُ طعامَ حِكمَتِنا إلَّا لمن نجده في غاية الاحتياج إليه، وإلَّا فإنَّنا نُلازم الصَّمتَ والجُحودَ والإنكار. قال اللَّـه تعالى }إنما الصَّدَقاتُ لِلفُقَراءِ والمَساكِينِ{، فلا نُعطي طعام الحاجة إلَّا لأصحاب الحاجة من الفقراء والمساكين. وقال بعض العارفين «لو أتاني بدويٌ يبول على ساقيه لَوَصَلتُهُ إلى اللَّـه مِن حِينِهِ». وأنا أقول «لو أتاني يهوديٌ أو نصرانيٌ لَوَصَلتُهُ إلى اللَّـه مِن حِينِه».

ثمَّ لقَّنها الوِرد، ودعا لها بخير، فخرجت تحمل وِردَها في قلبِها كما تحمِلُ

الأمُّ رضيعَها، وتخشى عليه من أن يصيبه مكروه. كانت تحاذر ألّا يستودعَ قلبُها على مَعقودِ سِرَّة، فصارت تُرَدِّدُ ما سَمِعَت وَوَعَت من الشيخ حتى لا يَنفَلِتَ منها ذلك السِّرُّ، إذ للأسرارِ غَيرَةٌ أن تَحُلَّ في قلوبٍ غافِلَة، بل تُسارِعُ في الرِّواح إلى بلاد اللطافة حيث مُستَقَرُّ الأرواح.

لم تخرج لالّة خناثة من زاوية المخفية حتى ذهبت لزيارة الزاوية الفاسية في القلقليين في فاس، التي كان يدرس فيها المحدث الكبير أحمد ابن العربي بن سليمان.

استقبلها أبو القاسم بن سليمان أحسنَ استقبال، فحدَّثتهُ عن رغبتها في استعارة «النُّسخة الشّيخة» من صحيح البخاري التي آلت إلى العارف باللّـه، العلّامة سيدي عبد القادر الفاسيّ الذي كان يُدَرِّسُ فيها الحديثَ، وانتقلَت من بعده إلى مُلكية أحفاده، لكنه أخبرها بأنه اشتراها منهم، وأوقفها على عقبه وعقب الشيخ سيدي عبد القادر الفاسيّ في الزاوية لمن يتصَدَّرُ منهم لإقراء الحديث الشريف. فَهِمَت لالّة خناثة من كلام أبي القاسم ثَمَنًا خَفِيًّا عن تسليم «النُّسخة الشّيخة»، وكانت تعلم حِرصَ العلماء الربّانِيِين على هذه الذَّخائِر المنتَخَبة عديمة النَّظير، فوعَدَتهُ وَعدًا جازِمًا باستِعارتها ونَسخِها وإرجاعِها حالما تنتهي منها، فَرَضيَ بذلك. كما استعارت نسخةَ موسى بن سعادة المحفوظة في خزانة القرويّين. وبعد أن حَصَلَت لالّة خناثة على هذين العِلقَينِ النَّفِيسَين، زارت ضريح ابن العربي المعافِري بعدما سعت لدى زوجها مولاي إسماعيل في البناء على قبره الذي كاد يَندَرِسَ لإشاعة بعض الناس، منذ زمن أبي عنان المريني، أن المعافري كان يبغض آل البيت. وهي شناعة مكذوبة لا يجوز لمن كان من أمثاله أن تصدر منه. فلعل حاسدًا نشرها لخلاف بينهما. كما عيَّنَت على الضريح قارئًا يقرأ القرآن هناك براتب. ولا شك في أن خناثة من المغافرة، وابن العربي مِنَ المعافرة، وكلاهما من عرب قحطان. وقرَّرت بعد ذلك، مُغادرةَ فاس نحو مكناس بعد أن استَوفَت مآرِبَها.

***

كان مولاي إسماعيل قد تقدَّمَ في السِّنِّ، وبَدَأ يَتعَبُ، لكنه كان ماسكًا حُكمَ البلاد بحزم ورُشد، ولم يَقوَ أيُّ مُناوِئٍ على الثورة عليه، ويَئِسَ أولادُه من وصول دَورِهِم لِحُكمِ المغرب حتى شاعت بينهم تسميةُ والدِهم «الحيّ الدايم» كنايةً عن طولِ عُمره وطولِ مُلكِه. كانوا يُناوِرُونَ، كُلٌّ في جِهَتِه التي أوفَدَهُ إليها والدُه ليَحكُمَها عنه، وأُمَّهاتُهم مِن خَلفِهم يُشَجِّعنَهُم على تَوسِيعِ صَلاحياتهم ومناطق جِهاتهم على حِسابِ إخوتهم، ويَسعَينَ بما لهنَّ من مال ونفوذ في التَّمكين لهم. ومن أبرز هؤلاء نساء مولاي إسماعيل

الأربع، لالّة مباركة الرحمانية، والسيدة معزوزة، والسيدة عودة الدكالية، إضافة إلى خناثة.

عادت لالّة خناثة إلى فاس على غير الوجه التي ذهبَت به، فقد أصابتها رحمةُ المكان، وابتدأ تدبيرُها الذي كان يُفلِي عليها تَصرُّفاتِها في خِضَمِّ التَّنافُس مع سائر النساء يَخمُدُ، ويَحُلُّ مَحلَّهُ تَفويضُ التَّدبير لمالِك عَوالِمِ التَّقدير والتَّسطير. صارت تجتهد في وِردِها، وتَجِدُّ في مجاهداتها، وتُكثِرُ من الصَّدَقات، وتُسارع في أعمال البِرِّ والخير، وتَرحَمُ الفقراءَ والمساكين من ذوي الحاجة، كما سَمِعَت من الشَّيخ سيدي محمد العربي، ورأت أنَّها تشترك معهم في المرتبة نفسها، فلولا أنَّها كانت منهم لما آثرها الشَّيخُ بطعام الحاجة المعنويّ في الوِرد. كان التَّفكير في هذه القضيَّة دافعًا لها إلى التَّحَقُّق في معاني الرَّحمة في مختلف أوجُهِها. لقد كانت تَقصُرُ رَحمَتَها على ولدها الذي كانت ترى فيه مُحَقِّقَ آمالِها وأهدافِها. كانت دومًا تطمَحُ إلى أن تُصبِحَ سلطانةً، ثمَّ لمَّا بلغَت بعضَ أهدافها، بقي أن تضمَن لولدها كلَّ عوامل النجاح. وإذا هي تدرك فجأة أنَّ ما كانت تسعى إليه سرابٌ زائل، وظِلٌّ خادع. كانت هذه الأفكار تُناوِشُها حينًا بعد حين، ثمَّ تعود إلى سابِق عهدِها بعد أن تجدَ نفسَها في أتُونِ الصراعات الداخليَّة بين نسوة القصر، فتعودُ إلى التدبير كما يفهمه العَوامّ، لكنَّ شيئًا جديدًا بات يحضُر ويغيب في سلوكها العامّ، وهو التفويض وإسقاطُ التَّدبير. لم تستطع أن تصلَ إلى هذه المرتبة كلِّيَّةً، لكنَّها كانت تفعل ذلك وقتًا ثمَّ وقتًا، بحسب الطاقة. انصرفَت أيضًا إلى القيام بدورها مستشارةً لزوجها ووزيرةً له، وسفيرةً تكتب عنه الرَّسائل. ثمَّ وجَّهت عنايتها إلى تربية حفيدها سيدي محمد الذي ظهرت عليه مَخايِلُ النَّباهة، فكانت تُعلِّمه بنفسها وتقرأ معه القرآن والحديث والعلوم الشرعيَّة، ولقَّنته «دلائل الخيرات». كما حرِصَت على تكليف بعض العلماء بتأديبه وتعليمه. صار بين أهدافها الأولى أن تَحُجَّ، لكنَّ زوجَها لن يسمحَ لها بأن تسافر في الفيافي والقفار مهما يكن، لِخَوفِهِ عليها من غَوائل الطريق. وقد سبق أن أوفَدَ مولاي إسماعيل ولدَه أبا مروان للحجّ سنة تسع وعشرين ومئة وألف هجريَّة (1716م) فمات هناك، فأضربَت صَفحًا عن أن تطلبَ منه السَّماح لها حتَّى لا يَصُدَّها ويتغيَّرَ ما بينهما. وفي المقابل، فإنَّ سعيَها لبلوغ ولدِها الحكم بعد أبيه سيحقِّقُ لها هذا الهدف، فصار هدفُها الأوَّلُ متمثِّلًا في التَّمكين لولدها على رأس البلاد، مرتبطًا بهدف آخرَ من طبيعة مختلفة، هو الحجّ إلى بيت اللَّه الحرام. بدأت أشجار الزيتون التي غرسَتها تُعطِي نِتاجَها بعد سنوات قليلة من غرسها لجودة التُّراب والمناخ والماء في مكناسة، فكانت لالّة خناثة

تحرِص، تحتَ رعاية زوجها، على تَسفِيرِ كمِّيَّات كبيرة من زيت الحاضرة الإسماعيليَّة وتَغرِيبِها إلى الحرمين الشريفين للاستِصباح، مع رَكبِ الحاجِّ المغربي الذي يحمِل كلّ عام كمِّيَّات كبيرة من زيت الزيتون إلى الحرمين الشريفين وَقفًا عليهما، تُسَلَّمُ إلى الأشراف في الحجاز. ويُخصَّص جزءٌ من هذه الزيوت وأوقافها لمساجد الحاضرة المكناسيَّة، وروضةِ مولاي علي الشريف في سجلماسة، وضريحِ مولاي إدريس زرهون، وضريحِ أبي يَعزَى، وما سوى ذلك. كما كانت ترسِلُ كلّ سنة إضافة إلى ما يُرسِلُه مولاي إسماعيل في الصُّرَّة السُّلطانيَّة السَّنويَّة التي كانت تُوَزَّعُ على الأشراف والعلماء والصالحين والمجاورين والفُقرئين والمؤذِّنين، والقيِّمِين على الحرمين، وعلى كثير من بيوتات مكّة والمدينة المنوَّرة، فَيَعُمُّ نَوالُ المغربِ بلادَ الحرمين رَدًّا لبعض الدَّينِ الذي كان لهذه البقعة المباركة التي أشرق منها نورُ الهداية على العالمين. كانت هذه الصُّرَّةُ عنوانًا على البرور، وحقًّا من الحقوق التي يتوجَّب إرسالُها سنويًّا، ولم تكن مِنَّةً ولا مَدعاةً إلى الافتخار سوى من باب التَّحدُّثِ بالنِّعمة. وقد دأبَ أهلُ المغرب مِنَ الموسِرِينَ على إرسال خالص أموالهم وأوقافهم إلى بلاد الحرمين حتَّى كانت زُقاقاتُ بعض المدن الكبيرة في المغرب، ومنها مكناسة وفاس ومراكش، تحمل أسماءَ بلاد الحرمين، مثل زُقاق مكَّة في مكناسة، أو حوانيت النَّبيِ التي كانت تستقبل أوقاف الناس التي ترسَلُ إلى الحجاز، ولها أمثال في مدن أخرى.

من بين اهتمامات لالَّة خناثة، قيامُها بنَسخِ صحيح البخاري من النُّسخة التي كانت في حوزتها، عملًا بنصيحة الشَّيخ محمد العربيِ مَعَن. كان انتساخ الصحيح رائجًا بشكل كبير في المغرب بشكل لا مثيل له في البلاد الإسلاميَّة الأخرى بعد أن قرَّر المولى إسماعيل اتِّخاذَ جيشِ البخاري، بحيث أقسمَ على الولاء والعمل بما جاء في سُنَّةِ المصطفى الواردة في الجامع الصحيح للإمام البخاري. كلَّفَت لالَّة خناثة مجموعة من الفقهاء النُّسَّاخ الذين استقرُّوا في مكناسة، فعهِدَت إليهم بانتساخ عدَّةِ نُسَخٍ من «صحيح البخاري» باعتماد نسخة عياض عن الصدفي، ومقابلتها على نسخة ابن سعادة، و«النُّسخة الشَّيخَة». وقد كلَّفَت ابنَها مولاي عبد اللَّه بالإشراف على هذه العمليَّة. كان الفقهاء النُّسَّاخ يشتغلون كلّ يوم حتَّى أكملوا مجموعة من النُّسَخ. أرجعتِ بعد ذلك النسخ التي استعارتها وأرسلتها إلى فاس في الحفظ والصَّون، مرفقةً بهدايا نفيسة. كما استأذنَت من زوجها مولاي إسماعيل إقامةَ حفل دينيٍ بهذه المناسبة، فأذِنَ لها. وأرسلت في طلب العلماء والأشراف والصالحين وكِبار القُوَّاد للحضور إلى

مسجد القصبة في مكناسة مع بداية شهر المولد النّبويّ الشريف، وكلّفت ولدها بالإشراف على هذه العملية.

جاء المدعُوُونَ إلى مسجد القصبة في وقت كان مولاي إسماعيل غائبًا عن حاضرة مكناسة في إحدى جولاته لتفَقُّدِ أحوال مملكته. كان في استقبالهم مولاي عبد اللّه مع بعض رجال ثقته. رحّبَ بهم فدخلوا وأخذوا مكانهم من المجلس. كانت لالّة خناثة داخل مقصورة مع بعض النساء من أهل ثقتها، ترقُبُ ما يجري من خلال المُشرَبِيّات من دون أن يراها أحد. كان عبد اللّه جالسًا في صدر المجلس، وجلس العلماء والأشراف وأهل الفضل في الجهة المقابلة للأمير الذي توسّط المحراب. وجلس إلى يساره كلُّ رجالات الدولة، بينما جلس إلى يمينه الأعيانُ والضيوف. كان العود يَعبَقُ في الجامع، وتبدو سُحُبُهُ منتشرةً في الجوّ، فَتُضفي طابعًا عجيبًا على المكان. وكان أحد العبيد مُكلّفًا بالمباخر الفضّيّة العظيمة الموضوعة في وسط المجلس بين الحضور، فكلّما خَمَدَت سحابةُ مِبخَرَةٍ، جاء يخطر في وقار، لابِسًا فَرَجِيّةً بيضاءَ تُسمّى «الفَوقِيّة» لأنّها تُلبَسُ فَوقَ الثياب، حِيكَت من ثوب شَفيف يقال له «حَياتِي الصُندُوق»، التي كان يرتديها فوق قفطان بنفسجيّ بارد اللّون يقال له «قُوَيقِي مَفتوح». كان العبد متمنطِقًا بحقيبة صغيرة تدلّت معترضةً صدرَهُ من كتفه على جنبه الأيمن. كان يلبس عمامة بيضاء لُفّت على شاشية حمراء، الأمر الذي أعطاه شكلًا بديعًا. كان الوحيدَ المسموح له بأن يخطُرَ في هذا المجلس لمعالجة المباخر وتزويدها بقطع العُود كلّما كَفّ الدخان. وقبل بدء الدرس، جاء عبدان آخران في ثوبين مماثلين، إلّا أنّ ألوان قفطانيهما كانت مختلفة، فقد لبس حامل التمر قفطانًا وَردِيًّا، بينما لبس حامِلُ كؤوس الحليب قفطانًا بلونٍ أصفر يقال له «قَلب تُفّاحة». كان هؤلاء الثلاثة هم المسموح لهم بالخطور في هذه الأرجاء المَنيعة. وبعد أن تناول المدعوّون من الطَّبَقِ الفِضّي بضعَ تمرات لكلّ واحد، وكأسًا من الحليب مُنَسَّمًا بماء الزّهر من الصينيّة الفضّيّة، بدأ الدّرسُ.

عُهِدَ إلى أحد المحدّثِين الكبار افتتاحُ قراءة «الصّحيح»، فقرأ أوّلَ حديثٍ من كتاب «بدء الوحي»، فبدأ بِسَردِ السّنَد المتّصِل منه إلى أبي المحاسن الفاسيّ صاحبِ «النّسخة الشّيخة»، ثمّ منه إلى ابن سعادة عن الصدفي عن الباجي عن الهروي عن ثلاثة من الشُّيوخ هم المستملي، والسرخسي والكشميهني، عن الفِرَبرِي عن البخاريّ. فتكلّم في الحديث مَتنًا وسَنَدًا. وفتح مولاي عبد اللّه بعد ذلك نسخةَ «الصّحيح» التي كان والدُه قد أهداها إلى والدته عند ولادته، فأخذ يتصفّحُها، ثمّ توقّفَ عند

حديث «باب أخذِ صدقةِ الثّمر عند صِرامِ النّخيل وهل يُترَكُ الصَّبِيُّ فَيَمَسُّ تَمرَ الصَّدقة»، ثمَّ أخذ يسرُدُ الحديثَ «حدَّثنا عمرُ بنُ الحسن الأسدي قال، حدَّثنا أبي قال، حدَّثنا إبراهيم بنُ طَهمانَ عن محمد بنِ زياد عن أبي هريرة

قال، كان رسول اللّه يُوتَى بالثّمر عند صِرامِ النخل فيَجيءُ هذا بتمره، وهذا بتمره حتّى يصير عنده كومٌ من تمرٍ، فجعل الحَسَنُ والحُسَينُ يلعبان بذلك الثّمر فأخذ أحدُهما تمرةً فجعلها في فيه، فنظر إليه رسول

اللّه فأخرجها مِن فِيهِ، فقال: أما علمتَ أنَّ آلَ محمّدٍ لا يأكلونَ صدقَةً». طلب مولاي عبد اللّه من أحد العلماء أن يتكلّمَ في الحديث، فبدأ بما يتعلّق باللُّغة، وتَتَبَّعَ الألفاظَ الواردةَ في الحديث، فقال: «الصِّرامُ بكسر المهمَلة، القِطافُ وزنًا ومعنًى». وقد اشتمل هذا الباب على ترجمتين، أمّا الأولى فلها تعلُّقٌ بقوله تعالى: }وآتُوا حَقَّهُ يَومَ حصادِهِ{، واختلفوا في المراد بـ«الحقّ» فيها، فقال ابن عباس: هي الواجبة. أمّا الترجمة الثانية فربطها بالتّركِ إشارةً منه إلى أنَّ الصّبا، وإن كان مانعًا من توجيه الخطاب إلى الصّبيّ، فليس مانعًا من توجيه الخطاب إلى الوليّ بتأديبه وتعليمه. وأوردها بلفظ الاستفهام لاحتمال أن يكون النّهيُ خاصًّا بمن لا يَحِلُّ له تناوُلُ الصَّدَقَة.

سأل مولاي عبد اللّه عن هويّة الصّبيّ الذي تناول التمرة، فقال المحدّث: إنّه سيدنا الحسن، رضي اللّه عنه، وقد جاء في رواية شعبة، عن محمد بن زياد بلفظ: «فأخذ الحسن بن علي...».

ثمَّ سأل مولاي عبد اللّه المحدّثَ: ما المقصود بـ «الآل» في الحديث؟

فقال المحدث: اختُلِفَ يا مولايَ في آل النبي على أربعة أقوال: **فالقول الأوّل** قيل فيهم: هم الذين حُرِّمَت عليهم الصَّدَقة، وفيهم ثلاثة أقوال للعلماء، أحدها: أنّهم بنو هاشم، وبنو المطلب. والثاني: أنّهم بنو هاشم خاصّة، وهذا اختيار ابن القاسم من أصحاب مالك. والثالث: أنّهم بنو هاشم ومَن فَوقَهُم إلى غالب. فيدخل فيهم بنو مُطّلِب، وبنو أميّة، وبنو نوفل، ومَن فَوقَهُم إلى بني غالب. وهذا اختيار أشهب من أصحاب مالك.

والقول الثاني: أنَّ آلَ النبي هم ذريّته وأزواجُه خاصّة.

والقول الثالث: أن آلَهُ هم أتباعُه إلى يوم القيامة.

والقول الرّابع: أنَّ آلَهُ هم الأتقياء من أمّته.

ومضى المحدّثُ يناقش كلّ قول ويعزوه إلى قائله، وينتصر لاختياراته ويَرُدُّ على أقوال غيره. وخُتِمَ المجلس، بعد ذلك، بآخر حديثٍ من «الصحيح» «كلمتان خفيفتان على اللّسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن، سبحانَ اللّـه وبحمده، سبحان اللّـه العظيم»، ثمَّ الدعاء.

قام مولاي عبد اللّـه فجاء الحاضرون يُسَلِّمُونَ عليه. سَلَّمَ كلُّ عالِم من كبار العلماء نسخةً من النُّسخ التي انتُسِخَت، فَفَرِحُوا بها غايةَ الفرح. ثمَّ خرج الموكب. وَصَلَتِ الصّلاتُ المعهودة في مثل هذه المناسبات إلى أصحابها، لكنَّ لالّة خناثة ارتأت أن تدعو كبارَ قُوّادِ جَيشِ البخاري الذين حضروا الدّرسَ لموافاتها إلى القصر مع مولاي عبد اللّـه. كان القوّاد يسكنون في مدينة الرياض العنبري التي كانت مخصّصة لسكنى كبار رجالات الدولة من وزراء وكتّاب وقوّاد وغيرهم. دخلوا القصر السُّلطانيَ من باب الرُّخام، وسلكوا المَمشَى الأوسط، حتّى وصلوا إلى «قُبّة السّقّاية» فجاءهم بعضُ عبيد الدار من جهة «قبّة گناوَة» إلى اليسار، ورافقوهم داخل مَرافِق قصر المحنشة. كان أمامهم «دويرةُ النسر»، لكنّهم انعطفوا في الممشى إلى اليسار حتّى وصلوا إلى «رياض المحنشة»، فوصلوا إلى «قبّة البخاري». دخلوا باحترام وخضوع فوجدوا «صحيح البخاري» في وسط القبّة داخل صندوق مرصّع بنفائس الأحجار. تمتموا ببعض المناجيات إلى أن دخل عليهم مولاي عبد اللّـه مع أُمِّهِ لالّة خناثة. كان بين القوّاد الكبار، مَرجان الكبير قائدُ عبيدِ الدار، وصاحبُ بيوتِ الأموال. وكان تحت أوامره ألفان ومئتان من فتيان قصور السُّلطان، أو ما يسمّى «دار المخزن». تكلّمت لالّة خناثة بعد التّرحيب بهم وتسليمهم صِلاتِهِم، وذكّرَتهم بأنّها استأذَنَت من مولاي إسماعيل في عقد مجلس بشأن «صحيح البخاري» في شهر المولد احتفالًا بسنة المصطفى. كان في القبّة صندوقٌ ثانٍ ضخم الحجم. سارع مولاي عبد اللّـه إلى فتحه فبدت داخله نُسَخُ «صحيح البخاري» التي انتُسِخَت من نسخة عياض، ومقابلتها على نسخة ابن سعادة، و«النّسخة الشّيخة». أخذ مولاي عبد اللّـه يسلّم كلّ قائد من جيش البخاري نسخةً من «الجامع الصحيح»، فكانوا يتناولونها بخضوع ويُقبّلونها بضراعة، ويتلقّفونها بطرف ردائهم كما يفعلون حينما يريدون تقبيل يد السُّلطان، إذ لا يلمسونه بأيديهم، وإنّما يحجزون أكُفّهم عن ملامسة يده بطرف من ثوبهم. وكذلك فعلوا مع نسخة «صحيح البخاري»، فقد أخذوها بطرف من ثوب سلهامهم. طلبَت منهم لالّة خناثة، بعد أن

تسلّموا النُّسخ، أن يُقسِمُوا على اتباع سُنَّةِ المصطفى، والوفاء والولاء، كما فعلوا من قبل مع مولاي إسماعيل لمّا أراد تأسيس جيش البخاري. لم تُغَيّر لالّة خناثة في طبيعة القَسَم ولا صيغته، بل أبقَت عليه كما هو، وذكرَت لهم أنّهم يُجَدِّدُونَ عهدَهم كما فعلوا من قبلُ بعد أن حضروا خَتمَ الصَّحيح في الجامع الأعظم بمحضر العلماء والأشراف ورجالات الدولة. أقسم مولاي عبد اللّـه أوّلًا، وكرّر خلفه القُوّادُ القَسَم، ثمّ قُرئت الفاتحة والصلاة على النّبيّ والدُّعاء. طلبت لالّة خناثة منهم أن يُوَجّهوا نسخَهم إلى مَن تحتَ إمرَتِهم في القِلاع والقِصاب التي يُرابِطُ فيها جيشُ البخاري في كلّ بلاد المغرب حتّى تصل النُّسَخُ إلى كلّ جيش البخاري الذي وزّعه مولاي إسماعيل في القلاع التي بناها. عاهد القوّاد على الوفاء والولاء لمولاي إسماعيل وذرّيته. وشهِدوا على أنفسهم، بمحضر مولاي عبد اللّـه، بالإخلاص للدولة الشريفة.

خرجوا بعد ذلك كما دخلوا أوّلًا. انصرف القُوّادُ من القُبّة، وبقيت لالّة خناثة مع ولدها مولاي عبد اللّـه.

كانت جاريةٌ من جواري القصر تَستَرِقُ السّمع إلى ما يُقال خلف شُبّاكِ القُبّةِ الحديديّ. سألت لالّة خناثة مولاي عبد اللّـه قائلة: هل علمتَ السّبب الذي دفعني إلى استدعاء هؤلاء القُوّاد إلى قُبّةِ البخاري؟

فأجاب: نعم، من أجل تجديد العهد.

فقالت: صحيح، لكنّ الهدف أبعَدُ من مجرّد تجديد العهد يا ولدي.

فسألها مولاي عبد اللّـه بفضول ظاهر: وما سرّ ذلك؟

فقالت: إنّ والدَك لمّا أراد تقويةَ الدّولة أسّسَ جيشين عظيمين، هما جيش البخاري، وجيش الوداية. فالأوّل كما تعلم يضمّ العبيد والحراطين، والثاني يَضُمُّ قبائلَ عربٍ بني مَعقِل في الصّحراء.

فقال مولاي عبد اللّـه: أعرف كلّ هذا، فما الجديد؟

فقالت: إنّك تعلم بأنّ والدَك تزوّجني لتقوية علاقته بأهل الصحراء حتّى يعتمدَ عليهم في تشكيل جيشه، وهو ما حدث بالفعل، بحيث أصبح جيش الوداية أحد جناحَي الدولة العسكريّة. وهؤلاء يَدينون لي بالولاء للقرابة التي تربطني بهم. وقد استقرّوا في مدينة فاس، بينما مركز جيش البخاري من العبيد والحراطين في مَشرَع الرّمل في مكناسة. ويجب أن تعلم بأنّ كلّ واحدة من زوجات والدك تحرص على التّمكين لأولادها في دوائر الدولة. فَلَلا عائشة مباركة، رحمها اللّـه، كانت قد مَكّنَت لولدها مولاي زيدان، إلّا أن قَتَلَهُ والدُك بعد تمرّده عليه. وقد مَكّنَت لالّة عيشة بعد ذلك لأشقائه الآخرين بدعم من قوّاد جيش البخاري. ولقد بلغني من أحد

الرهبان[3] أنَّ والدك ربَّما يكون قد كتب وصيَّة بتولية أخيك مولاي أحمد وليًّا للعهد، وخلافتِه في المُلك بعد وفاته. كما قد ذكر لي بعضُ الخدم أنَّ لالَّة عيشة قد طلبت حين كانت على فراش الموت، من والدك، وعدًا بتولية ابنها مولاي أحمد وليًّا للعهد، فوعدها خيرًا، فأرجو ألَّا يكون قد نَصَّ على ذلك في وصيَّة سرِّيَّة. وقد استقصيت الأمر فلم أقف على هذه الوثيقة. ثمَّ إنَّها استحلفت بعض قادة عبيد البخاري، ومنهم سالم الدكالي، أن يُوالُوا أبناءها بعد مولاي إسماعيل، وينصروهم على سائر إخوتهم.

إنَّ زوجات والدك يحرصنَ اليوم على تولية أبنائهن، فكلّ واحدة تسعى كي يظفرَ ولدُها بعرش الإيالة السَّعيدة والسَّلطنة الشَّريفة. وكلّ إخوتك لهم سَنَدٌ عند هذا الفريق أو ذاك من رجالات الدولة، لكن أهمَّ شيء يجب أن تعلمَه هو أن يكونَ لك سَنَدٌ في الجيش. وكما ذكرتُ لك، فإنَّ ولاءَ جيش الوداية لي معروف، لكنِّي لا أضمَنُ ولاءَ جيش البخاري. وأعرف أنَّ ولاء جنوده كان للالَّة عيشة وأبنائها، وكذلك لبعض نساء مولاي إسماعيل وأولادهنَّ اليوم.

فقال مولاي عبد اللَّـه: ألهذا السَّبب استدعيتِهم اليوم للقَسَمِ على «صحيح البخاري» والولاء لي؟

فقالت لالَّة خناثة: أجل، إنَّ جيشَ الوداية مُستَقِرٌّ في فاس بعيدًا عن حضرة الملك في مكناسة، ويَلزَمُنا للتأثير في الأحداث أن يكون لنا سَنَدٌ هنا في مكناسة. لهذا أرَدتُ أن أضمَنَ ولاءَهُم ودَعمَهُم إن شاء اللَّـه حينما يأتي دورُكَ لِتَوَلِّي الحُكم. وليس هناك أفضل من أن نضمن ذلك الولاء بتطويقهم بالقَسَمِ على «صحيح البخاري» الذي كان السَّببَ في إنشاء هذا الجيش العظيم.

أخذ مولاي عبد اللَّـه يفكِّر في حكمة والدته وسَعَةِ رؤيتها، وأدرك فعلًا لماذا فوَّضَ إليها والدُه تدبيرَ عددٍ من الملفَّات الكبيرة في الدولة، واتَّخذَها وزيرةً ومستشارةً وسفيرةً عنه، بما لم يُعهَد مِثلُه من سائر نسائه. وأدرك أنَّ نُقطَةَ ضعفِه في حاضرة مكناسة التي لا يحظى فيها بمساندة جيش البخاري، بل إنَّ هذا الجيش يساند إخوتَه مولاي أحمد وعبد الملك والآخرين، فكان ترتيبُ هذا اللِّقاء بعد جَمعِ العلماء والأشراف وأخذِ العهد من قادة الجيش، فكرةً سديدةً لعلَّها تَضمَنُ حيادَ هؤلاء حين يُحَصحِصُ الحَقُّ، إن لم تجعلهُم يُؤيِّدونهُ في تَولِّي المُلك.

توجَّهت لالَّة خناثة نحو باب القبَّة مع مولاي عبد اللَّـه، فابتعدت الجارية عن مخبئها، وذهبت تُذيعُ ما سمعته لمن كلَّفها بالتَّجَسُّس على خناثة.

خرجَت لالَّة خناثة مع مولاي عبد اللَّـه من قبَّة البخاري، فَمرًّا قربَ بيت

المال، فقالت لالّة خناثة لولدها: يجب أن تستعين أيضًا بالمال لتكسِبَ وُدَّ الجيش. كما عليك أن تهيّئ الناس لتقَبُّلِ ولاية عهدك.

فقال مولاي عبد اللّه: وكيف ذلك؟

فقالت: أقترح عليك أن تَحضُرَ احتفالات سلطان الطلبة في فاس هذه السنة.

فقال عبد اللّه: ولماذا؟

فقالت: حتّى تُشرِفَ عليها، وتقَدّمَ الهدايا نيابة عن والدك مولاي إسماعيل.

فقال عبد اللّه: ومن سيُقنع مولاي إسماعيل بالأمر؟

فقالت خناثة: سأتولّى الأمر بنفسي، وسأقنعه بضرورة أن يُوكِلَ تسليم الهدايا إليك، ولا أظنّه سيمانع، إذ أصبح يفضّلُ البقاء في مكناسة.

فقال عبد اللّه: وما الهدف من حضوري احتفالات سلطان الطلبة؟

فقالت: لا بدّ من أن نضمن العلماء في صفّنا، إذ إنّ هذه الاحتفالات هي احتفال أوّلًا بالعلم والعلماء، ولهذا ينبغي لك أن تصرف الأموال على الناس، وتوزّع الهدايا، وتؤلّف القلوب عليك.

كان بيت المال بين «دويرة السبع» و«دويرة النصر». استمرّا في المشي، ومَرّا قُربَ «قُبّة السّقاية»، ثمّ مشى عبد اللّه مع أمّه حتّى وصلا إلى «عرصة لالّة». ودّعها، ثمّ خرج إلى داره.

***

كان أغلب إخوة مولاي عبد اللّه الكبار موزّعين على أقاليم المغرب نيابةً عن والدهم، وكان هذا في مصلحته حتّى يوسّعَ قاعدة حلفائه وأنصاره، لكن هذا لم يكن مضمونًا، إذ قد يجلب القرب العداوةَ أكثر ممّا يجلبها البُعد. ثمّ إنّ إخوته كانت لهم قواعد صلبة في المناطق التي يحكمونها، ولهم جيش تحت إمرتهم يُسَيّرُونَهُ إن أرادوا، لكنّه كان قريبًا من أخيه عبد الملك الذي كان ينوب عن والده في إقليم سوس. علمَت نساء مولاي إسماعيل بتدبير لالّة خناثة بعدما نقلَتِ الجارية التي كانت تتسَمّعُ إليهما في قُبّة البخاري، فحوى الحديثِ إلى غَريماتِها من سائر نساء مولاي إسماعيل. احتاطت كلُّ واحِدةٍ قَدرَ ما تستطيع لمعاكسة تلك الأهداف، وإفشالِ مشروع غريمتها. أصبح لِخُناثة نظرٌ في بيتِ المال بالتنسيق مع القايد مرجان، وكان مولاي إسماعيل قد أطلعها على خَزنَةٍ سِرّيّةٍ أودَعَ فيها مالًا عظيمًا تَحسُبًا لما قد يَطرَأُ مستقبلًا، ولعل مثل هذه الخزنات كانت متعددةً في القصور الإسماعيليّة، ولعلّه كان يُطلِعُ عليها بعضَ من يثق بهم، لعلمه بأنّ المالَ سِياسَةٌ تَشفَعُ سِياسَةَ السّيفِ والعَدل، وسِياسةَ الكِياسَة

والدَّهاء. إنَّ كلَّ عُمرانٍ حقيقيٍ ينبغي له أن يقومَ على هذه الأنواع من السياسة، ولو أهملَتِ الدولةُ واحدًا منها لم تقم لها قائمة.

كان لخناثة أموالٌ عظيمة جمعتها من استحراث الأراضي التي كانت تحت نظرها، واستخلاصِ غَلاّتها. ولم تصرف تلك المداخيلَ على سَفاسِفِ الأمور، بل استخدمتها في جلائل الشؤون. ومن بين المداخيل المهمَّة التي كانت تحصل عليها، ما يصلها من هدايا وأموال في إطلاق الأسرى الأوروبيّين.

كانت تأتي على خناثة أوقاتٌ تحنُّ فيها إلى بساطة العيش في الصَّحراء، فتتذكَّرُ حياةَ الرُّحَّلِ والنُّجعَة والرِّمال المصهورة بحرارة الشمس المُحرِقة، والإبل السَّائمة والخيول السَّابحة. تترك لخيالها أن يسيح في خزائن ذاكرتها حتَّى يوقظَ أحلامَ الطفولة وكوابيسَها ويستدعيها. تذكَّرَت هاجسَها الكبير آنذاك بخصوص تسمين البنات لتهيئتهن للزواج، فاعترضَت مُحَيّاها ابتسامةٌ عجيبة لاستحضار هذا الخاطر. بدا لها الأمرُ تافهًا إذ كان يملأ عليها براءَتها وقتئذ، والتفتَت إلى ما هي عليه اليوم من مسؤوليّات جسيمة، فقد أصبحت سلطانةً مقدّمة في مملكة الشرفاء العلويّين. أين هي الآن من بساطة الحياة في الصحراء وقسوتها على جميع الأحياء؟ لقد حصلَت على ما تريد، لكنَّها لم تَطعَم بعدُ الطمأنينةَ، بل ما زال هَمُّ إيصالِ ابنِها إلى منصب السُّلطان يسكنُها في أعماقها، لعلّها لو استطاعت أن تُغيّرَ الأشياء لأصبحَت هي السُّلطانة، لكنَّها كانت تعلم، وهي العليمة بشؤون الإمامة العظمى، بأن النساء لا يتولَّينها. كانت تنتفض أحيانًا على هذه الاختيارت، وترى أن الرجال هم مَن قَرَّرُوا مَنعَ المرأة من ذلك، فلا شيءَ يمنَعُ في الدِّينِ من تَوَلّي المرأةِ مَنصِبَ الإمامة العظمى. كانت تعرفُ الحديثَ، وهي التي كانت تُقَرِّرُ تعليقاتها على طُرَرِ كُتُبِ ابن حَجَر بشأن «صحيح البخاري» وغيره، وتناقشُ ما ذهب إليه ابن حجر العسقلانيّ وغيره من شُرّاح البخاري، لكنَّها لم تَقتَنِع تمام الاقتناع بتلك الاختيارت التي تَحرِمُ المرأةَ أن تتولّى منصب الإمامة العظمى. أخذَت «صحيح البخاري» وبدأت تقرأ فيه الحديث «عن أبي بكرةَ رضي اللّه عنه قال: لقد نفعني اللّه بكلمة سمعتها من رسول اللّه أيّام الجَمَلِ بعدما كدتُ أن ألحقَ بأصحاب الجَمَلِ فأقاتِلَ معهم. قال: لما بلغ رسول اللّه أنَّ أهلَ فارسَ قد ملّكُوا عليهم بنتَ كسرى قال: «لن يُفلِحَ قَومٌ ولّوا أمرَهُم امرأةً»». وقفَت خناثةُ حائرةً أمام هذا الحديث، فقد كانت امرأةً مؤمنة،

وما يقوله النّبيّ صِدقٌ وَعَدلٌ، لكنّها كانت من جهة ثانية غيرَ مقتنعة بِحِرمانِ المرأة أمرًا قد تكونُ أحيانًا أجدرَ به من الرجل، وها هي ترى من خلال ما تتحمّله من مسؤوليّات كبيرة في الدولة، أنّها متفوّقةٌ على كثير من نُبَهاءِ الرجال في أمور السياسة، فما الذي يمنع من تولّيها هذا المنصب؟ إذا كان القرآن قد ساوى بين الرجال والنساء، وكذلك الحديث لما قال النّبيّ «النساءُ شقائقُ الرجال في الأحكام»، فكيف نستثني المرأة من حكم الإمامة؟ كما أنّ الطبيعة قد أعطت بعضَ النساء قدراتٍ أعظمَ من قدرات الرجال، فلماذا يصير التّمسُّك بالنّصّ مُلْغِيًا للواقع ولنصوصٍ أخرى متكافئة؟ أليس الواقعُ نصًّا كونيًا، مثلما أنّ النّص الشّرعيّ نصّ تكليفيّ؟ وقد استطاع الفقهاء أن يدركوا، بعد إعمال النّظر، أنّ النصوصَ متناهية، بينما الوقائع غير متناهية، لهذا ابتكروا آلية القياس حتّى يُجزُوا ما لا يتناهى على ما يتناهى.

سؤال كان يُحَيِّرُ خناثة، لكنّها كانت تميلُ في قَرارةِ نفسها إلى أن تُوَجِّهَ الحديثَ توجيهًا مختلفًا عمّا يفهَمُه عامّةُ الناس، فتُحاول أن تُفكِّرَ في السّباقِ والسّياقِ واللّحاق. لم يكن يَهمُّها أن تتوقّفَ كثيرًا عند كلام المحدثين عن الصحابي أبي بكرة، راوي هذا الحديث، وأنّه حُدَّ بِحَدِّ القَذف على نحو قد يُوهِنُ روايته. لكنّها لم تُرِد أن تَطرُقَ هذا الموضوع من هذا الباب، فالصحابة لهم حُرمَتُهُم، وهم عُدول، والحدود في حقِّهم كَفّارة وطهارة، لكن هذا لا ينفي أنّ الأفهامَ تختلف، وتأويلات الناس لكلام النبوّة ليست أمرًا مقدّسًا، بل هي أمور بشريّة تحتَمِلُ ما تحتَمِل. ولعلّ إدراك القرائن الدالّة على المقصود من الخطاب الشرعيّ بمعرفة سِباقِ الحديث وسِياقِه ثمّ لحاقِه، قد يفيد في فهم جديد.

أمّا السّباقُ، فإنّ النّبيّ كان يخاطبُ الملوك ويدعوهم إلى الإسلام، فكانت ردودهم مختلفة، فمنهم من آمنَ، مثل نجاشي الحبشة، لكنّه آثر الاحتفاظ بمُلكه على إعلان إسلامه بين قومه مخافةَ أن يعزلوه أو يقتلوه. ومنهم من قدّم الهدايا، مثل مُقَوقِس مصر. ومنهم من كان ردُّهُ حَسَنًا، مثلَ هِرَقل الروم. لكن كِسرَى الفُرسِ مَزَّقَ الكتابَ وقتلَ الرّسُولَ المبعوثَ، فدعا عليه النّبيّ بتمزيقِ مُلكِه، وكذلك كان، إذ قُتِلَهُ ولَدُه. أمّا السّياقُ، فهو أن مُقتضى الحديث مرتبطٌ بأمرِ تَوَلّي ابنةِ كِسرى مُلك فارس،

فقال النّبيّ «لن يفلحَ قومٌ ولّوا أمرَهُم امرأةً»، فَدَلَّ سياقُ الحديث على أنَّ المقصودَ هذه الحادثة المخصوصة، وليست أيّ امرأة تتولّى المسؤوليّة العظمى في أيّ سياق كان. ودليلُه أنَّ كسرى لمّا علم بتآمُرِ ابنِه عليه، أخذَ قارورةً ووضعَ فيها سُمًّا وكتبَ عليها «إكسير الحياة». فلما قتلَ الابنُ والدَه، فتحَ خزائنَ أبيه فوجدَ القارورةَ وتناول ما فيها من سُمٍّ ظنًّا منه أنَّه إكسير الحياة، فكانت القاضية التي ما بعدها ولايةٌ ماضية، وضاع مُلكُ ساسان. ولم يكن مِن وريثٍ آخرَ سوى ابنة كسرى. فلما بلغ النبيَّ خَبَرُ تَوَلّيها قال ما قال، يعني أنَّه لن تقومَ للفرس قائمةٌ ولن يُفلحوا في استعادة أمجادهم مهما فعلوا بتنصيب بنت كسرى، وليس المقصودُ بذلك عُمومَ الناس، ولا عمومَ النّساء، وهذا هو اللّحاقُ الذي رأيناه وتحقّقناه، بحيث لم تَقُم للفُرسِ قائمةٌ بعد دعوةِ النّبيّ 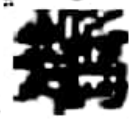 عليهم، وهذا من إخباراتِه ومعجزاته عليه الصّلاة والسّلام. لكنَّ الأفهام تريد أن تسحبَ هذه الواقعةَ المخصوصة على كلّ حالةٍ تولّت فيها النساء المسؤوليّة. وقد تولّت نساءٌ مناصبَ عليا فأفلحن في ولايتها. والإنسان بين أمرين، إمّا أن يعتقدَ بصدق كلام النبوّة، وإمّا أن يجحد. وحيث إنَّ النّبيّ صادق فيما يقول، فَيُحمَلُ فَهمُ حديثِه على الخُصوص لا على العُموم. اطمأنّت خناثة إلى هذا التأويل، لكنّها كانت تعلم بأنَّ الذهنيّات في بلاد المسلمين غيرُ مهيّأة بَعدُ لهذا الأمر، فَرَضِيَت أن تَقنَعَ بأن يَؤُولَ الأمرُ إلى ابنِها، فهو بَضعَةٌ منها.

عاد مولاي إسماعيل من غيبته، والتقى زوجته وتكلّما في مواضيع كثيرة. كان متعَبًا، وبدأت أمارات الشيخوخة تظهر عليه، واشتكى إليها من ألَمٍ في مفاصله، ولعلّه لن يكون في مقدوره أن يُكثِرَ مِنَ الركوب، بل إن تمادى عليه الألم، فلن يستطيع الركوب أصلًا. كان الحديثُ مناسبةً كي تُقنعه خناثة بأن يفوّضَ مولاي عبد اللّه لشهود احتفالات سلطان الطلبة في فاس في فصل الربيع، وأن يُسَلِّمَ الهدية نيابةً عن والده. اطمأن مولاي إسماعيل إلى رأي زوجته لأنَّه لم يرغب في مُفاقمة آلامه بالسّفَر إلى فاس، لكنّه قال لها: أتعلمين لماذا اهتمَّ أخي السُّلطان مولاي رشيد، رحمه اللّه، بإقامة احتفاليّة سلطان الطلبة؟

فقالت لالة خناثة: لا أعلم على وجه التّحديد.

فقال مولاي إسماعيل: لقد كان أخي مولاي رشيد يريد تثبيت أركان دولة العلويّين، وكان يعوزه المال الذي يستطيع أن يحقّق به هذا الهدف.

وفي سنة 1077هـ/1666م، اتَّصل بأحد شيوخ الزوايا فأمدّه بمجموعة من الطلبة على لمساعدته على القضاء على الطاغية اليهوديّ هارون بن مشعل الذي كان يحكمُ مدينة تازة ونواحيها، ويضطهدُ القبائل المجاورة بالضرائب الفاحشة والجبايات الظالمة. بل إنَّه تمادى في إذلال المسلمين بحيث فرض عليهم أن يسلّموه كلّ سنة فتاةً عذراء ليدخل بها مع حلول عيد الحصاد اليهوديّ.

فقالت لالة خناثة: هذا غير ممكن؟

فقال مولاي إسماعيل: بل لقد تَجَرَّأ الذِّمّيُّ على فِعلِها، وكانوا يُسَلِّمُونَه أجملَ فتياتهم فيدخلُ بها.

فقالت خناثة: وكيف استطاع مولاي رشيد أن يقضي على هذا الطاغية؟

فقال مولاي إسماعيل: لقد علم أخي مولاي رشيد من الطلبة المرافقين له بأنَّ واحدًا منهم قد صار عشيقًا لابنة اليهوديّ، زُليخَة، فطلب منهم أن يأتوه به. تواعد الطلبة مع زميلهم، وأخبروه برغبة مولاي رشيد وكلَّموه على دعم شيخ الزاوية التي درَس فيها هذه الخطةَ، فجاء معهم إلى أخي.

فقالت خناثة: وبمَ أخبره؟

فقال مولاي إسماعيل: لقد كان هذا الشاب عشيقًا لابنة ابن مشعل، فكان يحضر سهرات أبيها يوميًا، واطَّلَعَ على كثير من أسرار القصر وثغراته حين كان الذِّمّيُّ يَهذِرُ بأيّ كلام بعد أن يلعبَ شرابُ الماحيا (ماء الحياة) برأسه. كان اليهود، كما هو معلوم، مختصّين بصناعة خمر الماحيا المصنوعة من التين المجفَّف.

كان قصر ابن مشعل الذي كان يسمّيه أهل تازة «القلعةَ الحصينة»، أفخمَ قصر في المغرب في وقته، إذ حَصَّنَهُ وخزّن فيه مؤونةً تكفيه لِعِدَّةِ سنوات. كان الشابُّ معشوقًا لزليخة التي كانت تخبره بكلّ أسرار والدها. اتَّفَقَ مولاي رشيد مع الشابّ على أن يُسَهِّلَ دخولهم القلعة في اليوم الذي يصادف تسليم القبائل لإحدى فتياتها العذراوات، هدية إلى الطاغية ابن مشعل، في مقابل عدم تعرُّضه لهم.

فقالت خناثة، وقد أغراها الحديث: وكيف تمَّ الأمر؟

فقال مولاي إسماعيل: لا يمكنك أن تصدّقي ما فعل أخي، رحمه اللّه.

فقالت خناثة: واللّهِ، لقد شوّقتني يا أبا عبد اللّه إلى بقية الحديث ومعرفة ما حدث.

فقال مولاي إسماعيل: طلب مولاي رشيد من بعض الطلبة أن يختبئوا في أربعين صندوقًا كان قد أعَدَّها لتكون على شاكلة الصناديق التي تحمل هدايا القبائل السّنويّة إلى ابن مشعل.

فقالة خناثة: غير معقول، وكأنّي به استلهم قصّة علي بابا الشهيرة في أسمار ألف ليلة وليلة.

فقال مولاي إسماعيل: الأمر كذلك، وقراءة الأدب قد تفيد كثيرًا في مثل هذه المواقف. لمّا كان اليوم المعلوم، اختبأ الطلبة في تلك الصناديق وحُمِلَت على الدواب. أمّا الأعجب من كلّ هذا، فهو تَنَكُّر مولاي رشيد في صفة العذراء، بحيث حمل سلاحه ثمّ وضع رداءً يستره وركب على هودج كَرَبَاتِ الخُدُور. فلما وصلوا إلى القلعة المحصّنة، خرج الشاب لاستقبالهم وفتح لهم الأبواب. فما إن أدخلوا الصناديقَ وهودجَ العذراء إلى مجلس ابن مشعل، حتّى قام الطلبة بسيوفهم، وانتضى مولاي رشيد عن رداء التَّنَكُّر، وقفز على الطاغية فأمسك به ووضع السّيف على رقبته حتّى لا يتدخّل رجالُه لحمايته، فأمرهم بإلقاء أسلحتهم، ثمّ تولّى الطلبةُ الإمساك بحُرّاس الطاغية وَوَضعَ القيودِ في أيديهم وأرجلهم. كنت وقتَها كامِنًا مع بقيّة الجيش، فلمّا رأيتُ الشابَّ عشيقَ زليخة يُلَوّحُ لنا من أعلى السور براية بيضاء، خرجتُ مع سائر الرجال من مخبئنا، وطَوّقنا القلعة المحصّنة وقتلنا رجال الطاغية. وقد كانت فرحةُ أهلِ تازة عظيمةً بعدما استراحوا من هذا الجبّار الذي كان يُسمّيهم الهوان ويأخذ أموالهم ونساءهم ظلمًا وعدوانًا. وبعد أن استنطقنا ابنَ مشعل وسمعنا منه كلّ ما نريد، خلال تلك الأيّام، أمر أخي أحدَ رجاله، فضرب رأس الطاغية فقتله. وقد دلّتنا زليخة بنتُ ابنِ مشعل على بعض كنوز والدها، فوجدنا أموالًا لا تُعَدُّ ولا تحصى، ساعدتنا في تشكيل جيش قويّ وبَسطِ نفوذ دولتنا الناشئة. ثمّ أمسكنا بزوجة ابن مشعل وابنها الصغير. أخبرنا عشيقُ زليخة بأنّ لابن مشعل أموالًا أخرى مخبّأة في القلعة كان يتكلّم عليها الطاغية في أثناء سُكْره. فتّشنا في كلّ جهات القلعة فلم نعثر على أيّ أثرٍ لتلك الأموال. ثمّ خطرت في بال أخي مولاي رشيد فكرةٌ فأخذ ابنَ اليهوديّة من أُمّهِ وهدّدها بقتله إن لم تخبره عن سائر الأموال المكنوزة والمطمورة. ارتعبت اليهوديّة وخافت على ولدها فوافقت على إخبارنا بتلك المخازن السرّيّة التي جمع فيها ابن مشعل ما تنوء بِحَملِهِ العُصبَةُ أولِي القُوّة. سرنا وراءها في دهاليز سرّيّة حتّى وصلنا إلى بيت في ناحية مهجورة من القصبة فأشارت إليه. استغربنا من قولها لأنّ البيت لم يكن فيه كنوز، فطلبت منّا اليهوديّة نَقضَ أحدَ جدرانه. أخذ الرجال في هدم الجدار ونَقبِهِ، وأمضوا وقتًا طويلًا في ذلك نظرًا إلى عِظَمِ سُمكِه، حتّى وصلت ضرباتُ فؤوسهم إلى نَقرِ خَوابٍ مملوءة ذهبًا وفضّة. كُسِرَت أفواهُ الخوابي فوجدنا فيها ما لا يُعَدُّ ولا يُحصَى من الذهب والفضّة والأموال. كانت غبطتنا عظيمة بحيازة هذه

الأموال التي جمعها الطاغية ظلمًا وعدوانًا خلال سنين عديدة بالمكس والجبايات والضرائب وصنوف الإتاوات. لقد كان هذا الكنز العظيم فاتحةَ خيرٍ علينا لتوطيد أركان الدولة الناشئة.

عَيَّنَنِي أخي خليفةً عنه في فاس بعد أن دخلناها وتَمَّت له فيها بيعة أهلها. وتعبيرًا عن تقديره للطلبة، قام مولاي رشيد بِسَنِّ احتفال سنويّ للطلبة وتنصيب سلطان عليهم بعد انتهاء موسم الدراسة في فصل الرَّبيع.

فقالت خناثة: واللّهِ إنَّ هذا لعَجَبٌ عُجاب.

فقال مولاي إسماعيل: الغريب في الأمر هو أنَّ الطاغية قد اعترف لأخي مولاي رشيد بأمور عجيبة.

فقالت خناثة التي ازداد استغرابها: وكيف ذلك؟

فقال مولاي إسماعيل: لقد اعترف ابن مشعل قبل قتله بظهور المسيح المخلِّص في هذه السَّنة التي انتصرنا فيها عليه، وتقابل بالحساب العجميّ سنة 1666م، حيث أكَّدَ لنا أنَّ المسيح المخلِّص سيظهر في عاصمة الخلافة العثمانيَّة، حيث سيَعزلُ السُّلطانَ محمَّد الرابع، ويضع تاج الخلافة العثمانيَّة على رأسه، ثمَّ يؤسِّس مملكة إسرائيل في فلسطين.

فقالت خناثة: ماذا أسمع؟

فقال مولاي إسماعيل: لقد كان ابن مشعل واحدًا من أتباع هذا الدَّعِيّ الذي ظهر في أوساط اليهود، ولَبَّسَ عليهم حتَّى صدَّقه معظمُهم، واسمه شَبَتاي زِيفِي. وقد أسقطَ عن بني إسرائيل الأغلال التي كانت في أعناقهم، والتكاليف التي كانت ترهقهم. وقد لاحظنا هجرةَ أعداد كبيرة من اليهود الذين باعوا ممتلكاتهم من أجل الالتحاق بزعيمهم، لكنَّ بعض حاخامات اليهود في بلادنا كانوا ضدَّ هذه الفِريَة التي عَمَّت أوساطَ اليهود، وحاولوا ثني عوامِّهم عن تصديقها، لكنَّهم لم يُفلحوا في ذلك. وممَّا زاد من إشهار هذه الفِرية أنَّ هذه السَّنة المذكورة، التي هي سنة الخلاص كما زعم شبتاي، توافق لدى المسيحيِّين العدد 666، الذي هو عدد المسيح الدجّال، كما في كتبهم.

فقالت خناثة: وهذا على عكس ما لدى المسلمين، فالستَّة عدد الجهات الستّ، و66 يوافق عدد الجلالة «اللّـه»، وحروف سورة الإخلاص، ولهذا السَّبب سمِّي «قصر الستينيَّة» بهذا الاسم لأنَّ الناعورة الخشبيَّة التي في إحدى قبابه لها ستَّة وستُّون قضيبًا على عدد أسماء الجلالة. وهذه الناعورة بقضبانها تشبه أشعَّة الشمس الذهبيَّة. كما أنَّ عدد آيات القرآن الكريم تبلغ 6666 في إحدى طرائق العَدّ المعتبرة عند علماء القراءات.

فقال مولاي إسماعيل: نعم صحيح، فلكلّ حقيقة نورانيَّة ظلُّها الظلماني.

وقد خزّفوا الحقيقة فظنّوا أنّ هذا العدد 666 هو عدد المسيح الدجّال. المهمّ، هو أنّ ابن مشعل كان واحدًا من أتباع هذه الطائفة.

فقالت خناثة: لعلّه لم يكن منهم، لكنّه استغلّ هذه الدعوى ليفتني أكثر، فلا شكّ في أنّ هذه الأموال التي كدّسها قد جمعها من اليهود الذين كانوا يبيعون ممتلكاتهم بأزهد الأثمان، فيشتريها منهم شبتاي. وهذا غالب ظنّي فيه، فمثل هؤلاء لا ملّة لهم ولا دين. لكن، أخبرني ماذا جرى بعد ذلك؟

فقال مولاي إسماعيل: لعلّ ما ذهبت إليه صحيح... المهمّ، لقد أوفد أخي مولاي رشيد أحد رجال ثقتنا من التّجار اليهود المغاربة، الموالين لنا، إلى إسطنبول من أجل تمتين العلاقات ببلدنا، فاغتنم الفرصة واتّصل بزعماء اليهود في حاضرة الخلافة العثمانيّة، وأبلغهم بما حدث مع ابن مشعل، وحذّرهم من شبتاي. سارع الحاخامات إلى السّلطان العثماني محمد الرّابع لتحذيره من شبتاي وطائفته، وأخبروه بما حدث مع ابن مشعل في المغرب.

فقالت خناثة: فماذا كان ردّ السّلطان محمّد الرّابع؟

فقال مولاي إسماعيل: لما وصلته الرسالة، قبض على شبتاي زيفي، وأمره بأن يثبت حقيقة ادّعائه بأن يأتي بمعجزة باهرة ظاهرة تؤكّد أنّه المسيح المخلّص، لكنّه عجز عن الإتيان بأيّ شيء، فخيّره السّلطان بين أن يقتله أو أن يعتنق الإسلام، فاختار أن يُسلم، وتسمّى باسم عزيز محمد أفندي.

فقالت خناثة: الحمد للّه الذي جعل بداية بسط الدولة العلويّة سلطانها على كلّ المغرب سنة 1666م بالحساب العجمي، موافقًا للسّنة التي زعم فيها هذا الدجّال ظهوره للعالمين. لقد كانت بيعة الأشراف العلويّين وظهورهم متزامنين مع القضاء على هذه الفتنة العظيمة التي كانت ستحلّ بالمسلمين. وهل انتهت هذه الفتنة بعد ذلك؟

فقال مولاي إسماعيل: لقد استمرّت هذه الطائفة اليهوديّة موجودة، بعد أن أسلم ظاهريًا أتباع شبتاي، ومزجوا تقاليدهم اليهوديّة بعادات المسلمين، ويُعرفون بـ «الدّونمه» أو «السّباطيّين». وقد كان ابن مشعل من أتباع تلك الحركة التي عمّت يهود العالم بأسره حتّى صدّقها كثير من أتباع المسيح. لكنّ قيام الدولة العلويّة الشريفة تزامن مع نهاية ظهور تلك الضلالة الكبيرة. وقد كان هدفُ ابن مشعل أن يستولي على فاس قاعدةِ العلم والمُلك في المغرب، مستغلًّا وجود عدد كبير من اليهود الذين طُردوا من الأندلس فاستوطنوها. وكان يعتزم، من فاس، تأسيس دولة تابعة لشبتاي زيفي.

فقالت خناثة: الحمد الذي قطع هذه الفتنة على أيدي الأشراف، عترةِ آل بيت النبوَّة.

***

أرسلَت خناثة رجالَ ثِقَتِها إلى فاس بعد الذي استفادته من مولاي إسماعيل عن ظروف نشوء احتفاليَّة سلطان الطلبة، وبعثت معهم بعضَ الهدايا إلى كبار علماء القرويِّين حتَّى تعرفَ منهم مَن يُرَشَّحونَ لمنصبِ سلطان الطلبة. سافر رجال ثقتها واتَّصلوا بالعلماء وسلَّموهم هديةَ لالَّة خناثة، ثمَّ عَلِموا منهم أسماءَ المرشَّحين الذين اختارهم قدماءُ الطلبة في جامع القرويِّين بعد انتهاء فترة التَّحصِيل والامتحانات. كما اتَّصَلَ رجالُها بقُواد جيشِ الوداية ممَّن كانوا يَدينون بالولاء لخناثة وأخبروهم بالاستعداد لاحتفالات سلطان الطلبة لهذه السَّنة بما يليق بها، وأخطروهم بأن يَبذلوا جهدًا مضاعفًا وعناية كبيرة حتَّى تشارك المدينة كلّها في هذه المناسبة.

بدأت المنافسة بين المترشحين في فاس، فصار كلّ واحد يدعو إلى نفسه، ويجول في أسواق المدينة وحاراتها. كان رجال خناثة يتتبعون ما يجري، ولاحظوا أنَّ من بين المرشَّحين طالبًا نجيبًا من الأسرة القادريَّة التي كانت لسيِّدتهم علاقةٌ ببعض علمائها. قرَّروا أن يدعموا هذا الطالب فسلَّموه مبلغًا كبيرًا لدعمه في الترشح. أُعلِنَ يومُ المزاد العلَنيّ في سوق الكُتبِيِّين المجاور للجامع بعد عصر يوم الأربعاء، على الرَّغم من أنَّ المزادَ المعتادَ للكتب في فاس كان يُقامُ كلَّ صباح أحد. خرج الناس بعد صلاة العصر، وتقاطروا من كلّ حدب وصوب لحضور المزايدة على تاج السَّلطنة الذي سيتم التنافسُ فيه. قام الدلّال يخطر في سوق الكتبيِّين جيئة وذهابًا يعرض هذه البضاعة الثمينة وينادي أمام الطلبة المرشحين بالتباري النزيه عليها من خالص أموالهم التي جمعوهما خلال حملة ترشحهم. وكان يرافقُ دَلاَلَ الكتب الذي تَحَوَّلَ إلى دَلاَلٍ لتاجِ السَّلطنة، مجموعةٌ من الأطفال والفضوليِّين الذين يتسقَّطون الأخبار. فما أجملَها من حكاية أن يتحوَّلَ دلَّالُ الكتب إلى دلَّالٍ لأعلى رمز في البلاد.

كانت فاس تفاخر بجامعها الذي يُدَرِّسُ مختلفَ العلوم العقليَّة والنقليَّة، ولا ترى أنَّ السُّلطة الزمنيَّةَ، مهما كانت، يمكنها أن تزيحَ العلماءَ عن سلطتهم المعرفيَّة. إنَّها مناسبة لهؤلاء بالتذكير بأنَّ السُّلطةَ الزمنيَّة لا بدَّ لها من سُلطة معرفيَّة تُعاضِدُها وتشاركها وتُسائلها وتُقَوِّمُ اعوجاجَها إن زاغت. كان هذا اتِّفاقًا غيرَ مكتوب، لكنَّه مقرَّرٌ بين الجميع.

كان الدلّال يمشي بين جموع الناس يتبختر في مشيته، ويَعرِضُ تاجَ

السَّلطَنَة، حتَّى إذا حاول أحدٌ أن يَمُدَّ يدَه إليه زَجَرَهُ، وبَكَّتَهُ بأقذَعِ الأقوال. فمتى كانت التيجان تُباع في سوق الدلالة؟ ومتى كانت الأيدي تشتري فَخرَ الرؤوس؟ كان أهلُ فاس وعلماؤُها في غاية السَّعادة لأنَّهم كانوا يشاركون في تذكير الجميع بأنَّهم هم من يبايع السَّلاطين، وأنَّ العلمَ هو المَؤئلُ الذي يَؤُولُ إليه الناس. إنَّ سُلطةَ العلم والعلماء هي الفيصلُ والحَكَم الذي يُصبِغُ الشرعيةَ أو يَسحَبُها. كان المجتمع يُداري هذه القضايا الشائكة باحتفاليَّة تقام نهايةَ السَّنة الدِّراسيَّة، بينما هي في الواقع احتفاليَّة لترسيخ تقاليد التَّناوب بين السُّلَطِ المختلفة. إنَّها كِياسَةُ الحضارة التي تتوسَّلُ، بمثل هذه الطقوس الاحتفاليَّة، لتنشرَ الوعيَ بأنَّ اقتسامَ السُّلطة يجب أن يَتِمَّ بين أهل العلم وأهلِ الشَّوكَة.

مشى الدلّال بين الصُّفوف يَزجُرُ المتطفِّلين عن ملامسة تاج السَّلطنة، فلا يجب أن تَتناوَشَ الأيدي تلك الأحيازَ المهيبَة التي تحرسُها السيوفُ المهنَّدة، لكنَّها تتبذَّلُ اليومَ في سوق الكتب مثلما كانت الكتبُ تنتقل بين الأيدي التي تفحصها فحصًا حتَّى تقفَ على هوية المؤلِّف والنَّاسخ والمتملِّك السابق، وما سوى ذلك. الفرقُ اليومَ هو أنَّ الجميعَ يعلم كلَّ هذه المعلومات عن المتملِّك السَّابق، فلهذا لا يُلمَسُ التاجُ المرغوب فيه. ومثلما يباع العِلمُ في سوق الدلالة، كذلك تباع السُّلطَة أيضًا. إنَّها مزحَة جميلة، وفِطنةٌ غريبة لم يصنعها أحدٌ من قبلُ في أيّ مكان، إلَّا في هذه المدينة المُتَكايِسَةِ الحاذِقَة[4]. كان يمشي خلف الدَّلال شرذمةٌ من الأطفال يُردِّدُونَ كلماتِه، وينقلونَ أقوالَه إلى جموع الناس. كانت حركات الأطفال يغلب عليها شيءٌ من الجِدِّية الهَشَّة الممزوجة بالمرَح. تخيَّل أنَّك طفلٌ صغير تشارك في بيع تاج السَّلطنة. إنَّه شعور بمسؤوليَّة كبيرة لكلّ هؤلاء الأطفال، لكنَّه في الوقت نفسه، حافز لهم على الكَدِّ والجِدّ حتَّى يتأهَّلوا كي يصبحوا هم أيضًا مرشَّحين للفوز بهذا التاج إن اجتهدوا في الدِّراسة وحصَّلوا العلوم والإجازات التي تُخوِّلهم التَّشوُّف إلى مثل هذه المَطالب الشريفة. كانوا يمرحون، ثمَّ حينما يُعلَنُ عن الثمن المقدَّر لبيع التاج، تبدو عليهم فجأة ملامحُ الرَّزانَة. صار الدلّال يصيحُ بثمن التاج الذي دفعه أحدُ المرشَّحين، فانطلق الأطفال في كلّ أرجاء سوق الدلالة حتى يَطَّلِعَ الحاضرون على الثمن المدفوع. وبعد دورة ودورتين من الإعلان، يتقدَّم طالبٌ ثانٍ، فيرفع الثَّمنَ على غَريمه السَّابق، فيمضي الدَّلال بإعلان الثَّمن الجديد المقترح، ثمَّ يسارع الأطفال في ترديده في أرجاء السوق حتَّى يسمعه القاصي والدَّاني، فيتشوَّفُ مَن كانت له أهليَّة إلى أن يقترحَ ثمنًا جديدًا يرفعُ به الثمن. وهكذا استمرَّت المناولة والمزايدة على التاج حتَّى

توقُّف المزاد. أمَّا الطالب القادري، فقد لَبَدَ في مكانه ينتظر حتَّى تتوقَّفَ المزايدات، كي يُعلِنَ عن الثمن الذي يقترحه لتاج سلطنة الأسبوع. عجيب أن تُزايِدَ على تاجٍ يُباعُ لك كي تكونَ مَلِكًا لمدَّة أسبوع تعود بعدها إلى حالتك المزرية مثل عامَّة الناس، لكنَّها تجربة تستحقّ أن تُعاش حتَّى يعلمَ المتصَدِّرُ عِظَمَ المسؤوليَّة. إنَّها أيضًا طريقة للمهادنة بين أصحاب الشوكة وأصحاب المعرفة، ولعلّها مناسبة تجعل هؤلاء يتعزَّفون إلى تجربة الحكم، ولو لمدَّة أسبوع. توقَّفَ جميع الطلبة عن المزايدة لمّا لم يكن في إمكانهم أن يدفعوا أكثر ممَّا دفعوا لِخُلُوّ اليد من أموال إضافيَّة، بعدما كَدُّوا في جمعها من الأسواق المختلفة. رفَعَ القادري يدَه، إذ ذاك، وأعطى ثمنًا يفوق ما قدَّمَهُ الآخرون. ابتسم الدلّال، وصار يمدح القادري بكلّ الصِّفات، فهو ابنُ الأماثِلِ والأفاضل، وسليلُ الأكارم السُّراةِ الممجَّدين، وحاملُ سَبقِ الطلبة المجتهدين، ويَعسُوبُ عَرَصاتِ العلم في جامع القرويِّين، وتِبرُ حَلَقاتِ عُلمائِها المعمَّمِين؛ الشريفُ الأجَلّ، الكريمُ الأمثَلُ، النَّجِيبُ الأكمَلُ، سليلُ دَوحَةِ الأشراف القادريِّين الحسنيِّين. كلّ ذلك حتَّى يَنفُثَ رُوحَ المنافسة في أقرانه، وحتى يُجازِفَ غيرُه في دفع ثمنٍ أكبر، لعلَّه يَظفَرُ بمثل هذه الأوصاف الرَّفيعة والنعوت المليحة والتَّحليَّات البديعة. لكن لا أحدَ في السوق استطاع أن يُزايِدَ على الثمن الذي دفعه القادري، فجال الدلّال في السُّوق جَولةً أولَى، وانبرى الأطفالُ يتطايرون في كُلّ الأرجاء، ويَصيحوَن بالثَّمن المدفوع، فلم يَنبِس أحدُهُم بِبِنتِ شَفَة. ثمَّ جال الدلّال جولة ثانية، فلم يظفر بثمن جديد، وعاد يطوف على الحاضرين ويَستَحِثُّهم على دفع ثمنٍ أكبرَ لِتاجِ السَّلطَنَة الأفخَر، لكنَّ اليَدَ قصيرةٌ، وما في مقدور الطَّلبة، ولاسيَّما الآفاقيِّين منهم، المزايدةُ بأكثر ممَّا اقترحوا لشراء تاج السَّلطنة. جال الدلّال الجولة الأخيرة، وتأهَّبَ ليعلنَ القادري سلطانًا للطلبة، فشقَّ آنذاك الحلقَةَ طالبٌ يتصبَّبُ عَرَقًا، فقطع الدلّالَ عن إعلان الفائز. استغرب الحاضرون وصولَ هذا الطالب الذي لم يكن ضمن المرشَّحين. زمجر الطلبة من اقتحام هذا الطالب الغريب حلقةَ التباري، لكنَّ الدلّال رفع يده وطلب من الجميع أن يصمتوا. ثمَّ سأل الطالب: لماذا قطعتَ علينا ما كنَّا فيه، وأنت لست في لائحة المرشَّحين؟

فقال الطالب: معذرة، لقد تأخَّرت لأنّي كنت أجمع المال المطلوب حتَّى أشارك في التباري.

فقال الدلّال: لم يسبق لي أن رأيتك من قبل، لعلك من هؤلاء الآفاقيِّين.

فقال الطالب: نعم، إنّني من بادية تازة شرقي فاس. وقد يأتي عليّ زمانٌ أرجع إلى بلدي لأساعد والدي ووالدتي وأقوم على خدمتهما، ثمَّ أعود إلى

فاس لأتابع بعض الدروس. كان الطلبة الفاسيُون، بصورة خاصَّة، متذمّرين من هذا الطالب الآفاقي الذي جاء يُعكّر عليهم صَفوَ أفراحهم واحتفالاتهم، ويريد أن ينتزع تاج السَّلطنة منهم. لقد كانوا دومًا يسخرون من الطلبة الآفاقيّين ويَهزأون منهم، ولم يكن أمرًا معتادًا أن ينازع آفاقيٌّ فاسيًا في خُطة من الخطط الجليلة، فكيف بالشُّفوف إلى طلب الرِّيَاسة وحيازة تاج السَّلطنة، ومتى كان البَدوُ يحكمون أهل الحضارة؟

قال الدلّال: كما قلت لك أنت لست في لائحة المرشَّحين، ولا ينبغي لك أن تترشَّح الآن.

أسقط في يد الطالب الآفاقي وعَلَتْهُ سَحنةُ حزن من هذا الحرمان، لكن أحدَ العلماء الحاضرين في الحلقة تدخَّل قائلًا: لا شيءَ يمنع ترشُّح هذا الطالب ما دام كان قادرًا على أن يُزايد على التاج مثل بقية المترشِّحين. أمَّا عن عدم ورود اسمه في اللَّائحة، فإنِّي أرشِّحه.

سُرِّيَ عن الطالب، لكن سائر الطلبة الفاسيّين لم يُعجبهم كلامُ ذلك العالِم، الذي كان آفاقيًا حتَّى تأثَّلَت إقامتُه بفاس واستطاع أن يفرض وجودَه في هذه الحاضرة بفضل علمِه الذي بزَّ به أقرانَه من العلماء. كان هذا العالِم ينتصر على تاريخ من الحرمان والسُّخريَّة، ويعيد الصراع بين سلطة المعرفة وسلطة المال أو الجاه. وقد كان الآفاقيُون يردِّدون دومًا قولة شهيرة «لا أحَدَ وُلِدَ في خَصَّةِ ولاي إدريس»، ومعناها: لا أحد من أهل فاس في إمكانه أن يدَّعي أنَّه خرج من نافورة ضريح مولاي إدريس الأزهر في فاس حتَّى ينكر على غيره من الآفاقيّين، فالكلّ بهذا المعنى غريب عن فاس إلَّا مولاي إدريس الذي أسَّس المدينة.

لم يستطع الدلّال، بعدما تكلَّم العالِم، أن يرفضَ هذا الترشيح، فقال للطالب: لقد وصل ثمن المزايدة إلى كَيتَ وكَيت، وأشُكُّ في أن تكونَ قد جمعتَ مثل هذا المبلغ.

فقال الطالب بشيء من الحِدَّة مدفوعًا بالدَّعم الذي جاءه من العالِم: وما يُدريك أنِّي لا أستطيعُ أن أجمعَ المبلغ المطلوب؟

وحتَّى يَكسِبَ تعاطُفَ الطلبة الآفاقيّين، أضاف قائلًا: أليس من حقِّ الآفاقيّين أن يتباروا مثلَ غيرهم من الطلبة؟

أحسَّ الدلّال بأنَّ عليه أن يكون عادلًا بين جميع الطلبة، ونسي أنَّه كان آفاقيًا هو الآخر، لكنَّه صار يصطنع التَّحَضُّر حتَّى اندمج في أهل البلد، فقال مُكَفِّرًا عن خطئه: الشرطُ الوحيد هو أن تدفع أكثر من سائر المترشِّحين.

فقال الطالب: أنا أزيد على آخِرِ ثمن ثَمَّ دفعُه بكذا وكذا.

سُمِع لَغَطٌ شديد في حلقة الدلالة، وتعجّب الطلبة مِن تَسارُعِ الأحداث وتقلُّبِها على هذا النحو.

تكلم الدلّال مرّة أخرى قائلًا: هل أنت متأكّد ممّا تقول؟ وهل معك هذا المبلغ؟

فقال الطالب: متأكّد تمام التأكّد، ومعي المبلغ المذكور.

فقال الدلّال: إذًا، نستأنف المزايدة. ثمّ أخذ يُرَدِّدُ المبلغ الذي فاه به الطالب، ويمشي في الحلقة جيئةً وذهابًا، والطلبة الفاسيّون لا يكادون يُصدِّقُون تَوالي المفاجآت على هذا النحو. كان الطالب الآفاقي مسرورًا بانتقامه لسائر الطلبة الافاقيّين الذين كانوا يعانون تكبُّرَ نظرائهم الفاسيّين وتعاليهم عليهم.

اضطرب القادري لأنّه لم يكن يملك أكثر ممّا زايد به على العادة المعلومة كلّ سنة، فالتفت نحو رجال خناثة لعلّه يجد لديهم السَّنَدَ فيما ينبغي له القيام به. اقترب أحدُ رجال لالة خناثة من القادري وهمس إليه في أذنه حتّى انشرح صدره، ثمّ قبل أن يعلن الدلّال فوز الطالب الآفاقي، كان القادري قد رفع الثمن. ماجت الحلقة وكثر الصَّخب لأنّ الثمن المدفوع لم يسبق أن دُفِعَ مِن قَبلُ منذ أن بدأ الاحتفال بسلطان الطلبة. طلب الدلّال مرّة أخرى من الجموع الواقفة أن تلتزم الصمت وتتركه يُنهي مهمّته، فأخذ ينادي بالمبلغ المذكور. كاد الطالب الافاقي يستسلم، لكنّ أحد كبار التجار اليهود في فاس همس في أذنه، فابتسم هو الآخر ورفع ثمن المزايدة السّابق. تعجّب الناس ممّا يجري، ولم يفهموا دوافع المترشّحين. فلم يسبق أن رأوا الأحداث على هذا النحو. كان باديًا للعيان أنّ أمرًا ما يحدث في الخفاء. ومرّة أخرى، يهمس رجال خناثة إلى القادري فيرفع الثمن مجدّدًا، إلّا أنّ التاجر يسارع هو الآخر ليدفع الطالب كي يرفع ثمن المزايدة. استمرّت اللعبة بين الفريقين حتّى رأى التاجر الذي كان يساند الطالب الآفاقي الشَّرَرَ يتطاير من أعين رجال خناثة، ورأى أحدَ القُوّاد يضع يدَه على مقبض سيفه فخاف على نفسه أن يُجابَهَ قُوّاد الوداية فاستسلم. وهكذا فاز القادري بتاج السّلطنة من دون مفاجأة تُخرِمُ القاعدة المتّبَعَة في فوز أبناء الأسر الفاسيّة العريقة مثل كلّ سنة.

تنفّس الدلّال الصُّعَداء، وأعلنها مُدَوِّيةً: بايِعوا سلطانكم، أيّها الطلبة الأكارم، فقد صحّ له شراء التاج، واستحقّ أن يلبَس الدَّمسقَ والدِّيباج.

أمضى السّلطانُ يومَه ذاك في تلقّي التّهاني. ثمّ زاره التاجر اليهوديّ الذي كان يدفع الطالب الآفاقي إلى المزايدة. رحّب القادري به وأجلسه في مجلسه، وطلب الخلوة به، فسأل التاجرَ عن سر دعمه الطالبَ في خوض

الترشيح، وإصراره على رفع الثمن.

فقال التاجر: لا يَخفى عليك، يا سيّدي السُلطان، أنّ هذه الاحتفاليّة مناسبةٌ لقضاء بعض الأغراض والمصالح، وأنّ كثيرًا من أصحاب الحاجات ينتظرون هذه المناسبة لرفع ملتمساتهم عبر دعم ترشيح أحد الطلبة. ولا شك في أنّ المترشّح الفائز يقدّم لائحة ملتمساته إلى سلطان البلاد لينفّذها له. وقد اتّصل بي أحد سفراء مملكة فرنسة، وطلب منّي أن أتوسّط له عند السُلطان حتّى يُفرِجَ عن مجموعة من الأسارى المسيحيّين المحتجَزين في سجن قاره في مكناسة، فاعتذرت لصعوبة التوسّط في مثل هذه الأمور، لكنّه ألحّ علي كثيرًا واستعطفني وأخبرني بأنّ أهل هؤلاء الأسارى مستعدُّون لدفع ثمن مرتفع في مقابل إطلاق سراح أبنائهم. فكّرت في الأمر وخطر في بالي أنّ السُلطان لن يقبل بإطلاق سراح هؤلاء، لكنّه لا يَرُدُّ ملتمس سلطان الطلبة، فكلّمت الطالب الآفاقيّ الذي كان في حاجة إلى إعانة والديه، فاقتنع وطلب منّي مبلغًا من المال فأعطيته له، لأنّي أعرف أسرته وأعرف المنطقة التي جاء منها لأنّ أصولي من هناك أيضًا. أمّا البقية فمعلومة لديك.

فقال القادري: واللّه، لقد تعجّب الجميع ممّا حدث، لكنّي أفهم الآن الأسباب. ومع ذلك، ما الذي دفعك كي تخبرني عن تدبيراتك السالفة الذكر؟ لا شكّ في أنّك تريد منّي أمرًا.

فقال التاجر: أرجو أن تتوسّط لي فيما ذكرت لك، وتقدّم الملتمس إلى مولانا أمير المؤمنين حتّى يطلق سراح الفتية الأسارى.

فقال القادري، وقد استيقظ فيه حِذقُ التّجار ودَهاؤُهم، ورأى أنّه يمكنه أن يَكسب كثيرًا من هذه الصفقة: وما الذي ستفيدني به هذه الوساطة؟

فقال التاجر اليهودي: إنّ تجارتي هي مع هؤلاء القوم، وإذا لم أنجح في مهمّتي هذه، فسأخسر كثيرًا، وإذا نجحت، فسأكسب كثيرًا. وإنّي أعاهدك على أن أقدّم إليك مبلغًا كبيرًا نظير هذه الخدمة.

ثمّ أخرج كيسًا من المال وأعطاه للقادري، فأخذه من دون تردُّد، لكنّه لم ينسَ أن يؤكّد له حصوله على المؤخّر من المبلغ عند حصول المطلوب، واتّفقا على كتمان الأمر.

خرج التاجر اليهودي جذلًا مسرورًا لأنّ تجارته لن تبور بالوساطة في إطلاق سراح الفتية الأسارى.

فلمّا كان اليوم التالي، عيّنَ سلطان الطلبة رجالَ ديوانه من الوزراء والكُتّاب والقُوّاد وغيرهم. وبعد أن شكّلَ رجالَ دولته، خرج موكب سلطان الطلبة يوم الجمعة في أبّهة الملك بعدما تولّى رجال السُلطة من قُوّاد

رجال الوداية الذين تواعدت معهم لالّة خناتة على الاحتفال بالسُلطان الجديد، فَقادُوا مُهرًا أصيلًا، وخلعوا على السُلطان خِلَعَ المَهابة والوقار، وتاج السيادة والفَخار، وسلّموه سيفًا صقيلًا. أمسك أحدُ السائسين رِكابَ المُهر فارتقى الطالبُ السُلطانُ منصبَ السيادة على الطلبة. ومشى صاحبُ المظلّة السُلطانيّة خلفه لتظليله من أشعّة الشمس. كما مشى أمامه أصنافٌ من الوُجَهاء والأشراف والعُلَماء والطلبة. ثمّ أعقبَهم رجالُ الحاشية بقفاطينهم وأعلامهم يَخفُون بالسُلطان. هلّل الطلبة وكبّروا، ورَضُوا بالسُلطان الجديد المستحِقّ كلّ تقديم وتقدير. غلَبَ الأصوات بالهُتاف، وجال الموكب في كلّ أرجاء المدينة حتّى يعلمَ القاصي والدّاني بالمَلِك المنصور، والسُلطان صاحب الخير الموفور. زغردتِ النساء، ودعا الصالحون للسُلطان بالنصر والتّمكين. زار السُلطانُ أضرحةَ فاس، وفي مقدّمتها ضريح مولاي إدريس ماهِد الدولة الإدريسيّة الشريفة، ومؤسّس مدينة فاس، ثمّ طافوا على سائر الأضرحة، حيث كان في استقبالهم الأشرافُ والمقدَّمون وأهلُ الخير وعامّةُ الناس. وبعد ذلك، توجّه الموكبُ للصّلاة في مسجد الأندلس. أدّى السُلطانُ صلاةَ الجمعة مع وزرائه وكُتّابه وجميع أفراد حاشيته، ثمّ خرج الموكب من باب الفتوح في اتّجاه حامّة سيدي حرازَم ليستقِرّ في مَضاربه خارج المدينة على ضفاف وادي فاس. كان ضريح السُلطان مولاي رشيد هناك إلى جوار ضريح الشّيخ سيدي حرزِهم، وكان من البرور أن تقام الاحتفالات عند ضريح السُلطان الذي استحدث هذه الاحتفاليّة، والاعتراف بأفضاله عليهم.

نزل سلطان الطلبة في خيمته الملوكيّة. وبعد أن استقرّ في مملكته، وتفقّدَ أحوال رعيّته في تلك المنازل، جاء المنادي يَزُفُّ خبرَ وصولِ مَبعوثِ السُلطان مولايْ إسماعيل، الشريفِ الأمثلِ، الأميرِ مولاي عبد اللّه. رتّب قُوّاد الوداية ما تمّ الاتّفاقُ عليه مُسبقًا، فنزل الأمير نيابةً عن والده الذي كان يحضر في السّنوات الماضية هذه الاحتفالات، لكنّ تَقَدُّمَهُ في السّنّ جعله يُفَوّضُ الأمر هذه السنة إلى ولده مولاي عبد اللّه. كانت الخيمة السُلطانيّة التي عادة ما يَنزلها السُلطان الفعلي للبلاد بالقرب من خيمة قائد جيش الوداية الذي كان يحمِل لقبَ الباشا. نزل مولاي عبد اللّه في خيمته، فجاءه وزير سلطان الطلبة يطلب منه أن يتفضّل بزيارة مملكة سلطانه. ثمّ جاء مُحتَسِبُ سلطان الطلبة راكبًا على ظهر جَمَل، واضعًا مِخَدّةً تحت ثيابه حتّى بدا بطنه منتفخًا كبطون أهل الكِبَرِ والبَطَر. لم تنفعه الحِسبةُ في أن يحاسب بطنه أوّلًا، بل اكتفى بمحاسبة الناس من دون محاسبة نفسه. وضع على رأسه عمامةً عظيمة، وحمل في يده اليسرى عصًا طويلة،

وفي يده اليمنى سُبحةٌ من التين المنظوم من جريدِ النَّخل، وتدلّت على عنقه خبزة ضخمة كأنّها ساعة، مشدودةٌ بحبلٍ من القِنّبِ في حالة من الإزراء التي تبعث على الضحك والانكفاء. تجمّعت الجموع من حوله، وقام خطيبًا في الناس كأنّه قُسُّ بن ساعِدة، يُرصّعُ الكلام، وينثُر الأسجاع المقعَّرَة، والألفاظ الغريبة، ويتفكّهُ بأفانين القول، وبدائع الصُّنع، وغرائب الشِّبك، مستشهدًا طورًا بآية، ومرّةً بحديث، وثالثةً بشِعر أو حكمة، ومرّةً بأقواله السَّخيفة يرصفها إلى جانب ما سبق حتّى يُعطي لنفسه وَجاهَة زائفة. فتراه يتطاير من قول إلى قول، ومن ميدان الضَّراعة والابتهال، إلى مضمار الفُتُوَّةِ بابتذال. فلو أنّك غريبٌ عن هذه المضارب لحسبتَ الرجلَ من مجانين العقلاء أو عقلاء المجانين، فطورًا يجوسُ في الأدب، وطورًا يُبَكّتُ المتمرّدين وأهل الفتنة والزَّيغِ الفلاعين. فلا ترى مُنصِتًا إلّا ماسِكًا بطنه من الضحك، والمحتسِبُ ماضٍ في شهامته السَّخيفة يبتدِرُ القولَ بعد القول، ويَصحَبُ النُّكتةَ البلاغية بالمُلحَةِ السُّفاهِيَّة، فلا تدري دَبِيرًا من قَبِيل، وتَحسَبُ أنّك في مضمار الطير الأبابيل تَقرَعُ هامات الرؤوس بحِجارة من سِجّيل. كان لا يَكُفُّ عن الزَّعِيق، ولا يتورَّعُ عن الشَّهيق، فتارة يتباكى، وتارة يتحسَّر، ومرّة يعتبر، وأخرى يَكفهِرّ. تتلقَّفُ الأسماع كلماته كأنّها فرقعات مُلقاةٌ على طبلات الآذان، قبل فرقعة الأطبال. بدأ بالتحميد، وثنّاهُ بالعطف على أكلِ السَّمن والثريد، وشَفَعَهُ بالنَّظر في صحّة الأبدان التي لا يقوم لها مقام، إلّا بمعالجتها بألوان الطعام، وأصناف المآكل والألحام.

معاشرَ الطلبة، وأهلَ الولائم والزُّرْدَة، لِلّهِ دَرُّ من استكَدَّ بالأضراس الثّابتة تلك الرِّمَمَ المستكَدّة حتّى أفرغَ مُخَّ العظام بِسَغَّةٍ كأنّها جَذبَةُ الروح إلى البرزخ.

عباد اللّه، الحمد للّه الذي خلق الإنسان، ومنحه كلَّ خُلُقٍ بالتّمام، أوصيكُم ونفسي بتقوى اللّه في السِّرّ والعَلَن إلّا على الولائم والموائد، فلا تَقوى تُلهي عن هذه الطيبات، وإنّما غُدُوا السّيز إليها، واصطناع الوَجاهة فيها من أقربِ القربات. فأوّلُ ما تجب العنايةُ به توسيعُ الأشداق، وتنقيةُ الأطباق. وتمرّسُوا على الاستِنانِ وتحديدِ الأسنان، فإنّهما عنوانُ الصّحة، والبابُ المُشرَعُ في كلّ فُسحَة. وإيّاكم أن تُهمِلوا الأصابع، فإنّ بها يَصِحُّ تناوُلُ الأكارِع، وتعاهَدوها بالنَّظافة، وتخيّروا لها الفِلَظَ والكَثافة، ولا تُقصاوُنوها باصطناع الرِّقّة واللّطافة، فإنّها مَقابِضُكُم التي بها تبطشون، وسيوفُكُم التي بها تكسرون، وسكاكينكم التي بها تَقطَعون، فإن أنتم كنتم من ذوي البَراجِم المعتلّة والسَّلامِيّات المُستدِقّة، أسِفَت أضراسُكُم لعجزها

عن معالجة تلك الطيبات، وبقيَت دونَها حواجزُ التَّناوُل مُعَمَّياتٍ ومُبهَمات.

عبادَ اللَّـه، إنَّ اللَّـه أمرَكُم بأكل الطيِّبات، ونهاكم عن الزُّهدِ في المكرمات، ونصبَ لكم علامةً في فُسطاطِ كتاب اللَّـه، فإذا قرأتم الفاتحة تبدَّى لكم سَنامُ القرآن في البقرة، فادخلوا الخيام بسلام، واعتبروا بقوله تعالى}إنَّ اللَّـهَ يامُرُكُمُ أن تَذبَحُوا بَقَرَةً{، فَلْتَلقَها السَّكاكينُ بالذَّبح، وتُعَرّ عن شحومِها ولحومها بالسَّفح، ثمَّ انشروا تلك الشَّرائح على جمر الشُّواء. فإن أحسنتم الذَّبحَة، جاءتكم سورةُ المائدة تَزُفُّ إليكم بشرى الطعام على أخوِنَةِ الكِرام، فتناولوا منها ما يَطِيبُ ويُستطاب، واستَنجِعُوا هناك بالكَرّ والفَرّ.

وإن أذَّنَ المؤذّن وأنتم تُعالجون الطَّنجِيَات[5] المراكشيَّة، فلا تَغفَلُوا عن مُواصلة الطعام حتَّى تَستَوفُوا حَقَّكُم منه بالتَّمام، ولا تُدبِرُوا عنها لأنَّ الطَّنجِيَةَ المختَّمَة باتت اللَّيلَ كلَّهُ تنتظِرُ من يَزُفُّها إليكم، فاستَصفُوا بِمِبزَلِ شِفاهِكُم وألسنَتِكُم شَهْدَ ذلك المَرَقِ المسكوبِ من نَحرِ تلك الدِّنانِ الزَّنجَفُورِيَّة. وإيَّاكُم أن تتورَّعوا عن الطيِّبات، فإنَّ للصلاةِ وقتين، وإن فاتتكم عزيمةُ الأداء، لجأتم إلى رُخصَة القضاء. أمَّا إن فاتكم وقتُ تلك الطيِّبات، فلا أداءَ ولا قضاء، لأنَّ جموعَ أهلِ الزَّردَة قد مَرُّوا قبلَكُم وسَفُّوا طعامَكم، وتركوا القِصاعَ قاعًا صَفصَفًا، ولم يتركوا لكم ما به تتبلَّغُون، أو ما به تَستَمرِئُونَ أو تَلُوكون. وإنِّي ناصح لكم، مُرِيدٌ كلَّ خيرٍ بكم، وإيَّاكم أن تَغفُلُوا عن هذه المِنَح، واهجُروا الوَرَع، وشُقُّوا إلى الطِّعام الثُّرَع، واستَطِيبُوا منها بمعالجة الطواجين، فمن دجاج مشويّ إلى فراخ محشوَّة، وصُنوفٍ تُتَناوَلُ على طَرَفِ المَنشِيَة. وإن قَدِمَ عليكم سَيِّدُ الأطعمة وإمامُها، الكُسكُسُ الشَّريف، فأرسِلُوا مَدارِي صُبعانِكُم في قُبَّتِهِ المُبهِجَة، واستنزِلوا اللُّقَمَ العظيمة في خير قاع، وشُقُّوا سَواقي البُلُولِ مِنِ ارتِفاع، ولا تتورَّعُوا عن إردافِ اللُّقمة على اللُّقمة كما تفعل كُورُ المدافِع بالأعداء حتَّى تَهُدَّ أسوارَ الجوع، وتَدُكَّ أبراجَ الجِرمان. والتَزِمُوا معشرَ الفقهاء شَرطَ الموالاة في باب الفِقه، واعتبروها من الفرائض لا المستحبّات، حتَّى تَدمَعَ منها المدامِعُ، وتُنادي على إقامتها المآذنُ والمجامع. واحفِروا الحُفَرَ العظيمة واجلُبُوا القطع الكبيرة، وكَوِّرُوا اللُّقَمَ، وسُدُّوا الخَلَلَ، وألحَدُوها في مُستَقَرِّ بِيطانِكُم. ولا تلتَفِتُوا إلى الوُصفان حين يَقرعونَ آذانَكُم بتعجيلِ وُصول الطَّاسِ والمِنديل، فأمامَكم وَقتٌ لِلَعقِ الأصابع وغسل الأطراف، وقبلَها لا بُدَّ من إبداء التَّوقِيرِ والتشريف لعَروسِ الأطعمة وزينة الموائد، فَخامةِ الكُسكُسِ المجيد، المصنوعِ من خالص القَمحِ والسَّمِيد، فهو السُّلطان الأعظم الذي ينبغي له الإجلالُ والتَّفخيم، وارضَ عن حاجبه الأمين، مولانا اللَّبنِ الصافي الهاضم المعين، ونخبة وُزرائه الأنجاب من

الطَّواجِينِ المعمَّمَة الأصحاب، ولا تَحرِمنا يا مولانا كاتِبَ سِرِّهِ البَصِير مولانا البَغرِير[6]، فإنَّه آذان سَمِيعَةٌ، وثُقوبٌ رفيعة، ولاسِيَّما حين يَقطُرُ كلامُه بالسَّمنِ والعَسَل، ويَسِيحُ في مَيادينِ الصَّحائِفِ بلا كَلَل، فلا مزيد على حَذاقَتِهِ، ولا ثاني لفَرادَتِه حتَّى لكأنَّه شَبِيكَةٌ صفراء، وشَملَةٌ ملساء.

عبادَ اللَّـه، ارفَعُوا أكُفَّ الضَّراعَة إلى مولانا السُلطان الذي ملَك هذه البلاد، ورتَّبَ شؤونَ العباد، واستوى خلفَه رَعِيَّةٌ من الجُرذان، ولفيَف من القَمل والبَراغيث والذُّبَان، أجارنا اللَّـه منهم، وأعاذنا من خُبثِ لَسَعاتِهِم، ولا أرانا كَوالِحَ وُجوههم، فهي جيوشٌ قاهرة، وقَرَصاتُها مُهلِكَةٌ ظاهرة.

عبادَ اللَّـه، عليكم بالسَّمع والطَّاعة لصاحبِ جيش المَناعة، فأمرُهُ نافذٌ مُطاع، ونحن طَوعُ بنانِهِ كُلُّنا أسماع. عبادَ اللَّـه لا تُلقوا دِلاءَ المياه في بطونكم، ولا أسطالَ الألبان في قيعانكم حتَّى تَستَوفُوا مِن مُناجَزَةِ المائدة التي أثنَى على أطايِبِها رَبُّنا في سورة المائدة. فها قد نَبَّهتُكُم، وإلى أقوَمِ طريق أرشَدتُكُم. وإيَّاكم والحِرص، فإنَّه مَنقَبَةُ البخلاء، وحاشاكم والاقتصاد، فإنَّه خَلَّةُ الأشِحَّاء، ولا يَغُرَّنَّكُم تَطرِيراتُ أماثِلِ البخلاء كسهل بن هارون وابن غزوان، فتلك أُمَّةٌ قد خَلَت، وليس لها إلَّا ما كَسَبَت، وعليها ما اكتَسَبَت، ونحن وللَّـه الحمد في مملكة مولانا السُلطان نعيش أهنأ الأزمان. فإنَّ القومَ أطنبوا في ذَمِّ البذل لما دُعُوا إلى إخراجِه من خزائنهم، لكنَّهم استَطيَبُوهُ وامتدَحُوه حين كان مَصروفًا إليهم من غيرهم. فلا يستَحمِرَنَّكُم مُستَحمِرُ مَعاشرَ الطلبة الأخيار، فقد أسهرتم ليلكم وأمضيتم نهارَكم في الكتب البالية الصَّفراء، حتَّى عَشَت أبصارُكُم بمطاردة العَثَّةِ والسُمَيكاءِ، والصَّراصير والأرَضَةِ النَّخراء. فلا تَنسَوا وصيَّتي لكم، ومِيلُوا كلَّ الميل إلى هذه الزُّردَةِ الباهية، والأطعمة الزاهية، ولا تُعالجوها إلَّا بإسراف، فإنَّه لا خيرَ في اقتصادِ هذه الأطراف. واسألوا أنفسكم، لماذا الاقتصاد؟ وقد جعل اللَّـه لكم بدلًا من إصبع أحدَ عَشَرَ حتَّى تُكثروا من التَّلَقُّم، وتُبهِجُوا الحُلُوقَ بِسابِغِ اللُّقَم. ثمَّ ثَنَّى الناس الأصابعَ والأيدي بعدَّة آلات، من المغارف والملاعق والسكاكين وما سوى ذلك. أليس ذلك حرصًا على حُسن المعاملة، وقَطعًا لكلِّ تَرَدُّدٍ أو مُلاككَة. فمن كانت به عِلَّةٌ في الأصابع والكُفوف، استعان بهذه الأيدي المضاعَفَة التي لا تخشى حرًّا ولا قَرًّا، بل هي تصول في الطعام وتجول، وتُسرِعُ بمناولَتِه إلى الأفواه المُتَلَمِّظَة والشِّفاه المُتَمَطِّقَة، ويعالجها ماءُ اللُّعابِ حتَّى يُوهِنَها بالتَّرطِيب فَتَدهَسَها الأضراسُ حتَّى تَركُمَها بَعدُ في البُلعُوم نحو بيت المَعِدَة.

معشرَ الطَّلبة الأماثِل، ومنتخبَ أهلَ القِبلَةِ الأفاضِل، قد وقفتُ فيكم خطيبًا لأنَّ مذاكرةَ الفقهاء تُلقحُ العقول، وتَشفِي غَليلَ البُطون، فما رأيتُ

أحرَص منكم على امتثالِ أوامرِ الشَّرع في أكل الطيّبات، والخروجِ عن بدعة المبتدعين والمبتدعات، ممَّن سَئُوا الزهدَ والجوعَ والسَّغَب من طوائف الصوفيَّة والصوفيَّات. فهم بحرصهم على تخريب البدن، ولُزومِ الفَقرِ واصفِرارِ الوُجُوهِ وَكَشحِ البُطون، قد أحدثوا بِدَعًا مُنكَرَة لم يأمر بها الشَّرعُ الحَنِيف، وهذا الطعام الخفيف المُنيف، الذي لا يَطلبُ إلَّا أن تَلوكَهُ الألسُنُ وتُعالِجَهُ الأضراسُ وتَستَمرِئَهُ الألسُن، وتَهضِمَهُ البُطون. فإن اتَّهَمُوكم بالتَّضييع، وذكروا لكم قول الربِّ السَّميع عن خَلَّةِ التَّبذير والمبذرين، فقولوا لهم إنَّ المرءَ لا يَعلَمُ بأنَّه من المفَرِّطِينَ حتَّى يسمَعَ بأخبار الصالحين من الوارثِينَ على موائِدِ أهلِ الفَضلِ مِنَ الفارِشِين، فَيُدرِكَ أنَّه قد فاتَه من الحَسَنات بقدر تفريطه في هاتِيك اللُّقَيمات وتلك اللُّحيمات، وأنَّ دخولَ الجِنان معقودٌ على أكلِ لَحمَةِ الجَنانِ. فلا تُلقُوا لهم بالًا، ولا تَسمعوا لهم مقالًا، وأعرِضُوا عن زَيفِ الجوع إلى ناصِع الشِّبَع. فَرُبَّ زَردَةٍ أورَثَت سَعدًا وأدبًا وجاهًا، وَرُبَّ مَسغَبَةٍ أورَثَت نَحسًا وَقِلَّةً مُرُوءَةٍ وَذُلًّا. وكم يجني المرءُ من الفوائد حين يتحلَّقُ حول الموائد؟

عبادَ اللَّـه، أكثِروا من الصَّلاة والسَّلام على النَّبيّ الهادي العدنان، المُطعِم بِمُدٍّ مِن شعير جيشًا من العُربان، ولا تَنسَوا تفضيلَه لِلَحمِ الكَتِف، وعنايتَه بالحَلواء والدُّبَاء، فأين قولُ أولئك المبتدعين عن مناقب الجوع، وآفات الشِّبَع؟ وانظروا إلى ما ادَّخره لكم ربُّكم في رباع الجنان وعرصاتها من الطيّبات والخيرات تعلموا أنَّ الجِدَّ كلَّ الجِدِّ في البروز لكلّ الولائم، والتقاطر على كلّ عُرس وعقيقة بالتمائم. ألا فأقبِلُوا على هذه القِصاع المُلكانيَّة، والصَّحائف السُّلطانيَّة، ولا تَذروها حتَّى تتناولوها بالأيدي، وتَفُكُّوها بالصُّبعان، وتَهرِسُوها بِأحَدِ الأضراس والأسنان، ثمَّ تُفرِغُوها في البطون، ولا تُرجِعُوها إلَّا وقد صَفِرَت مِنَ الطعام بِلَعقِكُم، وطَنَّت فَراغًا بِلُحُونِ نَبشِكُم.

عبادَ اللَّـه، إنَّ اللَّـه قد بدأ بنفسه، وثَنَّى بملائكة قُدسِه، وأمركم بالصَّلاة على خيرِ نبيّ، وأكرمِ صَفِيّ، فَصَلُّوا وسَلِّمُوا على سيّدنا محمَّد بن عبد اللَّـه، القائِم بِحَقِّ اللَّـه، ما ضاقَ أمرٌ إلَّا فَرَّجَهُ اللَّـه، اللَّهُمَّ فَرِّج همومَنا، واكشِف كُرُباتِ بُطُونِنا، ولا تَكِلْنا طرفَةَ عَينٍ إلى بخيل أو حَريص. أحبابي معاشِرَ الطلبة الفقهاء، لا تَنسَوا الفَضلَ بينكم، ولِينُوا إلى جانِبِ إخوانِكُم، وأقبِلُوا على هذه الموائِد المصَفَّفَة، ولا تنصَرِفُوا عنها إلَّا وقد قَضَيتُم مآرِبَكُم وأسعَدتُم مُكرِمَكُم، وغَنِمتُم من طول عُسرِكُم ومَترَبَتِكُم إلى كَرَمِ هذه الأيَّام يُسرًا مُضاعَفًا، وتذكَّروا أنَّ المَسغَبَةَ سيفٌ مُضلَت على أمثالِكم من طلبة العلم طوال السَّنة. ويكفي أن تتحَسَّسُوا عظام أصلابكم التي تشبه فَزاكَةَ

الغَسّالات من شدة الهُزال. فلا تَرجِعُوا عن الجوع إلّا بالشِّبَع الذي يَكسِر الجِرمان، وادّخِرُوا بهذه الشوَيعات لِما بَقِيَ في عُمرِكُم من السَّنَوات العِجاف. ولا تَركَنُوا إلى قول نُقَباءِ الجوع عن الملذّات المدّخَرة لكم في جِنان يوم القيامة، وتذكّروا قول اللّه تعالى }وَمَن كانَ فِي هَٰذِهِ أعمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أعمَىٰ وأضَلُّ سَبِيلًا{، فإن فاتَتكُم زَرداتُ هذه الحياة، عَمِيتُم عن زَرداتِ الآخرة. فها قد نصحتُكُم، وكلامُ اللّه بيننا يُفصِّلُ القول ويُبَيِّنُ الحقّ، فلا تُصَدِّقُوا أهلَ الجرصِ ممَّن أفرطوا حتّى حَدُّوا السَّرَفَ بأنَّهُ في الماغونَيين الماءِ والكلأ، فَبِئسَ التّعريفُ، وبِئسَ المذهَبُ. ومِيلُوا إلى القِصاع المقبَّبَة كُلَّ المَيلِ حتّى تَذرُوها كالمُعَلَّقة. فإذا لم يبقَ فيها باقية، العَقُوا أصابعكم من الدَّسَم، وتَتَبَّعُوا كُلَّ حَبَّةٍ كُسكُس، فإنّها تُثقِلُ ميزانَ الحسَنات، ولا تَزهَدُوا في العِظام، بل تَمَخَّخُوها بالامتِشاش، فإنّها مِن أطيَبِ ما يَكون، وأنضَعِ ما يَنزِلُ في البُلعُوم.

هذا قولي لكم، ولستُ إلّا ناصحًا إياكم، وانظروا إلى أثر هذا الحرص عليّ بحمد اللّه، تَرَوا عجبًا، فمَن منكُم لا يَغبِطُني على هذا البطن المُدَوَّرِ المُبارك الذي أدَّخِرُ فيه طعامَ الأيادي البيضاء لأيّامِ المَساغِب السّوداء. وإنّي لم أفعَل ذلك إلّا لَمّا تَدَبَّرتُ المخلوقات، فوجدتُ أرزَنَها عَقلًا، وأرجَحَها تدبيرًا، وأحزَمَها على الحياة، مَعاشِرَ الإبل، إذِ ادَّخَرت أقواتَها في أسنِمَتِها، وكذلك تفعلونَ، ويَنبَغي لكم ألّا تَجهَلُوا، إن كنتم ترجونَ لأنفسكم خيرًا. هذا قولي لكم، وباللّه التوفيق، ولَنا الأكلُ وعليه التّكلان.

***

بعد أن استوفى المحتسِبُ المُسِنُّ مقالته العجيبة وخطبته الفريدة، وتفكَّهَت الجموعُ من شناعته المستَشرِيَة، وصفاقَتِه المستَعلِية، تقدَّمَ سلطانُ الطلبة راكبًا على مَهره، فترجَّلَ أمام مولاي عبد اللّه، نائب السّلطان مولاي إسماعيل، وتقدّمَ نحوه وقبّلَ يده الكريمة، ثمّ سلّمَه خطابًا فيه لائحةٌ بملتمساتِه التي يرجو تحقيقَها، ويروم تنفيذَها من إطلاق أسير أو دفع دَينٍ عن أجير، أو إعانة أرملة، أو رعاية مُسِنٍّ أو مسكين ذي مَتربَةٍ ومَرمَلة، أو غير ذلك من الملتمسات التي تُقَدَّمُ في مثل هذه المناسبات، ويُتنافَسُ في إيصالها إلى رافِعِ المَظلَمات. وضمن تلك الملتمسات، طلب إطلاق سراح الفتية النصارى من الأسارى في سجن قاره، بحسب ما اتّفق عليه مع التاجر اليهودي.

تأخّرَ القادري قليلًا ليركّبَ فرسه، ثمّ تقدَّمَ حتّى وقف إلى جانب فَرَسِ السّلطان. أشار مولاي عبد اللّه إلى رجاله بتقديم الهدايا إلى سلطان الطلبة وحاشيته، فتحوا الصناديق وفيها من الصُّلات المتنوّعة ما يُبهِجُ القلوب

وتَقَرُّ به الأعيُن. خِلَعٌ وقَفاطِينُ وفُوقِيّاتٌ وسراويلُ وشلاهِم وعمائمُ وطواقٍ وطرابيش، وكتبٌ في العلوم التي تُدَرَّسُ في القرويِّين. ثمّ سلَّم مولاي عبد اللّه إلى سلطان الطلبة كيسًا ممتلئًا بالمثاقيل الذهبيّة.

طاف المحتسبُ البدينُ على تلك الجموع يُوَزِّعُ على الطلبة المكروبين الهدايا التي جمعها في حملته خلال أيّام الترشُّح الماضية. كانت الأجواء ساخرة وفاكهة.

عجيبٌ أن يتحوَّلَ المحتسبُ الذي يحاسِبُ أصحابَ المهن والحِرَفِ والصناعات على أعمالهم، ويراقبُهُم، ويسهرُ على جودة مشغولاتهم، إلى مَوضوعٍ للتَّفكُّه، وكأنَّ الجِدَّ المطلوب طوال السَّنة لابدَّ له من هَزلٍ عارض، يجعل الناسَ يضحكون ممَّن مهمّته أن يراقبهم طوال السَّنة، ويفرضَ عليهم الغرائمَ، ويَزُجَّ بهم في السُّجون إن اقتضى الأمرُ ذلك حين تحرير المخالفات وضبط المحرَّمات من الفِشِّ والتَّدليس وما إلى ذلك من ضروب التَّلاعُب، وصنوف التَّهاوُن. لقد كَرَّتِ الكَرَّةُ اليومَ حتَّى يضحكَ أهلُ البلد جميعًا من المحتسِب الذي عادة ما يَسُوسُهُم بكلّ أنواع الحزم، فها قد تحوَّلَ إلى مَسخَرَةٍ «تُضحِكُ منه الثَّكلَى، وتُسقِطُ منه الحُبلى، ويَشِيبُ منه الأقرع». وتَنبتُ به الأضراسُ لكلّ ألَمٍ. دُوَلٌ هي الأيّامُ بين الناس، فاعتَبِر أيُّها المعتبر، وطوبى لمن سَنَّ مثل هذا التَّداول في الأدوار والوظائف حتَّى لا يَظُنَّ المستنيمُ أنّه على عَهدِه القديم لا يُناكِشُهُ فيه مَوتُورٌ ولا مَبثُور، بل هي السَّاعة الحانِيَة لك، والوقيعةُ اللُّطماءُ عليك. فإن أمضَيتَ الأمور بِحُسنِ تدبير كنتَ من الفائزين. وإن أنتَ طَغَيت، وسَمتَ الناس بألوان الاضطهاد وبَغَيت، كانت عليك اليومَ قبلَ الغدِ، وأمسِ قبلَ اليوم.

أمضى الطلبة يومَهم ذاك في فرح وحُبور، وأُلقِيَتِ القصائد الشعريَّة، وتنعَّموا بتلك النزهة على ضفاف وادي فاس. فمن خطيب قائم، وشاعر منشد، ومتفكِّه متنذِّر. كان عرسًا يَمضيه الطلبة في هذه البساتين الغنَّاء بين أشجار الزيتون والحقول المزركشة بأنواع الأزهار والثِّمار. السَّعدُ في إقبال، والنَّحسُ في إدبار، والحُسنُ في احتِفال، والقُبحُ في استِتار. ما أحلى النزهةَ مع الطلبة بعد عامٍ من الكدّ والجِدّ. جلس مولاي عبد اللّه مع العُلماء والوُجهاء والنُّبَهاء من الطلبة وتفرَّسَ فيهم، وتحدَّث إليهم، ونقل إليهم عطفَ والدِه، وسمعوا منه مقالَتَه. فَمِن هؤلاء يُختارُ أهلُ الحَلِّ والعقد، ففيهم ينتخب الوزراء والكُتَّاب والقُضاة ومَن سوى ذلك ممَّن تحتاج إليهم الدَّولةُ في شُؤونها، وعليه أن يختار منهم ممَّن سيَضُمُّهُ إلى رجال ثقته حتَّى يستعينَ بهم في قابل الأيّام. زار ضريحَ عمِّه السُّلطانِ مولاي رشيد، الذي سَنَّ عادة الاحتفال بسلطان الطلبة، فترحَّم عليه. كان

عبد اللّه مُهابًا، أزهرَ اللّون، به فلاجَةٌ يسيرة، وعلى خَدِّهِ شامَة. أصابعُه طويلة، يُباشِرُ الأمورَ بنفسه. كان الطلبة قد مالوا إليه مَيلًا عَظيمًا على الرّغم من هيبَتِه الظاهرة، فترك فيهم أثرًا طيّبًا، واستلطفوه كثيرًا. ولم يَشُذَّ عن القاعدة أساتِذَتُهُم من علماء القرويّين، فإنّهم أثنَوا الثّناءَ الحَسَنَ عليه، وخَصُّوه بمدح وتعظيم. وهذا ما كان يطمحُ إليه من حُبّ الناس، ولاسيّما في مدينة فاس، المعروفة بأنّها كثيرةُ التّمَنُّع صَعبَةُ المِراس. فقلّما يَسلَمُ لها واصِل، وذلك حالُ كُلّ المُدُنِ الحَفِيلَة، ذاتِ الحضارة الأصيلة، التي لا تقبَلُ الخُطّاب على كثرتهم حتّى يُوفُوا بشروطها، ويُسلِمُوا إليها أمرَ عِصمَتِها. فإن بَدَرَ منهم عُشرُ زَلّة، لوّحت بالطّلاق، وأشهَرَت في وجوهِهِم وَثيقةَ الفِراق.

غادر مولاي عبد اللّه الطلبة الذين استَمَرُّوا في نزهتهم طوال الأسبوع مُتَفَكِّهِينَ، تتوالى عليهم الموائدُ والولائم بعد عام من التَّقَلُّلِ والمَخمَصَة، لا يَشُمُّونَ فيه رائحةَ لحم، ولا يحلُمون بمثل هذه البَساطِلِ[Z] والطّواجِن، وما سواها من الأطباق السّواخِن. فها قد حان الوقتُ كي يعوّضوا في أسبوعٍ عَن جُوعِ سَنَة، ويَثأرُوا من تلك اللّيالي الطويلة الطّاوية التي لم تُبقِ لهم إلّا أجسامًا نَحِيلَة، باستثناء مَن كان منهم مِن ذَوِي اليَسار والغِنى. كان على القادري، سلطانِ الطلبة، ألّا يتعوّدَ على لَعِبِ دَورِ السُّلطان أكثرَ من أسبوع، وإلّا نُكّلَ به أشَدَّ تَنكِيل من جُموع الطلبة المتربّصين به، فالجميع يعلم بأنّ اللّعِبَ في أحيازِ الملوك مَحفوفٌ بالمهالك والمخاطر. فما إن تنقضي اللّيلةُ السابعة حتّى يعودَ الطلبةُ إلى فقرهم ومَخمَصَتِهِم، وعلى سلطانهم ألّا يتشوّفَ إلى مُلكٍ أو سلطان، وإلّا عَدَت عليه بالرّكلِ والرّفسِ جُموعُ الطُّلبان. كان القادري أنبَهَ مِن أن يُغَرِّرَ به المغَرِّرون من رجال حاشيته المتحلّقِينَ المتملّقِين. وهم إن زَيّنُوا لَهُ وَأغرَوه، فإنّما كانوا يُريدون به شَرًّا، ويتشَوَّفُونَ إلى أن ينتَقِمُوا منه طُرًّا، لعدم فوزِهِم بمنصِبِ سلطان الطّلبة. فلم تَكَد شمسُ اليوم السّابع تغرُب حتّى نزع القادري تاجَ مُلكه وتَبَرَّأ من سُلطانه، وانسَلَكَ في عُموم التُّعَساء، لا يَبغي مُلكًا، ولا يَشرَئِبُّ إلى سَلطَنَة، وانحاشَ إلى الخُمُول لأنّه أسلَمُ، وترك الظُّهورَ لأنّه بالحَسرَةِ مَقرُونٌ وَأندَم. أمّا المزيّنُون له في التّلَبُّثِ، المصانِعون له في التّرَيُّث، فإنّما كانوا يخدعونه حتّى يَهجُمُوا عليه بالعِصِيّ فيُشبِعوه ضربًا، ويُبرِحُوا أخمَصَ قَدَمَيهِ طَرحًا. وبعد أن يُمَثِّلُوا به ويُنَكِّلُوا، يُسارعون بإلقائه في وادي فاس، حتّى يتعلّمَ أنّ المُلك لا يُهانُ في المزادات العلنيّة ولا يُداس، وإنّما يمنَحُه الحقُّ لمن اصطفاه كما تعلّموا ذلك في دروسهم في جامع القرويين }قُلِ اللّهُمَّ مالِكَ المُلكِ تُوتِي المُلكَ مَن تَشاءُ وَتَنزِعُ المُلكَ مِمَّن تَشاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشاءُ وَتُذِلُّ مَن

تَشاءُ بِيَدِكَ الخَيرُ إنَّك عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ}.

***

عاد عبدُ اللّه إلى مكناسة بعد أن اتَّخَذَ الترتيبات الضَّروريَّة لِكَسبِ الأنصار في حاضرة فاس الفشاكِسَة. وما إن وصل إلى الحاضرة الإسماعيليَّة حتَّى اتَّصَلَ بوالدته فأخبرها بما حدث في فاس، وأنهى إلى والدِه الملتمسات التي قدَّمها سلطانُ الطلبة فأجازها، ومن بينها إطلاقُ سراح الفتية النصارى الأسارى في سجن قاره في مقابل إطلاق أسارى من المغرب الأوسط كانوا قد كاتبوا السُلطان في ذلك واستشفعوه، وأيضًا لمصلحة الدولة في انتعاش التجارة بين المملكتين المغربيَّة والفرنسيَّة.

وفي جمادى سنة تسع وثلاثين ومئة وألف هجريَّة (1726م)، مرض مولاي إسماعيل، وبقي أيَّامًا وهو في حالة من الضُّعف، فبعث إلى ولده مولاي أحمد، صاحب تادلة لِيَقدُمَ عليه.

وصل مولاي أحمد إلى العاصمة الإسماعيليَّة في أُبَّهَةٍ من المُلك لا تُخطِئُها العين، فتأكَّدَت لالَّة خُناثة من صِدق الأخبار التي وصلَتها عن كون زوجها إسماعيل ربَّما يكونُ قد عَهِدَ إلى ولده مولاي أحمد في الأمر من بعده. أرسلَت عيونَها تَلتَقِطُ الأخبار من هنا وهناك. جاءها مَرجانُ الكبير صاحبُ بيت المال، فأخبرها بأنَّ الأمرَ جَلَل، وأنَّ مولاي إسماعيل يُنازِعُ الموت، وأنَّه قد طلبه وأوصاه بِحِفظِ الأموال، وأمَرَهُ بأن يُسَلِّمَها إلى من يتولَّى بعده، أسرعَت لالَّة خناثة بعد حديثِها مع القايد مرجان، فأودَعَت أموالَها الخاصَّة بها في خزانةٍ سِرِّيَّة في دارها حتَّى لا يَطَّلِعَ عليها أحد. كانت تعلَمُ بأن أوقاتَ انتقالِ المُلك تكون مقرونة غالبًا بالفِتَن، وأنَّ المالَ وقتَها يساعِدُ على تجاوُزِ الصِّعاب، وإبعادِ السُيُوفِ عن الرِّقاب. استَحضَرَت حديثًا يقول «إذا مَررتُم بِأرضٍ ليس فيها سلطانٌ فلا تدخلوها، إنَّما السلطانُ ظِلُّ اللّه وَرُمحُهُ في الأرض»، فالبلاد التي ليس فيها سلطةٌ ولا دولةٌ، مفتوحةٌ على كلِّ أنواع الفِتن. والظِّلّ هو الرخاء، والرُّمحُ هو العدل والقضاء اللذان يحرسان المستظلّين.

دعا السُلطان مولاي إسماعيل وزيرَه العالمَ الأديبَ، أبا العباس اليحمدي، وقال له: إنِّي في آخر يوم من أيَّام الدنيا، فأحببتُ أن تُشيرَ عليّ بِمَن أقلِّدُهُ هذا الأمرَ من ولدي لأنَّك أعرَفُ بأحوالهم منِّي.

فقال اليحمدي: يا مولانا، لقد كلَّفتَنِي أمرًا عظيمًا، وأنا أقولُ الحقَّ، إنَّه لا وَلَدَ لك تُقَلِّدُهُ أمرَ المسلمين. كان لك ثلاثة، المولى محرِز، والمولى المأمون، والمولى محمّد، فقبضهم اللّه إليه.

فقال له السُلطان: «جزاك اللّه خيرًا».

ثمَّ ودَّعَهُ وانصرف.

جاءت خناثة إلى زوجها، بعد ذلك، فابتسم لها، وقال لها: هذا آخِرُ يومٍ لي في هذه الدُّنيا يا سِتَّ الدار.

فقالت خناثة: تعيش إن شاء اللَّه عُمرًا مَدِيدًا.

فقال مولاي إسماعيل: لقد دَنَت ساعتي يا خناثة، وإنِّي قد استَشَرتُ رجالي فيمن يَخلُفُنِي. وقد كنت وَعَدتُ لالَّة عيشة، رحمة اللَّه عليها، بأن أوَلِّي أحدَ أبنائها بعدما قتلتُ مولاي زيدان الذي ثار ضدي. فتوسَّلَت منِّي أن أوَلِّي مولاي أحمد تعويضًا عن قتل ولدها الذي كان سببًا في منحها لقب «السُلطانة زيدانة»، وإنِّي مُنجِزٌ وعدي لها حتَّى لا أخذُلَها في هذه السَّاعة، بعدما تكافَأت حظوظُ سائر أولادي.

فقالت لالَّة خناثة: السَّمعُ والطاعَةُ لأمرِ أميرِ المؤمنين.

فقال مولاي إسماعيل: بورك فيك يا سيِّدة الدار، فقد كنتِ لي نِعمَ الوَزير والمُشير، وأعَنتِنِي في تدبير شؤون الدولة، ونجَحتِ فيما كلَّفتُكِ به. وقد أوصَيتُ بتوقيرِكِ واحترامِك وعدَمِ التَّعَرُّضِ لممتلكاتِك وأموالِك من بعدي. كما أنِّي أوصَيتُ رجالَ ثقتي بتقديم مولاي عبد اللَّه بعد أخيه مولاي أحمد، إن كتبَ اللَّه ذلك، وعَيَّنتُهُ على إقليم تادلة خَلَفًا لأخيه هناك.

فقالت لالَّة خناثة: هَوِّنْ عليك يا سيِّدي، فلعَلَّ اللَّهَ يفعلُ خيرًا.

فقال: لا بدَّ من أن أُسَوِّي هذه الأمور قبل مَوتي يا خناثة.

ثمَّ بدأ يَسعُلُ سُعالًا متواصلًا حتَّى كاد يختنق. سقته خناثة شربةَ ماء من كأس بلَّوريّ إلى جانب سريره. ارتاح إلى تلك الشَّربة، ثمَّ ابتسم لخناثة، وقال لها: ائتِنِي بصحيح سيدي البخاري من القُبَة البخاريَّة. فأشارت خناثة إلى أحد عبيد الدار، وأمرته بأن يأتي بالمطلوب حالًا. خرج مسرعًا وجاء يحمل النُّسخةَ الشريفة وسلَّمها إلى لالة خناثة. أخذتها منه، ثمَّ وضعتها بين يدَيْ مولاي إسماعيل الذي لم يستطع حملَها فوضعتها على صدره وأمسكَت بيده ووضعتها على غلاف الكتاب. شَعَرَ مولاي إسماعيل بهيبة عجيبة لما لامسَت يَدُهُ نسخةَ «صحيح البخاري» التي أقسمَ عليها مع الجيش الذي أنشأه، ثمَّ قال لها: لقد كان التزامُنا باتِّباعِ سُنَّةِ المصطفى

، سبيلًا إلى نشر الأمن والرَخاء في ربوع هذه المملكة الشريفة، وقد جعلتُ من هذا الجيش البخاري حِرزَ أمانٍ يَذُودُ عن الحُرُمات، ويُوَطِّدُ الأركان، ويَقمَعُ الفِتَن.

ثمَّ التفَتَ إلى القايد علي بن يَشُّي القَبلي، أميرِ البربر، وأوصاه خيرًا بحفظ الأمانة. كما أوصى الحاجب السُلطاني مَرجانَ الكبير قائدَ عَبِيدِ

الدار، بحفظ الأموال وَرَعيِ ذِمامِ سيِّدَةِ الدار.

كان مولاي إسماعيل جميلَ الصُّورة لمّا كان في ريعان الشباب وقوَّته، نحيفَ الجسم. لونُه أبيض مشرَّبٌ بحمرة. عيناه سوداوان. لم يبق من جماله في هذه السويعة سوى بَرِيق خامِد. زادت نحافَتُهُ بعد أن نزع عنه كلّ ثيابه سوى من لباس «التشامِير» بلونه السماويّ الباهت المعروف بـ «ضوء الصباح»، فوقه جُبَّةٌ مَنصُورية خفيفة. أخذه السُّعال مرَّةً أخرى، فرفعَت خناثة نسخةَ الضَّحيح من على صَدرِه حتَّى يَخِفَّ تَنَفُّسُه. جلست إلى جانب السرير، وأسندَت زوجَها على صدرها، فأحَسَّ براحة عجيبة. ثمَّ طلبَ منها أن تقرأ له آخرَ حديثٍ في الضَّحيح، فاستَهَلَّت، «كلمتانِ خفيفتانِ على اللِّسانِ، ثقيلتانِ في الميزان، حبيبتانِ إلى الرحمن، سبحانَ اللّه وبحمدِهِ، سبحانَ اللّه العظيم».

تذكَّرَت خناثةُ، في هذه اللَّحظة، المُبَشِّرَةَ التي رَأتها لما كانت فتاةً صغيرةً في صحراء البِيضان، عن أوصافِ مَن يَستَحِقُّ الزَّواجَ بها. فقد نَصَّت تلك المبشِّرةُ على أنَّ تسبيحَ المرشَّحِ للزواج بها كان «سبحانَ ربِّي العظيم وبحمده». عَلِمَت خناثةُ بأنَّ تمامَ المبشَّرةِ قد وصلَت إلى ختامِها في هذه اللَّحظة، فصارت تُرِدِّدُ بحماسة وخشوع «سبحانَ اللّهِ وبحمدِه، سبحانَ اللّهِ العظيم». واستمرَّت على هذا التَّسبِيح، واستَمَرَّ مولاي إسماعيل يَفتُرُ بشفتيه معها حتَّى أكمَلا مئةَ مرَّة من هذا التَّسبيح، فرأت أنَّه أشار بإصبعه، ثمَّ انعَقَدَ لسانُه وانسَدَلَت جُفُونُه، وأسلَم الرُّوحَ إلى باريها بين سَحرِ خُناثةَ وَنَحرِها.

Votre beauté, grande Princesse_1

Porte les traits dont elle blesse

.Jusqu’aux plus sauvages lieux

.L’Afrique avec vous capitule

Et les conquêtes de vos yeux

.Vont plus loin que celles d’Hercule

2_ تزامنًا مع كتابة هذه الرواية، حصلت على صورة نادرة جدًا للأصل المخطوط من هذه «النسخة الشيخة» التي كان العارفون قد ينسوا من العثور عليها. كما حصلت على نسخة أصليَّة مخطوطة من صحيح البخاري منسوخة في سجلماسة منذ نحو أربعمئة سنة مع بداية نشأة الدولة العلويَّة الشريفة (المؤلِّف).

3_ ينص العلّامة المؤرِّخ الوزير، أبو عبد اللّه أكنسوس، في كتاب

«الجيش العرمرم الخماسيّ»، وتابعه ابن زيدان في «الإتحاف»، على أنَّ مولاي إسماعيل لم يعهد بالأمر لأحد من بعده، بخلاف ما ذكره المؤرّخ الزياني من أنَّ مولاي إسماعيل عهد لولي عهده مولاي أحمد بالمُلك من بعده. وهناك وثيقة عاينتُها، محفوظة في خزانة الفاتيكان، مكتوبة باللّهجة الإيطاليّة القديمة، القريبة من اللّاتينيّة المتأخّرة، كتبها أحد الرهبان ممَّن اتّصلوا بمولاي إسماعيل، يذكر فيها أنَّ السُّلطان أمره بأن يكتب إلى ملوك أوروبا، يؤكّد فيها تولية ولده مولاي أحمد الذهبيّ، مَلكًا على المغرب بعد وفاته. تجدر الإشارة إلى أنَّ مولاي إسماعيل كان يعهد إلى بعض الرهبان في مكاتبة ملوك أوروبا بلسانهم بعد أن يُملي عليهم فحوى رسائله. وكان يستكتب الرسالة نفسها من رهبان ينتمون إلى مختلف الطوائف المسيحيّة المتنافسة حتّى لا يُغيّروا مضمون الرّسالة، ثمَّ يرسلها إلى جهات مختلفة في أوروبا. ومهما يكن، فقد أصدر رؤساء عبيد البخاري طابعًا سلطانيًّا، وكتبوا الكتب إلى سائر البلاد المغربيّة، مظهرين أنَّ مولاي إسماعيل عهد إلى مولاي أحمد في الخلافة من بعده. ولا شكّ في أنَّ هذا الأمر يحتاج إلى بحث.

4_لقد بقي الاحتفال بسلطان الطلبة مستمرًّا في المغرب إلى نهاية ستينيّات القرن العشرين. ولعلّه من المناسب إعادة إحياء هذه الاحتفاليّة مجددًا اليوم بمضمون أوسع وشكل جديد حتّى تتناسب مع سياسة الجهويّة التي أطلقها المغرب. ولا شكّ في أنَّ من شأن هذا الإحياء أن يجعل هذه الاحتفاليّة تتبوأ مكانة متميّزة ضمن لائحة التراث الثقافيّ العالميّ.

5_الطنجيّة المراكشيّة أكلة لذيذة باللّحم يقدَّم مع حامض مخلَّل يقال له «المُصَيِّر»، شهيرة في المغرب، توضع القِدرُ المُكَمَّمَةُ الفاهِ على جَمرٍ مدَّةً طويلة حتّى الإنضاج، ثمَّ تفرغ في طبق وتقدَّم إلى الضيوف.

6_البغرير نوع من أنواع الفطائر الشهيرة في المطبخ المغربيّ، ويقدَّم خلال الأعياد وفي رمضان في أثناء وجبات الإفطار، مع الزبدة المذابة والعسل، مصحوبًا بالشاي المغربيّ.

7_من الأطباق المغربيّة الشهيرة ذات الأصول الأندلسيّة، ولا يخلو منها عرس أو حفل. ولها أنواع كثيرة بحسب نوع الحشوة، فعادة تكون بالدجاج واللّوز، أو فراخ الحمام، أو فواكه البحر...

كانت وفاةُ مولاي إسماعيل حدثًا رهيبًا لم يكن يتوقَّعُهُ القريبُ ولا البعيد. كانوا يُلَقِّبُونَه فيما بينهم بـ «الحيّ الدّايم» لطول عمره، وطول مُكثِه في المُلك، ممَّا لم يسبقه ملك مثله في بلاد المسلمين، سوى ما كان من المستَنصِر العُبَيدِي الفاطمِي، صاحب مصر، فإنَّه مكثَ في الخلافة ستِّينَ سنة، إلَّا أنَّه وَلِيَ وهو ابنُ سَبعِ سنين، فكان محجورًا عليه في صباه، بينما تولَّاها مولاي إسماعيل في قوَّة الشَّباب بعد العشرين من عمره، وبقي مَتَمَكِّنًا من المُلك طوال فترة حُكمِه التي استغرقَت زهاءَ سبعة وخمسينَ عامًا.

في مثل هذه الصَّدَمات المفاجئة يُفتَنُ الناس، وتُشَلُّ حركاتُهُم، لكنَّ أصحابَ البأس يسارعون إلى مَلءِ شُغُورِ السُّلطة التي لا تَقبَلُ الفَراغ. مَضَت لالَّة خناثة تعتني بمراسم دَفنِ زوجها.

جاء قادةُ عبيدِ البُخاري وقُوَّاد الوداية وأعيان الدولة من كُتَّاب وقُضاة وعُلماء فبايعوا مولاي أحمد، وأرسلوا بيعَتَه إلى مختلف المناطق والبلاد. فبدأ بعزلِ رجالِ والدِه وقَتلِهِم، وابتدأ بالمقرَّبين، فَقَتَلَ الحاجبَ السُّلطاني، مرجانَ الكبير قائدَ عبيد الدار وصاحبَ الأموال، وقتل قائدَ أهلِ الديوان، علي بن يَشّي القَبلي، أميرَ البربر، والقايد أحمد بن علي، والباشا ابن الأشقر.

كان هؤلاء من خِيرَةِ رِجالِ مولاي إسماعيل، ويعرفونَ أسرارَ الدولة، فكان قتلُهم خسارةً كبيرة جَرَّأتِ القبائلَ على التَّمَرُّد، وأطمَعَت قُوَادًا آخرين في السُّلطَة. بدأ العهدُ الجديدُ بفتنةٍ كبيرة. وحتَّى يَضمَنَ ولاءَ مَن زَيَّنَ له قَتلَ رجالِ مولاي إسماعيل الذين كانوا يَسُوسُونَ الباقي بحزم، فإنَّه اضطُرَّ إلى فتح خزائن الأموال وبَعثَرَةِ ما فيها، وتفريقِه على رؤوس الجُند والرجال، وهَلُمَّ جَرًّا في تبذير ما كدَّسَه مولاي إسماعيل من أموال، وادَّخَرَها لمواجهة الأطماع الخارجيَّة. ثمَّ لم يَكتَفِ بفتح خزائن الأموال، بل فَتَحَ مخازنَ السِّلاح والكُسَى، ووزَّع ذلك على العبيد وقُوَّاد الجيش. ولا شكَّ في أن مثلَ هذا السياسة الخرقاء ستصطَدِم بتنامِي الأطماع بعد نَفاد ما في يده، فيبدأ الابتزاز. لقَّبَ المتملِّقُونَ مولاي أحمد بلقب «الذَّهبِي» لأنَّه أفرغَ ذهبَ الخزائن ووزَّعه على قوَّاد جيش العبيد حتَّى تنافسوا في بناء الدُّور والقُصور. ثمَّ قام أهل مدينة فاس، فقَتلوا قائدَهم، ثمَّ قَدِمُوا عليه للبيعة فلم يأخذهم بِجَرِيرَةِ هذه الجريمة، ولم يُقِم فيهم العدلَ اللَّازم لقيام الدُّوَل وبقائها، بل استرضاهم وَوَصَلَهُم، فاشتدَّ الخَلَل، وطَمِعَ المتمَرِّدُونَ ورُؤوسُ الفِتنَة فَنَجَمُوا كالفُطرِيَّات في كلّ قُطر وناحية. ولم يَبقَ مَن يَرُدُّ

تلك الفِتن بعد أن قَتَلَ كبارَ رجالِ مولاي إسماعيل وقوّاده الذين كانوا مَعروفين بالحزم والسياسة والبلاء. وظهرت فتن كثيرة في البلاد، ومولاي أحمد لا يقطع أمرًا ولا يفصل في شيء، بل عاكفٌ على الدّنان، مُولٍ أمرَهُ لطائفة من عبيد البخاري يشيرون عليه، وَيَعلمون عجزَه حتّى تَجاسروا عليه وصاروا إلى الأمر بدلًا من الائتِمار. ثمّ لمّا مات أولئك القُوّاد العِظام، امتنعَتِ القبائلُ من دفع الجِبايات، فقلّت مَداخيل الدولة وفرغت خزائنها. كما أنّ قَتلَ مرجان الكبير الذي كان أكتَمَ مِنَ الأرضِ التي تَحفَظُ الأموات، لِحِفظِهِ الأسرار، بحيثُ كانت في يده دفاترُ المداخيل والأعشار، قد أربكَ الأمور وعطّل المصالح، إذ لم يَعُد هناك مَن يَعرِفُ ما يَدفَعُهُ العُمّال في الأقاليم إلى بيتِ المال. ثمّ لما عَدِمَتِ القَبائلُ السّائبة مَن يَسوسُها ويُطالِبُها بتلك الأعشار، فإنّها تَوَسّعَت في اقتِناءِ السّلاح، وبدأت تَهجُمُ على مَن دُونَها من القَبائل في العُدّة والعَدَد. وهكذا استَشرَتِ الفِتَن، واندلَعَت كالنّار في الهَشِيم، ولا يتورّع مولاي أحمد عن الشُّرب حتّى خاطَ نهارَه بليلِه في الشّهوات الفانِية، ونَسِيَ شؤونَ الدولة وما تتطلّبُه من جِدٍّ وحزم، وعزل نفسَه قبل أن يُعزَل.

ومن مآثِره التي تُذكَرُ، بناؤهُ ضريح والده مولاي إسماعيل الذي بلغ الآيةَ في الإتقان والعِمارة، وصارت قُبّتُهُ لا نظيرَ لها في البلاد الإسلاميّة، بحيث كانت تشبه قُبّةَ خِباءِ «أفراگ» والدِه، الذي كان يستعمله في أسفاره وحركاته. وقد بنى الضريحَ ملاصقًا للمسجد الذي كان يُصلّي فيه والدُه أبو النّصر إسماعيل الصّلَواتِ الخَمسَ.

***

بعد مُضِيّ سنة وثمانية أشهر من بيعة مولاي أحمد، لم يلبث العبيدُ أن ثاروا عليه وخلعوه، وبعثوا إلى أخيه عبدِ الملك بالبيعة، آخرَ رجب من سنة ألفٍ ومئةٍ وواحدٍ وأربعينَ هجريّة (فاتح مارس ١٧٢٩)، وطلبوا منه القدومَ إلى مكناسة. استبشرت خناثةُ خيرًا لأنّ ولدَها عبدَ اللّه الذي كان مقيمًا بتارودانت من بلاد سوس مع أخيه عبد الملك، وصل في رِكابِ أخيه عبدِ الملك في رمضان من السّنة نفسها، فاجتمعَت به، وحَظِيَ برؤية ولده سيدي محمّد، ففرح بلقائه.

كان العبيدُ قد سَجَنُوا مولاي أحمد خارجَ القَصَبَة الإسماعيليّة، فلمّا تلقّى عبدُ الملك البيعةَ من أطراف البلاد، أمرَ بِسَجنِ أخيه في فاس، ثمّ رحّله إلى سجلماسة، لكنّه تمكّن من الفِرار قبل بلوغها لما علم بأنّ العبيدَ سَيُسمِلُونَ عينيه حتّى لا يُبصِرَ أبدًا.

كان عبد الملك رجلًا حازمًا، فمشى في العبيد سيرةَ أبيه في سياستهم،

وقطع عنهم الأموال منذ البداية قبل أن يتمكّن من ترسيخ حُكمِه. فقد كان يَصِلُهُم في عَهدِ والدِه مئةُ ألفِ مثقالٍ ذهبيّ، فلم يُسَلِّم إليهم عبدُ الملك سوى أربعة آلاف مثقال، فنقِموا عليه، ونَدِمُوا على تَولِيَتِه، ثمَّ سَعَوا في خَلعِه لما رَأوا حَزمَه وتَقتِيرَهُ عليهم. ثمَّ إنَّه قد بَلَغَهُ تآمُرُهُم عليه، فصار يَكِيدُ للإيقاعِ بهم ويُغرِي القَبائِلَ بِحَربِهِم، كما حَرَّضَهُم على قِتال تلك القَبائل حتَّى تَستَعِرَ بينهم نارُ الفتنة، فَيَحتَكِمُوا جميعًا إليه، ويُدَبِّرَ شؤونَه بالسَّلامة، ويمشي فيهم بالكِياسة. لقد كان يطمَعُ في رَدِّ مظالمهم الكثيرة، وإيقافِ بطشهم وتدخُّلِهم في شؤون الدولة، لكنَّهم اطَّلَعُوا على تدبيره أيضًا، وعزموا على الإيقاع به قبل أن يُوقِعَ بهم، وعلى رَدِّ أخيه مولاي أحمد إلى الملك. تحقَّقَ عبد الملك ممَّا عزم عليه العبيد، فبعث الشيخَ مولاي الطيب الوَزّاني لِيَكُفَّهُم عن غَيِّهِم ويَعِظَهُم بمخافة اللَّه، ويُذَكِّرَهُم بالطاعة لرسوله والولاء لأهل بيته، فما ازدادوا إلَّا عصيانًا وتَمَرُّدًا وغيظًا. ثمَّ بعثوا إلى سجلماسة بِفِرقَةٍ منهم لتأتي بمولاي أحمد منها. وفي أثناء ذلك، أغارَ جيشُ العَبيدِ على مكناسة ونَهَبُوها واستَباحُوها وقَتَلُوا كثيرًا من أهالِيها، ودخلوا دارَ السُّلطان، إلَّا أنَّ عبدَ الملك كان قد عَلِمَ بمؤامرتهم فَفَرَّ إلى مدينة فاس مُستجيرًا بضريح مولاي إدريس، فأمَّنَهُ أهلُ المدينة.

وصل مولاي أحمد إلى مكناسة فبويع مرَّة ثانية، وأخرج الأموال وفرَّقَها على العبيد وأهلِ الحَلّ والعَقد تَشَفِّيًا في أخيه، ورجاءً في أن يستميلَ بهذا الإحسان قلوبَهم. ولما تَمَّتِ البيعة لمولاي أحمد مرَّة أخرى من جميع البلاد، أمرَ أهلَ فاس بالقُدوم إليه وبيعته فتخلَّفُوا عنه، فقام لحربهم وحِصار مدينتهم بالآلات والمدافع، ولم يُفلِح جيشُ الوداية في الدِّفاع عن المدينة لكثرة عدد أفراد جيوش البخاري وقُوَّتِهِم، فهاجمها جيشُ العبيد وساقُوا أهلها ودَوابَّها وهَدَموا الدُّورَ والقُصور، وأفسدوا الغَلّات وخَرَّبُوا البساتين والجَنّات، فأذعنَ أهلُ فاس لاستبدادِ جيشِ العَبيد. ثمَّ بعث مولاي أحمد إلى أخيه، وخَيَّره بين التَّغريب إلى سجلماسة أو المُكث في الحَرَمِ الإدريسي، فاختار البقاءَ في الحرم الإدريسي خوفًا من أن يُقتَلَ إن هو خرج منه، إلَّا أنَّ أهل فاس مُنِعُوا من مُعاملته بسبب تهديد العبيد، فضاقت الأرض بما رَحُبَت على عبد الملك حتَّى جاءه رجالُ أخيه وحَمَلوه مُقَيَّدًا إلى مكناسة فَسُجِنَ هناك. ولم يُمهِلُ القَدَرُ مولاي أحمد فمَرِضَ في رحلة عودته من فاس إلى مكناسة. فلمَّا تحقَّقَ من موته، أمر رجالَه بِخَنقِ أخيه مولاي عبد الملك في سجنه، فخنقوه في أوَّل يوم من شعبان من السَّنة نفسها حتَّى مات. وبعده بثلاثة أيَّام توفي مولاي أحمد.

أمَّا مولاي عبد اللَّه، بن خناثة، فإنَّه لما رأى خذلانَ العبيد لأخيه عبد

الملك، عاد إلى سجلماسة مقيمًا بداره هناك، عازمًا على الانتقام لأخيه من العبيد، وقَطعِ شأفتهم إن تَوَلَّى الحكم. وبقي بها حتَّى نادى قُوَّادُ جيش العبيد وجيش الوداية بتوليته وبيعته، وأرسلوا إليه كَتيبةً من الخَيَّالة لِتُرافِقَه إلى مكناسة، وجاء في صُحبتهم فجدَّدوا له البيعة. ثمَّ قَدِمَ إلى مدينة فاس، فبايعه أهلُها في سابع رمضان ١١٤١ هـ/ ٦ أبريل ١٧٣٠م.

عادت خناثة إلى مهامها الرسميَّة السَّابقة بشكل أوسع بعد مبايعة ولدها، فوجَّهَت خطابًا إلى بلاد الأراضي المنخفضة مع مبعوثها التاجر اليهوديّ المغربيّ إسحاق مُشكِيطَه، بشأن افتداء الأسرى.

***

بعد أن وصل مولاي عبد اللّه إلى الحكم، وتمَّ لخناثة ما كانت تؤمله، بدت لها هذه الحياة تافهة، وبدا لها التَّنَكُّب عليها هدفًا حقيرًا، فقرَّرَت أن تخرجَ للحجِّ مع حفيدها سيدي محمَّد الذي كانت تُحِبُّه وترعاه. استأذنَت من ولدها السُّلطان مولاي عبد اللّه في أن يَأذَنَ لها بالسفر فأذِن لها حتَّى لا تَشهَدَ ما كان عازمًا عليه. لقد قَرَّرَ أن يَبطِشَ بالعبيد ويَقطَعَ شَأفَتَهُم، ويَحُدَّ من طاغوتِهِم حتَّى لا يُفكِّرُوا في التَّلاعُب في الملوك كما فعلوا بعد وفاة والده مولاي إسماعيل. كما عزم على تَخرِيبِ مدينة الرِّياض ضمنَ حاضِرَة مكناسة وهدمِها، حيث كان يسكن الوزراء والكُتَّاب والعُمَّال والقُوَّاد والباشَوات ورجالات الدولة، لأنَّها أصبحت مَقَرًّا للمؤامرات السياسيَّة عليه وعلى إخوته، فلا بُدَّ من تخريبها وإذهابِ أعيانِها جملةً وتفصيلًا حتَّى لا تقومَ للعبيد قائمة، وكي يدخلوا في الطاعَة كما كانوا من قبل، بدلًا من تنافسهم في بناء الدُّورِ والقُصور، واتِّخاذِ الجِنان والبساتين وجَمعِ الثروات. لكنَّه سيبدأ مُخَطَّطَهُ بالتَّدريج.

كان مولاي عبد اللّه يريد أن ينتقم من هؤلاء، فلم ينسَ مرَّة كيف أنَّ أحدَ هؤلاء القوَّاد، وهو الباشا عبد النَّبيّ الحَيَانِي، كان قد استضعَفَه واحتقره، وخاطبه أمام سائر العبيد بقوله:

«واللّه إنَّ قبضتُك يا عبدَ اللّه بُوسبِيبِيط (تصغير كلمة «سَبَاط»، وهو الحِذاء)، رَبِيبَ الدُّغمِي، حتَّى أرمي على رِجلِك كُبلًا (قَيدًا) من عِشرين رَطلًا، وأُلقيك في الدَّهلِيس إلى أن تموتَ فيه».

كانت قدما عبد اللّه صغيرتين مثل أقدام الأطفال، وكان هذا يجعله يُحِسُّ بالنقص، لكنَّه كان يكتُم غيظَه من طغيان العبيد حتَّى يظفرَ بهم لاحقًا. لو أنَّ والدته كانت حاضرة في مكناسة لما تركَتهُ ينتقم من العبيد بهذه الطريقة، لأنَّها تعلمُ أصولَ الحكم، وأنَّ الانتقام ليس من سياسة الحكماء. لكلّ هذا، قرَّر أن يسمحَ لها بالذهاب إلى الحجّ حتَّى يَفرغَ لتأديب

العبيد، ويُطَهِّز منهم البلادَ والعِباد بعد فُشُوّ أمرهِم وطغيانهم.

بدأتِ الاستعدادات لخروج موكب الحجّ المغربي. كان السّلاطين لا يخرجون للحجّ نظرًا إلى المهمّات الجليلة التي كانت تُلزِمُهُم بالبقاء في ممالكهم، ومخافة الانقلاب عليهم في أثناء غيابهم، لهذا أفتى لهم الفقهاء بأن يُنيبُوا عنهم أبناءهم أو بعض قرابتهم. وسمح مولاي عبد اللّه لولده سيدي محمّد بأن يرافق جدّته لالة خناثة، الملقَّبة بـ «أمّ سِيدِي» في رحلة الحجّ هذه.

كان عمرُ سيدي محمّد تسعَ سنوات، وحرصت لالة خناثة على أن تصطحبه، فقد كانت تحبّه حبًا جمًّا، وتُذاكره في أمور تعليمه، وتقرأ معه كتاب «دلائل الخيرات في الصلاة على النّبي». كما كانت تقرأ معه بعض الأحاديث من نسختها الفريدة. تهيّأت لالة خناثة لرحلة الحجّ، فتصدّقت على الفقراء والمساكين، ووصلَتِ اليتامى والأرامل والعجزة، ثمّ أرسلَتِ الهِبات إلى مجموعة من الزوايا.

ولما حلّ يوم الجمعة حادي عشر جمادى الآخرة من سنة ١١٤٣هـ (٢٢ ديسمبر ١٧٣٠م)، خرجت ربّةُ الدار العلية، السّيّدة خناثة، وحفيدُها الأميرُ سيدي محمد من دار الخلافة في مكناسة الزيتون بعد صلاة الجمعة. كانت على هيئة ملوكيّة تَسُرُّ الناظرين، تحيط بها حاشية عظيمة من العبيد والخدم وطواشيّة القباب والأخبية، والحرس. ومشى في ركابهما الوزير الإسحاقي، الملقّب بعبد القادر الجيلاني. وابن أخته الشّيخ المحرّر العلّامة العربي بن محمد بصري المكناسي، والقاضي أبو القاسم العميري، والمؤدّب الخاص بالأمير، الفقيه أبو القاسم الشّنولي، والفقيه الأديب محمد بن زاكُور الفاسي، والأستاذ السّيّد أحمد الفكّودي، والكاتب أبو عبد اللّه محمّد المكّي الشّاوي. كان الأمير الصغير يزهو فوق فرسه زَهوَ الشرفاء في لباسه المغربي الجميل. وكان عبيد البخاري يحيطون به، وهو يخطر في مشية يحبّها اللّه ورسوله. ثمّ مشى بعدهم مختلف الطوائف الصوفيّة بأعلامها المميّزة وألبستها الصوفيّة. كانوا يَحُفُّون بالمَحفِل، وهو هيكل مصنوع من خشب عليه كسوة رفيعة، وفي داخله الصُّرَّةُ السّلطانيّة، وفيها منة ألف دينار ذهبي للتوسعة على أهل الحرمين الشريفين. كان جنود البخاري يحرسون المحمل، بينما كانت الطوائف الصوفيّة تُرَتّلُ دلائلَ الخيرات. كان منظرًا مَهيبًا تقشعِرُّ له القلوب والأبدان، وتدمع لأجله العيون.

وصل ركبُ رَبّةِ الدار العلية وحفيدِها، في اليوم التالي، إلى مدينة فاس التي كان يجتمع فيها الحُجاج من مختلف المناطق. نزلت هناك في دار المَلك، وبقيت إلى يوم الخميس الموافق فيه الخامس عشر من جمادى

الآخرة. ثمّ خرج موكبها من باب الفتوح في أبّهةٍ عظيمة إلى ولجةِ الغسّال في الضّفّة الشرقيّة لوادي سبو للالتحاق بباقي الرّكب الذي كان يخيّم في تلك الضّفّة كما جرت بذلك العادة كلّ عام. وباتت ليلة الجمعة في مخيّمها هذه الولجة مع سائر الحجاج.

وفي عشية يوم الجمعة، ورد السّلطان مولاي عبد اللّه في أعيانٍ من رجال دولته لوداع والدته وولده في المخيّم. وبعد أداء واجب البرور عاد إلى الحاضرة الفاسية. بات الركب تلك اللّيلة على ضفاف نهر سبو. وعند إسفار نهار يوم السبت، أعطى طبّالُ الركب إشارةَ الانطلاقة بالضرب على طبل نحاسيٍ عظيم، فقام الحجيج ومَن في ركابهم للمسير. كان هذا الطّبل لا يُستعمل إلّا في موسم الحجّ، إذ يكون محفوظًا طوال السنة في ضريح مولاي إدريس في فاس بعد كلّ أوبةٍ من الحجاز. ولمّا يَجيئُ موسم الحجّ التالي يخرج من مأمنِهِ، فيحمِله صاحبُه ويَضربُ عليه عند كلّ غَدوةٍ وَرَوحَةٍ، وركوب ونزول. كان هَدِيرُهُ يَملأُ الأرضَ. تعالت الأصوات والهتافات بعدما خرج أهل المدينة عن بَكرَةِ أبيهم. فمن مُوَدِّعٍ قد حفَرَت دموعُه الأخاديدَ على خدَّيه، ومن مُبلِّغٍ رسالةً إلى النّبيّ ﷺ، حيث كان رائجًا أن يبعثَ العلماء والصالحون رسائلَ إلى حضرة النّبيّ ﷺ يستشفعون فيها، ويُوصون بقراءتها في المواجهة الشريفة. حتّى أصبح هذا الأمر تقليدًا دأب عليه الناس عبر الأزمان، ممّا يُعَدُّ ذخيرةً أدبيّة كبيرة في معرفة الذهنيّات، والتّأريخ للعقليّات عبر هذه القرون المنصرمة. كان المنظر عجيبًا وبديعًا. فَرَحٌ ودموع، ابتهالات ومدائح، خشوعٌ وخضوع، شكوى ومسرّات. باعة متجوّلون يبيعون لمن تأخّر في شراء بعض ما يلزم في السّفر. أوقافٌ تُحمَل، وهدايا تُرفَعُ فوق ظهور الجِمال، وتجّار يتأكّدون من أمتعتهم وبضائعهم المُعَدَّةِ للبيع في البلاد التي سَيَمُرُّونَ بها. صناديق محمّلة بالهدايا والعطايا والأوقاف على بلاد الحرمين وسائر البلاد الإسلاميّة. جِرار مملوءة بزيت الزيتون من مَعاصر مكناسةَ المخصّصة لاستصباح الحرمين الشريفين.

بدأ عبيد البخاري مسيرهم، ومشى في إثرهم الركب. كانت قافلة كبيرة كأنّها مدينة متنقّلة. كان أمير الحجّ لهذا العام هو الحاجّ عبد الخالق عدِيّل، وسار في مقدّمة الركب مع ريّة الدار العليّة وحفيدِها وحاشيتِهما. انطلقوا حتّى وصلوا في العشي إلى ضفّة نهر إنّاون في المكان المعروف بسبتِ بُوجابر، فنزلوا هناك بعدما سبق الطّوّاشُونَ الركبَ فأعدّوا القِباب والخيام

لخنائة وحاشيتها.

ارتحلوا في صباح اليوم التالي، إلى أن وصلوا إلى المحل المعروف بالملاعب فخيّموا فيه. غادروا في الصباح قاصدين مدينة تازة شرقيَ فاس التي وصلوا إليها عند الزوال. خرج الأهالي يستقبلون الركب والأمير وربّة الدار العليّة. كان استقبالًا رائعًا. ركب الفرسان على خيولهم، وأدّوا تحيّة الشُجعان بالجري في المضمار، وإطلاق أعيِرَةِ البارود. لم ينسَ أهل تازة أنَّ الشُرفاء العلويّين كانوا سبب نجاتهم من الطاغية ابن مشعل الذي سامهم الذُلَّ والهوان سنوات عديدة حتَّى فَكَّ اللّـه أسرَهم على أيدي هؤلاء الأشراف. أمضَوا في تازة يومين كاملين في الصيانة والحفظ والعناية والمكرمات، وارتحلوا ثاني رجب، فقطعوا تلك البلاد وما فيها من وديان وأنهار.

كان الركب يمشي قبل صلاة الصبح أو بعدها، ويستمرّ حتَّى حلول العصر، ثمَّ تُنصَبُ الخيام التي عادة ما تكون جاهزة قبل وصول الوفد السُلطانيِ فينزل فيها. أمَّا عامّة الناس، فكانوا يبيتون إلى جانب دوابّهم ويَفرِشُونَ الأرض ببعض البُسُط. يمضي الرَّكبُ اللَّيلَ كُلَّهُ إلى الصَّباح، ثمَّ يعاود المسير. وهكذا قطعوا شرقَ بلاد المغرب الأقصى والأوسط والأدنى حتَّى وصلوا إلى منطقة الزوارات في ولاية طرابلس بعد سبعين يومًا على خروجهم من مدينة فاس. كان أهل زوارة من أتباع المذهب الإباضي، وكانت فيهم استقامة، بحيث إنَّ الأمن مُستتبٌ في بلادهم، ولا يُغيرونَ على المسافرين أو الحُجَّاج. ثمَّ مَرَّ الركب بمدينة زواغة، وإلى الشرق منها أطلال مدينة صَبرَة الرومانيّة، وفيها مسرح روماني عظيم وأعمدة متعالية بقيت من ذلك الزمان.

وصل الركب عصر يوم الخميس 28 شعبان إلى قرية قراقوش، المسمَّاة باسم القائد الذي كان يحمل الاسم نفسه، وأنفذ قائد الركب بعض رجاله إلى طرابلس للإبلاغ بوصول الركب والعائلة السُلطانيّة. كما أنَّ بعض من كان مستأنسًا بهذا السفر نصح بالنزول في المنشية لوجود الماء والكلأ والبيوت الحسنة، فراحوا هناك، وبقي سائر الركب في موضعهم إلى الصَّباح. نهضوا باتِّجاه طرابلس التي دخلوها يوم الجمعة التَّاسع والعشرين من شعبان. كانت الفرحة مضاعفة بوصول الركب الأميري في آخر يوم من هذا الشهر الكريم، وتأهَّبَ الناس لدخول شهر الصيام. خرجت طرابلس عن آخرها لاستقبال الوفد الأميري والركب النّبويّ. كان في أوَّل المستقبلين للأمير سيدي محمد وجدَّتِه لالة خنائة، وَليُّ عهد الأسرة الحاكمة في طرابلس، الأمير محمد، ابن الحاكم أحمد باشا القُرَه مانلِي. وكان وليُّ العهد

محفوفًا بكبار رجالات الدولة وكوكبة من الحرس والجنود. خرجوا إلى ضواحي المدينة للاستقبال. اصطفَّ الناس إلى جوانب الطرقات يهلّلون ويهتفون بمقدَمِ الركب السُلطانيّ العجيب. ودَوَّتِ المدافع في ميناء المدينة، وأطلقت طلقات الشرف لاستقبال الضيوف الكبار. كان ولي عهد طرابلس يبلغ اثنتين وعشرين سنة، لكنَّ الأمير سيدي محمَّد على الرَّغم من حداثة سنة، كان يبدو فتًى عليه مخايلُ النباهة وسِيماء الشرف. كان يرد بالتَّحيّة على الأهالي، ويبتسم لهم ابتسامة خفيفة. أحبّوه من أوّل نظرة، وفرحوا بهذا الشريف العلويّ الأثيل الذي جاء بلادهم مُيمّمًا صوب بلاد الحرمين. كان الجميع يعرف سمعة ملوك المغرب التي شَرَّقَت وَغَرَّبَت في أنحاء العالم. فهؤلاء الشرفاء قد بسطوا رداءَ الأمن والأمان على هذه البلاد بعدما خرجوا من واحة تافيلالت لما ضَعُفَت دولةُ الأشراف السَّعديّين، ودخلت البلاد في الفوضى، فضَجَّ الناس إلى الأشراف لِيُعِيدُوا الأمنَ والاستقرار والرَّخاءَ إليهم. كان جدّ سيدي محمّد هو فخر السَّلاطين، مولانا إسماعيل، وأبوه هو السُلطان مولاي عبد اللّه. وقد سمعوا عن شجاعتهم ومناقبهم. فقد حضّنوا بلادهم، ولم يستطع العثمانيون أن يَضُمُّوا بلاد المغرب إلى ملكهم على الرَّغم من أنَّهم بسطوا نفوذهم على كلّ البلاد الإسلاميّة باستثناء المغرب. كما كانوا يسمعون عن زوج السُلطان مولاي إسماعيل، وأمّ السلطان مولاي عبد اللّه، ربّة الدار العلويّة، وسمعوا عن علمها وتقواها بمثل ما سمعوا عن حصافة رأيها وسديد سياستها. لقد كانت هدية عظيمة أن يَحُلُّوا ببلادهم في هذا الوقت بالذات. لوّح الناس وهلّلوا وكبّروا بطلوع هلال رمضان وشهر الصيام مع طلوع هلال بدر الأمير سيدي محمّد في مُقدّمة ركبِ الحُجّاج. أُعِدَّت مِنَصّةٌ عظيمة لاستراحة الأمير وأفراد الوفدِ الفُصاحِب له قبل أن ينزلَ في القصر الذي خُصِّصَ لهم. جلس الأمير مع ولي العهد، وبدأت ألعابُ الفروسيَّة، بحيث قام الفرسان بالتَّباري في مضمار العَذو. وقد ألهبت هذه الألعابُ حماسةَ فرسان عبيد البخاري، فامتطوا خيولهم وأبدوا فنونًا من اللّعب لم يكن لأهل طرابلس والحكّام الأتراك علمٌ بها، فحازوا الإعجابَ والتّصفيق والهتاف. كانوا يلبسون زيَّهم المزركش العجيب الذي يلبسونه في المناسبات الرسميَّة الجليلة. أعجب حكام طرابلس بحِذقِ عبيد البخاري لفنون الفروسيَّة، وأدركوا سرَّ قُوَّةِ الدولة المغربيَّة ونُظُمِها الأصيلة.

كان أميرُ البلاد وحاكمُها أحمد باشا القُرْه مانلي رجلًا كريمًا جوادًا يعرف الأصول فاعتنى بضيوفه عناية كبيرة، وكانت مناسبة لإظهار الفرح والسرور، وتفاءل خيرًا عليه وعلى بلاده بهبوب نسائم الشرف الميَمُّمَةِ

صوبَ بلاد الحرمين التي تهفو إليها أفئدةُ المؤمنين من كلّ البلاد الإسلاميّة. لم تنقطع موائد الرحمن في رمضان على الحُجّاج، وكان الجنود في خدمة الجميع، وكذلك أهالي البلاد. وزاد هذا في متانة العلاقات بين البلدين. أمّا ربّة الدار العليّة، فقد كانت محاطةً بالأميرات الطرابلسيّات يعتنين بها. وكان لا يُسمَحُ بدخول الرجال هذا المُعتزَكَ المَنِيع الذي يشبه «مُعتزَك الأحداقِ والمُهَج»، إلّا أنّ الأمير سيدي محمّد كان يَدخُل على جدّته وباقي النساء من دون قيد. أعجبتِ الأميرات بهذا الأمير الشريف، وحاز في قلوبهن محبّةً خاصّة ملؤها العطف والحنان والإكبار. لقد كان يتنقّل في جنبات ذلك القصر بين جدّته وزوجة الأمير أحمد باشا، فلا يمنعه مانِعٌ أو يَصُدُّهُ صادٌّ. كانت هذه هي المرّة الأولى التي يُسمَح فيها لأمير أجنبيّ بدخول تلك الأحياز، والخُطور فيها بحرّيّة تامّة. كانوا ينادونه بـ «سيدي محمّد المهديّ» ويتحدّثون إليه في عفويّة كاملة، ويلقّبونه بـ «سراج المجالس» لأنّه أضاء بنوره من مِشكاة جدّه المصطفى في تلك البلاد. كان الأمير وَدودًا خلوقًا مهذّبًا حَصيفَ الرأي، على الرّغم من حداثة سِنّه. كما أنّ حاكم طرابلس أوفَدَ إليه مجموعةً من الرِّفاقِ في مثل سِنّهِ كي يلعبَ معهم ويمضي بعض وقته في رفقتهم، يتحدّثون في أنواع الأكلات المختلفة بين البلدين، وأنواع الألبسة. لم يكن يُسعِدُ الأميرَ أحمد باشا شيءٌ أكثرَ من أن يتلَقّى طلبًا من الأمير الصّغير فيسارعُ إلى تلبيته بسعادة تملأ قلبَه حُبورًا وطربًا. كان الجميع يرغب في مصاحبة الأمير ومرافقته أينما حَلّ، وحيثما جلس.

لقد فتح عمرو بن العاص مدينة طرابلس، التي تعني، في اللُّغة الرومانيّة، المدنَ الثلاث التي هي صَبرَة، وأويا، ولَبدَة. وكلُّها مآثر رومانيّة قديمة، وأجلُّها في مدينة لبدة. وقد زار أفراد الوفد السُّلطاني بعض هذه المآثر البارزة في هذه المدينة، ومنها قوس ماركوس أوريليوس. كما زاروا عددًا من المساجد، وفي مقدّمتها جامع عمرو بن العاص، والمدرسة المنتصريّة، وبعض الأضرحة والزوايا، وغير ذلك. وزاروا مرسى طرابلس الذي تصطفّ فيه السُّفن والمراكب.

كانت مدينة طرابلس تشبه مدينة الرباط، فهيئة تصميمها تشبهها، إذ هي مثل رقعة الشطرنج. فالمرء يمشي في أزقّتها وشوارعها مِشيَةَ الرُّخّ في الرُّقعَة لا مشيةَ الفِيلِ فيها.

أمضى الركب الأسبوع الأوّل من رمضان في طرابلس. وباع التجار بضائعهم، واشترى آخرون بعض ما يحتاجون إليه. كما طعموا من فاكهة اللّيمِ الذي كان معروفًا في المغرب في مدينة سلا ومدينة تطوان، فوجدوا

أنَّ لِيمَ طرابلس يتميز برائحة عَطرة وحلاوة رائقة.

كانت لالة خناثة تحرص على أن تشهد دروس باب الحجّ من «صحيح البخاري» مع حفيدها، بحيث كان يتولّى أحد العلماء المرافقين لهم التعليق على أحاديث ذلك الباب وتَتَبُّعِ مختلف شعائر الحجّ، شعيرةً بعد أخرى.

لم تُفَوِّت رَبّةُ الدار العلية أن تسأل علماء طرابلس عن نسخة البخاري التي كتبها أبو علي الصَّدَفي، فأعلنوا أنَّهم لا يعرفون عن مكان وجودها شيئًا، إلّا أنَّها كانت في المغرب، فأخبرتهم بأنَّها اختفت من بلاد المغرب، لكنَّها أطلعتهم على أنَّ ما في المغرب من النّسخ المنتسخة عن أصل الصَّدفي، نسخة القاضي عياض، ونسخة موسى بن سعادة، و«النّسخة الشَّيخة» لأبي المحاسن يوسف الفاسي. وهي أجَلُّ نُسَخٍ على وجه الأرض للصحيح الجامع. وقبل أن تغادر أهدت نسخة أوقفتها على طلبة العلم في طرابلس، فسعدوا بها غاية السعادة، وأثنوا عليها، وقَدَّرُوا ما للسَيِّدة الحُرَّة من مُشاركة في العلوم.

فتحت لالة خناثة خزائنَها، قبل المغادرة، فوزَّعت الهدايا الثمينة على الأميرات اللّائي خصَّصنها بتَرحاب كبير وعناية فائقة. كما نفحت الأمير أحمد باشا ورجال دولته هدايا قيمة، وأنسَت بعطائها ما تلقَّتهُ هي وحفيدُها والرَّكبُ في مُجمَلِهِ مِن نَوال. لقد أخجلَت هذه السَّيِّدةُ العالمة التقيَّة، الأميرَ أحمد باشا بكرمها، إذ أعطت عطاءً ملوكيًّا سَخِيًّا يُحَيِّرُ الألبابَ ويَأسَرُ النفوس، لأنَّها استشعرَت ما طَوَّقَهُم به الأميرُ من كرم وعناية. ثمَّ لمّا تأهَّبوا لمغادرة طرابلس أصحَبَهُم الأميرُ بعشراتِ الجِمال العُشاريَّة التي تتحمَّل السفر وتُسرع في المشي فوق الرمال الملتهبة. كما أرسل إلى كلّ عُمَّاله في المناطق الشرقيَّة حتَّى يحسنوا الوفادة ويكرموا الركب ويخدموه، وألّا يُوَدِّعُوه حتَّى يُسلمُوه إلى من يَليهِم من العُمَّال في تلك الأقاليم.

لقد خرج الأمير أحمد باشا ووليّ عهده الأمير محمد وحريمه وكبار رجال دولته من وزراء وعلماء وقضاة وجنود، يودِّعون الموكب النبويّ المتَّجه صوب الحجاز. كان خروجهم يوم السبت ثامن رمضان. كانت أوَّل محطَّة ينزلون فيها هي مدينة تاجُوراء المحاطة بأشجار النَّخيل، فزار الأمير سيدي محمد جامعَها الأعظم الذي بناه مراد باشا على شكل مسجد وقلعة في الوقت نفسه، ثمَّ مرُّوا بعد تاجوراء بعدَّة بلدات، منها وادي الرمل والخمس ولبدة التي كانت تحتوي على آثار رومانيَّة عظيمة، وكانوا وصلوا إليها يوم الخميس، الثالث عشر من رمضان.

سأل أحد الطلبة ممَّن كانوا في الرحلة، شيخًا هرمًا عن تاريخ مدينة

لبدة، فأجاب الشَّيخ بثقة أصحاب الأسمار ممَّن لا يرفُّ لهم جفنٌ عن قولٍ سَخيفٍ بقوله: إنَّ لبدة هي المقصودة بقوله تعالى في القرآن الكريم } أهلكتُ مالا لُبَدًا{. ضحك الجميع وتمايلوا على بعضهم البعض من فرط الضحك من هذيان الشَّيخ. وبينما هم كذلك، إذ أقبل أحد كُبَراء الركب، فسأل عن الشَّيخ، فأُخبر بأنَّه من علماء أهل هذه البلاد، فسأله: هل تقرأ شيئًا من القرآن؟ فأجابه ممازحًا، الفقيه السَّيِّد أحمد المكودي: نعم إنَّه يقرأ }أهلكتُ مالا لُبَدًا{. فأسرع الشَّيخ يبدِّد شكوك الجماعة: هكذا سمعت من أشياخنا، واللَّه أعلم.

وصلوا بعد يومين إلى مدينة مَصراتة، حيث مثوى القطب الأشهر سيدي أحمد زَرُّوق الفاسيّ البُرنُسِي، الذي اختار في رحلة عودته من الحج أن يستقرّ هنا حتَّى توفي ودفن بها، وصارت هذه البقعة تفخر بِضَمِّ رُفاتِه. زارت لالة خناثة الضريح برفقة حفيدها، وأُخلِيَ من سائر الناس حتَّى تَخلُو هناك بأنواع العبادات ومختلف القُرُبات. لقد أكثرَت من قراءة القرآن والصلاة على النَّبيّ العدنان، وحدثت لها أحوالٌ سَنِيَّة كان الأميرُ الصغير شاهدًا عليها، فانغرَسَت في نفسه الشريفة، وتنوَّرَ باطنُه بِسِرِّها في هذه الأجواء الرمضانيَّة المُفعَمَةِ بالروحانيَّات. لقد ترك الشَّيخُ زَرُّوق فاسَ الخَضِيلة بماء الحضارة ليعيش في هذه الأرض الصحراويَّة على الملح والماء القراح مُقبِلًا على رَبِّه، يُعَلِّمُ الناسَ علومَ الشَّريعة والحقيقة. طالعَت لالة خناثة بعض شروحه العديدة على الحِكَم العطائية التي كان يكتبها كلَّما حلَّ في بقعة من البقاع حتَّى نَيَّفَت على ثلاثين شرحًا. كانت شروحًا فيها سِرُّ الأصل ونورُ الفرع: إجمالٌ في غير تفريط، وإسهابٌ في غير إفراط، وتحقيقٌ للأصول في غير تضييع للفروع، وتدقيقٌ في الثمرات، وترقيقٌ للفوائد. كان الشَّيخُ زروق محتسب الصوفيَّة، كما كان المحاسبي والغزالي في وقتهما محتسبة كذلك. وكيف للحِسبة أن تكون إن لم تكن أصلًا في الأنفاس؟ كان هؤلاء الأخيار يحاسبون كلَّ نفَس يخرج أو يدخل، فيمَ أخرج؟ ولِمَ أخرج؟ محاسبة الأنفاس هي الأصل الذي تنبعث منه سائر أفعال الإنسان، فإن تنوَّرَ الأصل، ثبَتَتْ الفروع، وإن أظلَمَ الأصل أظلمَت له النتائج.

كان نزول الركب في مصراته خارج واحة النَّخيل في موضع يقال له «بوشعيفة».

أقاموا هناك يومًا، وانعقدت السوق، فاشترى الناس ما يحتاجون إليه، ثمَّ أسرى الحجيج، وصَلَّوا الصبحَ في الطريق.

لم يكن السفر في المعتاد سهلًا للمسافرين بين غرب البلاد الإسلاميَّة

وشرقها، إلّا أنّ السفر في هذه الرحلة كان هَيّنًا لَيّنًا محفوظًا، إذ كان يتوفّر فيه الأمن والأمان والمياه والأقوات وجميع ما يحتاج إليه المسافر في سفره. كانت رحلة منظّمة فيها كلّ أسباب الراحة، خِلافًا لِكُلّ المسافرين الذين دَوّنوا في رحلاتهم كُلّ المتاعِب والصّعوبات التي قاسوا منها، والاعتداءات التي تَعرّضُوا لها، والمكُوس التي فُرِضَت عليهم، وقُطّاع الطُّرُق الذين انتهبوهم أو استرقوهم، أو قتلوا من ظفِروا به منهم. لم يكن يجرؤ أيُّ أحدٍ على أن يعترضَ هذا الرَّكب المحفوفَ برجال عبيد البخاري الأشِدّاء، ولم يضطروا إلى إشهار أسلحتهم لأنّ سمعةَ بأسهم كانت تسبقهم في كلّ مكان. لم ينتسب هؤلاء الرجال إلّا إلى «صحيح البخاري» الذي كانوا يُقسِمون عليه. لكأنّهم رجالٌ أتَوا من بلاد ما وراءَ النّهر مثل المغول، سوى أنّ بأس هؤلاء أشدّ، وحافزَهم في حفظ سُنّةِ المصطفى هو المحرّكُ لهم. خدمت أطرافُ البلاد الإسلاميّة الحديثَ كما لم تَخدُمهُ المراكز، فظهرَ فيها كبارُ المحدّثين وأجَلّ الروايات والأسانيد. ففي بُخارى وتِرمِذ ونَسا وغيرها دُوّنَ الحديث، وفي الغرب الإسلاميّ حُفِظَت تلك الرّوايات والأسانيد، حتّى أنشأ السّلطان مولاي إسماعيل جيشًا عظيمًا سمّاه جيش البخاري لفرط عنايةِ أهلِ هذه البلاد بالصّحيح، رِوايةً ودِراية.

***

تغيّر مجالُ السّفر، بعد خروجهم من مَصرائه، فالأرضُ عاريةٌ سوى من الرّمال والأحجار، والشّمس تُصهِرُ الجميعَ حتّى لكأنّه القِطرُ المَذاب، فكيفَ للإنسان أن يجوبَ هذه الجبّائة العظيمة من دون أن يترك بعضه ينصَهِر؟ فلكأنّ الحجّ رحلةٌ للصّهر الروحيّ لا بدّ فيها من هذه المجاهدات. ولعلّ أعظمَها **المجاهدة بالقِلّة** في الأركان الأربعة: قلّة الطعام، وقلّة الأنام، وقلّة المَنام، وقلّة الكلام.

ولتحقيق هذه الأركان الأربعة، ليس هناك مجال أوفق من الصحراء الملتهبة التي هي فضاء للقِلّة بامتياز. تُلزِمك الصحراء بالقِلّة راضِيًا أو راغِمًا، فاختَر لِنَفسِك أن تكونَ راضيًا لأنّك لا تستطيع أن تقف أمام هذا الهائل الأبديّ الذي هو قطعةٌ من بدايةِ الكون لَمّا كانت حرارةُ بداية الخلق في أقصى درجاتها. لا بدّ، إذن، من أن تعودَ للمجاهدة بالقِلّة إلى هذه البداية التي تُشعِرُك بحقيقة افتقارك. لا شيء يُبطِرُ الإنسانَ من الكثرة التي تُوهِمُه بأنّه أصبحَ يَملِك. **لا بدّ من أن تَملِكَ حتّى تعرف أنّك لا تَملِكُ شيئًا.**

مَشَتِ الجمال تتهادى في هاتِيك القِفار بعدما شَحَذَ القَومُ هِمَمَ أرواحهم عند زاوية الشّيخ زَرّوق الذي دَفَنَ طينته في طينة تلك الأرض، على

الحدود بين مجالين. هكذا هم أهلُ اللّه يُرابطون دومًا على الحدود الحِسّيَّة والمعنويَّة. حدود الرُّوح والجسد، حدود العمران والبادية، حدود عليك وحدود لك. تعدَّدَتِ الحدود، ووقف المرابطون على الحدود يُرشِدُونَ المسافرين، ويحقِّقون الرحمة بالضُّعفاء والمحتاجين. لا بُدَّ في كلّ سفر من أن ينخَلِعَ الإنسانُ عن كلّ زَيف. حينها تُسفِرُ له الحقائق عن نفسه التي بين جنبيه أوَّلًا، ليدركَ ما خرج عنه ثانيًا. مَضَوا يَقطعون المراحل واحدةً تِلوَ الأخرى، وكأنَّ النُّفوسَ تقطَعُ مراحلَ أخرى للرُّوح. وبقدر ما يتقلَّلُ المرءُ بأنواع المجاهدات الأربع في ظاهره، يتحقَّق صفاءُ باطنِه وتتجَوهَر روحه.

وصلوا بعد أسبوعين تقريبًا، يومَ السبت مُتِمِّ شعبان إلى مدينة أجدابية، بلدِ الإمام المالكيِ سُحنُون، الذي ارتبط باسمه القولُ السَّائر «ليسَ السِّرُّ في النون بل في سُحنُون»، أيْ إنَّ الحرفَ سِرُّهُ مُنكَتِمٌ فيه، فلا يَعمَلُ ولا يَنفَعِل إلَّا للإنسان الذي له الاستعدادُ المطلوب لذلك الانفعال.

أمضَوا الفِطرَ في أجدابية، ولم يتلبَّثُوا في المُكث، بل كانت أمامهم جبَّانةُ بَرقَةَ المقفِرة التي لا يَسلُكها إلَّا القِلَّةُ من الصابرين. بدأوا بعد هذه المرحلة يمشون ليلًا، فخرجوا عشية يوم العيد يقطعون هذا الغُولَ المخيف، وهذه الصَّحراء المرعبة التي ترك السَّالكونَ الذين سَلَفُوا أخبارَ شكاويهم عنها، ورُعبَهُم من مَجاهِلِها. كان الرَّكبُ متوجِّسًا من عُبورِها على الرَّغم من العُدَّة والعَدَد. برقة هي المدينة المخمَّسَة «أنطابُولِيس»، كما كانت طرابلس مدينة مثلثة. بين التثليث والتَّخميس أسرار، كما بين دين التَّوحيد ودين الأقانيم فُروق ونِسبَة. ألهذا السَّبب انتشرت العديد من الأديرة في مجال التثليث، وأضاءت خَلاوي الصوفيَّة في مجال التَّخمِيس؟

مَضَوا في مشيهم حتَّى وصلوا إلى قرية سَلُوق. هنا يفترق الطريق إلى طريقين: طريق ساحلي هو طريق الجبل الأخضر الطويل والآمن الذي يمرّ ببنغازي. والطريق الثاني الموحش المختصر، المعروف بـ«السّروال»، والذي يخترق صحراء برقة، حيث لا ماء ولا زاد لعدَّة أيَّام.

كان الركب مجهزًا بما يكفي من المؤونة والماء والجند، فقطعوا طريق السروال المقفر، وسلكوا دروبه الموحشة من سَلوق إلى قصر المخيلى. ومنه إلى منهل التميمي جنوبي مدينة دَرنَة. تزوَّدوا هناك بما يلزمهم، وأعمَلُوا السَّيرَ مجدَّدًا بعدما قطعوا هذه الجبَّانة المخيفة. لم يُعَكِّر صفوهم سوى الحرارة المفرطة وأشعَّة الشَّمس الملتهبة، والزوابع الرَّمليَّة المحرقة، لكنَّهم كانوا يسافرون في ظروف مُيَسَّرَة لأنَّهم كانوا يحملون حاجتهم من الماء والزاد. كما أنَّ الظلّ متوفِّر تحت مظلَّات الهوادج المحمولة على

الدوابّ. كان بعضهم يمضي وقته في القراءة، أو الذِّكر، أو مبادلة أطراف الحديث عن كائنات الصحراء، وما فيها من الوحوش والغِيلان.

كان أمير الركب يقوم بخدمة الحجيج بما أُوتي من لباقة وطيبة. لقد ورث عن أُسرته الأثِيلَة في التجارة والخِدمة السُلطانيّة أصولَ المعاملات وسِرَّ المودّات، فكان يخدُم بنفسه طلبات المسافرين، ويسارعُ في تلبية حوائجهم. لا يَمَلُّ ولا يَكَلُّ، فتراه دومًا متنقِّلًا على فرسه بين مقدمة الركب ومؤخّرته، بينما كانت الجِمال تدفع أعناقَها تفتحُ طريقًا في لهيبَ الصَّحراء.

دخلوا بلاد مصر يوم الخميس التاسع عشر من شوال، وخيَّموا بالمحلّ المعروف بالبركة التي يجتمع فيها الركب المصريّ، فالتحق بهم كثير من الحجيج ليسافروا معهم وليحتموا بهم من غوائل اللّصوص وصعلكة قُطَّاع الطُرُق والقبائل السَّائبة. لقد كان الركب في البداية ركبًا مغربيًا، وبدأ الحجَّاج من كلّ الأقطار التي كان يمرُّ بها يلتحقون به حتَّى أصبح ركبًا كبيرًا ممتدًّا على مسافة طويلة، لكنَّ ملوك المغرب كانوا معتادين على أخذ تلك البلاد في حمايتهم منذ أن بسطَت إمبراطوريّات عظيمة سلطانَها على كلّ بلاد الغرب الإسلاميّ.

كان النزول لعدَّة أيَّام للتَّزوُّد والاستراحة وانضمام الرَّكب المصريّ إلى رحلة الحجّ تلك. كان للركب المصريّ أصولٌ متوارثة، وله محمل وصُرَّة وعادات.

نزلت لالة خناثة في القاهرة مع حاشيتها، وزارت الجامع الأزهر وصلَّت فيه. كما زارت مشهَدَ سيِّدنا الحسين، ولقَّنَت حفيدها أثرًا مشهورًا «عادَى اللّـه مَن عادَى عَلِيًا»، فتدخَّلَ مُؤَدِّبُ الأمير الصغير، أبو القاسم التّسولي مُعَقِّبًا لناحية تلميذه: رفعُ اسم الجلالة «اللّـه» على الفاعليّة، أي عادى اللّـهُ رجلًا عادى عليًا رضي اللّـه عنه. فهو دعاءٌ أو خبر.

فقال الأمير: لعله يَصِحُّ أيضًا بنصبِ اسم الجلالة على المفعوليّة، ويكون معناه عادَى اللّـهَ رجلٌ عادى عليًا.

فقالت المؤدِّب: صدقت يا سيدي، إلَّا أنَّ الأوَّل يؤيِّده حديث «اللَّهُمَّ عادِ مَن عاداهُ».

وجَّه الشَّيخ الجِفني، كبيرُ علماء الأزهر في المنقول والمعقول، دعوةً للوزير الإسحاقي إلى تناول وجبة غذاء في بيته. تحدَّث الرجلان ومَن بمَعِيَّتِهما في أمور العلم والأدب وما شاكل ذلك، إلَّا أنَّ الضِّيافة كانت بسيطة لا تليقُ بمقام الوزير الأديب، وإن كانت تليقُ بمقام الشَّيخ الفقيه، فقد خَلَتِ السُفرَةُ من اللَّحم، وكانت نَفسُ الإسحاقي قَرِمَةً إليه بعد رحلة

السَّفر في صحراء برقة. قُدِّمَ إليه العَدَسُ وبعضُ الحوامض مع شيء من الأرُزّ، فقال الإسحاقي ممازحًا ومُنكِّتًا لعله يَستَجوِدُ مُضِيفَه: إنَّني يا شيخُ أُفَضِّلُ العدسَ لأنَّ معه مُسَوِّغًا، يَقصِدُ الحوامضَ.

ففضبَ الشَّيخُ الحِفني من تعريض الوزير بِخُلُوّ مائدته سوى من العدس والحامض، فقال له: جعلتَ طعامي نكرةً تحتاجُ إلى مُسَوِّغ؟

أدرك الإسحاقي أنَّ الشَّيخ لم يستَسِغ مزاحَه، فاعتذر إليه بلباقة: كلاهما مَعرفةٌ يا مولانا، إلَّا أنَّ في العَدَسِ مُسَوِّغًا للابتداء به.

وحتَّى يُبَدِّدَ حَنَقَ الشَّيخ، أقبلَ على الحوامض يأكلُ منها مُكرَهًا.

أمَّا الأديب العلّامة، العربي بن محمد بصري المكناسي، فقد كان يحضر مع القاضي العُمَيرِي وجمعٍ من الطلبة دروسَ الأزهر، وخصوصًا دروس الشَّيخ الحفني، فأراد الشَّيخ أن يتنَدَّرَ على أهل فاس ممَّن كانوا حاضرين في المجلس، فقال: لا تجوزُ الصلاةُ خلفَ الفاسِيّ، يقصِد اسم الفاعل مِن فَسا يَفسُو، أي يُخرِجُ ريحًا كريهة. فتصدَّى له الفقيه العلَّامة بصري للثَّوِّ قائلًا: إنَّ المالكيَّة يقولون بجواز الصلاة في العَذِرَة.

استعاذ الشيخُ الحفني من هذا الكلام حتَّى ضحك المغاربة الذين كانوا حاضرين من رَدَّةِ فِعلِهِ، وصار يُحَوقِلُ وتجحَظُ عينه لأنَّ العين الثانية كانت منطفئة، ولعله كاد يقول: أنتم معاشرَ المغاربة لكم آراء غريبة. لكنَّه أحجَم، فلا يليق بعالِم مثله أن يتسَرَّعَ في الحُكمِ، لكنَّه لم يفهم تجويزَ المالكيَّة للصلاة في العَذِرَة. كان يُحَدِّثُ نفسه ويقول، إن كان مقصودهم ما يتبادر إلى الأذهان ممَّا يَعِفُّ المرءُ عن ذكره، فقد خرجوا عن الإجماع ووقعوا في الشُّذُوذ، وحاشا أن يكونَ قصدهم ذلك، إذ لم يبلغ إلى علمنا أنَّ المالكيَّة تُجَوِّزُ الصلاةَ في النجاسات. ولعل صورةً من صُوَرِ الضرورات قد ألجأتهُم إلى هذا القول، وجوَّزَت لهم هذا الفعل. ولما احتار في توجيه كلامهم واستشكل مقالتهم، اضطرَّ إلى أن يُعرِبَ عن جهله، ويسألَ عن المقصود من هذا الكلام، فأجابه العلّامة بصري: لفظ «العَذِرَة»، شَرَّفَ اللّه قَدرَكُم يا مولانا، مِنَ المُشتَرَك اللفظي، فهي تعني في «لسان العرب» «النَّجاسة»، كما تعني «فِناء الدار»، وحُكمُ الجواز في قول المالكية ينصرفُ على المعنى الثاني كما لا يخفى. انفرجَت أسارير الشيخ وأقَرَّ بِعُلُوّ مرتبة مُخاطِبِه وعِلمِه، واعتذر عمَّا بَدَرَ منه لناحية الفاسيِّين، وأدرك أنَّ مَن يَغمِزُ في النَّاسِ قد يُهمَز من حيث لا يدري. وقد كانت هذه الحادثةُ سببًا في صحبة الرجلين طوال مُكثِ رَكبِ الحاج في مصر ذهابًا وإيابًا، حتَّى توطَّدَت بينهما الصِّلَة.

غادروا مصر، بعد أن قَضَوا مآربهم فيها، وقطعوا عدَّة محطَّات منها الدار

الحمراء، عجرود، رؤوس النواظر، وادي التيه، الذي يقال إنَّ بني إسرائيل قد تاهوا فيه بعد خروجهم من مصر، ثمَّ محطَّة النَّخيل، فبئر الزعالك، فسطح العقبة، التي هي حاضرة البحر المذكورة في القرآن، والمسمَّاةُ عقبةُ أيلَة. وعندها، كان الركب قد قطع نِصفَ المسافة من مصر إلى مكَّة. ثمَّ وصلوا إلى محطَّة ظهر الحمار، وشراجة ابن عطية، فمعابر شعيب، فعيون القصب، فالبندر، فَبيار السُلطان، فالأزلام، فالإصطبل، ثمَّ وادي لكره، فالحوراء، فالنبط، فالينبوع. وهو أصل موطن شرفاء المغرب العلويِّين. وهناك اتَّصَلَت لالة خناثة بالشُرفاء فَقَدِمُوا للسَّلام عليها وتهنئتها بالسَّلامة، فأكرمتهم وأحسنَت إليهم على العادة الجارية. كما أهدتهم خِلعًا وكَساوِي رفيعة الطراز، وسلَّمَت إليهم منتي مثقال ذهبيّ كانت تصل إليهم منذ عهد زوجها السُلطان مولاي إسماعيل. كما سلَّمَت مِن حُرّ مالها منةَ مثقال ذهبيّ، شطرُها الأوَّل للشرفاء من الذكور، وشطرُها المتبقي للشريفات العفيفات من أهل ينبع.

ومن ينبع توجَّهوا إلى بدر، فتذكَّروا المعركة الفاصلة التي خاضها أهل بدر مع النَّبيّ في ثلاثمئة وثلاثةَ عَشَرَ رجلًا. ثمَّ قاموا لبروة القاع، فرابِغ فقديد، فعسفان، فوادي فاطمة.

قامت لالة خناثة قبل الركب، في اليوم التالي، وواصلت السَّير مع حاشيتها إلى أن وصلَت إلى ذِي طُوَى فَصَلَّت هناك المَغرِب، واغتسلَت للدخول إلى مكَّة المكرَّمة فدخلتها وقت العِشاء يوم السابع من ذي الحِجَّة الحرام في محفل عظيم يحيط بها وُصفانُ البُخارَى وأجنادُهم.

طافت السَّيِّدة الحُرَّة طوافَ القدوم، وصلَّت خلفَ المقام، وتضلَّعَت من ماء زمزم، وسَعَت بين الصَّفا والمروة، ثمَّ قامت من الغد إلى مِنى، وبعدها في اليوم الموالي إلى عرفات، فوقفت هناك وقفةَ العُمر، ثمَّ نَفَرَت إلى مُزدَلِفَة وباتت أيَّام التَّشريق في مِنى، ثمَّ نزلت مكَّة الحرام.

كانت خلال مقامها في مكَّة تداوم على الصَّلاة والطواف، فتنزل في جُنحِ اللَّيل برفقة حفيدِها الصغير فتطوفُ بالبيت وتبذُل بغير حساب لمن قصدها أو لم يقصدها، وتُعطي عطاءَ مَن لا يخشى الفاقة. كما دخلَت جوفَ الكعبة مع حفيدها وأفاضت على سَدَنَتِها كَرَمًا عظيمًا أثَّلَت به للمغرب ذِكرًا لا يتقادم ولا يَبلَى، وأنسَت صَنِيعَ زبيدةَ زوجة هارون الرشيد قبلَها بما لا يُقارَنُ ولا يُعلَى. كما أوقفَت الأوقافَ واشترت دارًا قرب باب العُمرَة من أبواب المسجد الحرام بمئة ألف مثقال ذهبيّ، حبَّسَتها على طلبة يختمون كلَّ يومٍ ختمةً من القرآن. كما أوقفَت على من يدرس «صحيحَ البخاري» في تلك الدار، وعَيَّنَت ناظرًا عليها.

وقد جالست علماء الحرم وحادثتهم في قضايا العلم والفقه فأُعجبوا بِسَعَةِ اطلاعها وقوَّة إيمانها حتَّى قال فيها مادحًا أبو عبد اللّه محمد بن علي الحسيني الشافعي الطبري، إمام المقام الخليلي:

«غَنَّى على عُودِ السُعود هَزاري وشَدا على الأوتار بالأوطارِ
والأنسُ طابَ لنا بأوقاتِ الهَنا بسَلامةِ الحُجَّاج والزُوَّارِ
لاسيَّما بسَلامةِ السِّتُّ التي حَظِيَت ببيتِ اللّه والأسارِ
فلها المُنَى بوصالِ مَن قد جاورت والأكرمونَ يَرَونَ حقَّ الجارِ
فاحت بها أرجاءُ مكَّةَ رغبةً ومحبَّةً من سائر الأدوارِ
وهي الحَقيقةُ بالجلالة في الورى فجلالةُ الأضياف ليس بِعارِ
واللّهُ قد ألقى عليها دائمًا حُسنَ القبولِ كَسِيمةِ الأخيارِ
وهي الحليمةُ والكريمة ما لَها في الجودِ ثانٍ مِثلَ غَيثٍ جارِ
ولها كمالٌ وافٍ في عِفَّةٍ ولها حياءٌ فاقَ في المقدارِ
فاللّهُ يحمِلُها بحُسنِ رعايةٍ منه إلى مَكناسَ بالأوطارِ»

وبعد أن قضت وَطَرَها في مكَّة الحرام، تاقَت نفسُها إلى زيارة طيبةَ، مَثوَى خَيرِ الأنام، فخرجَت ضَحوَةَ يوم الجمعة، السابع عشر من ذي الحجَّة، فسلك الركب طريق المجيء نفسَها حتَّى بدر، ثمَّ منها توجَّه في طريق الصفراء، فالجديدة، فقبور الشهداء، فبير علي، فوادي العقيق، فالمدينة المنوَّرة، مظهر **الطُهر والهداية** (طه)، ومَعدِن **اليُمن والسَعادة** (يس). أقامَت لالة خناثة وحفيدُها سيدي محمد ثلاثةَ أيَّام في دار مفتي الشافعيَّة، أبي الفخر زيد العابدين المنوفي، فوقفَت في المواجَهَة الشريفة وتخضَّلَ خُدَّاها وثيابُها بالدُموع، واشرأبَّت نفسُها إلى لقاء صاحب التَّاج والقَضِيبِ المرفوع.

وصلتها في بلاد الحرمين رسالةٌ من رجال ثقتها من الوداية يخبرونها بما قام به السُلطان ضدَ عبيد البخاري، وحذَّروها من أنَّهم يتآمرون عليه، وأنَّ حضورها إلى جانبه أمر في غاية الأهمِّيَّة لإحباط تلك المؤامرات التي إن نجحوا فيها فستكون وبالًا على البلاد. كما اشتَكَوا إليها من أنَّ مولاي عبد اللّه أعطى أوامره بهدم مدينة الرياض في مكناسة، فتركها رُكامًا من تراب في عشرة أيَّام، واضطرَّ مَن فيها من جيش الوداية إلى الهجرة إلى فاس الجديد للانضمام إلى إخوانهم هناك، بينما تفرَّق جيش عبيد البخاري في

المدينة القديمة من مكناسة. كانت خناثة ترغب في أن تمضي وقتًا طويلًا في مدينة الرسول، لكنَّ الأخبار غير السَّارة التي جاءتها من المغرب جعلَتها تتخوَّف على ابنها، وتخشى على مصير حفيدها من بعده، إذ إنَّ ما قام به ولدها سيجعلهم ينقلبون عليه لا محالة. ولو تمكَّنَ العبيد من خَلعِ السُّلطان مولاي عبد اللَّه، فلا شكَّ في أنَّ ذلك سيقطع نسلَها عن حُكمِ المغرب. عجَّلتِ الزَّوجة إلى دار مملكتها حتَّى تكونَ في عون ولدها السُّلطان مولاي عبد اللَّه، وحماية حقوق حفيدها.

مَرُّوا بمصر مرَّة ثانية وأحيوا المولد النَّبويّ بها على العادة المألوفة في المغرب بقراءة المولديَّة وتلاوة البردة والهمزيَّة ودلائل الخيرات. وقد نفخت بكرمها كلَّ من قصدها. كما اتَّصلت بالسَّادة البكريِّين الذين تفرَّسوا في حفيدها فراسةَ خير.

وصلتها أنباء جديدة وهي في مصر، فانزعجت للعودة إلى مكناسة. مرُّوا على طرابلس فاستقبلهم القُرَّه مانلِي مرَّة أخرى مع أهل بيته وحاشيته، لكنَّ الركب لم يتلبَّث هناك كثيرًا، بل أسرع في العودة.

وصلت خناثة أخيرًا إلى حاضرة مكناسة، ودخلت من باب المنصور العلج الذي كان السُّلطان قد أمر العِلجَ الإسباني منصور ببنائه، وسمَّاه باسمه لمَا أعتقَه بعد أن أسلمَ حين كان في الأسر. وقد استعان في بنائه بعدد كبير من أسارى الإسبان، فجاء في أبهى صورة. هال خناثةَ ضخامةُ هذا الباب الذي أصبح أعظمَ باب في بلاد المغرب، وعليه من النُّقوش والزَّخارف ما يُبهِر الألباب.

وقفَت على مدينة الرياض التي أصبحت كُومةً كبيرة من التراب، لمَا مرَّت بين دروب القصبة الإسماعيليَّة. أينَ الدُّورُ والقُصُور؟ أين الأسواق والحمَّامات؟ أين زينة مكناسة؟ لقد ساءها أن ينتقِمَ ابنُها من تَدَخُّلِ العبيد في شؤون الدولة بهدم مدينة الرياض. هذا قرار مُتهوِّرٌ سيَجلُبُ عليه الويلات. كانت امرأةً حكيمة تُقَدِّرُ عواقبَ الأمور. ولو كانت موجودة لمنعته من ذلك، لكنَّه رتَّب أموره فهدم المدينة في فترة غيابها. كانت خناثة رحيمة بمن يقف ببابها أو يتوسَّل إليها، وتسعى لقضاء أغراض الناس، فلو أنَّها كانت موجودة لمنعت حدوث هذه الكارثة التي ستؤثر في استقرار البلاد.

***

لما وصلت خناثة مع حفيدها سيدي محمَّد، نهض إليها ولدها لاستقبالها. ولم تكد تستريح من تعب سفرها حتَّى تحدَّثت إليه عمَّا جرى، وأنَّبته على هدم مدينة الرياض التي كانت زينةَ حاضرة مُلك الدولة بقصورها

وحماماتها ومساجدها وأسواقها، فَرَدَّ عليها: إنّ هؤلاء العبيد قد شَمَخُوا بأنوفهم وتطاولوا في البنيان، وصاروا يتدخّلون في شؤون الدولة، فكان لا بدّ من إرجاع الأمور إلى ما كانت عليه قبل أن يتنافسوا في بناء القصور وجمع الأموال. فلا يليق بالجيوش أن تُخلِدَ إلى الراحة والدَّعَة وتنسى أمرَ الدّفاع عن حوزة البلاد، وحماية بَيضَةِ الأوطان.

فقالت خناثة: أعلم ذلك، لكن يجب سياسة الناس بالحيلة والدهاء، بدلًا من المواجهة المباشرة.

فقال مولاي عبد اللّه: لقد كانوا، يا أمّاه، يجتمعون ليلًا في قصر من قصور مدينة الرياض، ويُدبّرُونَ ما يتّفقون عليه. فمن تلك الاجتماعات السرّيّة اتفقوا على مبايعة مولاي أحمد سلطانًا، وفيها أيضًا اتّفقوا على عزله ونصرة مولاي عبد الملك، وفيها عزلوه هو أيضًا وأعادوا مولاي أحمد. ثمّ إنّي كلّما اتّخذت قرارًا من القرارات اجتمعوا للرّدّ عليه. وكلّما أبرَمتُ أمرًا نَقَضُوه من الغد. وقد تركتهم مذّة يتآمرون، فلما ظهر لي أنّ الحزمَ يكمُنُ في حسم هذا الخَرقِ السّافر لكلّ الجهود التي كنت أبذلها في حكم البلاد، قَرّرتُ أن أهدِمَ وَكرَهم الذي تأتي منه الفِتن.

يا أمّاه، لا يمكن أن تُساسَ البلاد برأسين، ولعلّي إن تركتهم يفعلون لأصبحوا هُمَ الرأس ونحنُ الأعقاب.

كانت لالة خناثة مقتنعةً بما يقول ابنها مولاي عبد اللّه، إلّا أنّها كانت ترى أنّ مِن الحكمة أن يتريّثَ الإنسان في قراراته، وألّا يقزع إلى الانتقام كما فعل ولدها بالعبيد، حيث قتل منهم كلَّ مَن ثَبتَ ضلوعُه في قتل أخيه السّلطان عبد الملك، أو تآمرَ عليه، أو ساعدَ على ذلك، فكرهوه. ثمّ إنّ أخواله من جيش الوداية لم يَسلَمُوا من بطشه، إذ هدم دُورَهم التي كانت في مدينة الرياض، فأحنقهم عليه، واشتكوا إلى خناثة من فعلته. فبعد أن كان رؤوس الفتنة قِلّةً، ازداد عددُ الناقمين بكثرة.

كان مولاي عبد اللّه شجاعًا حازمًا، لكنّه كان محتاجًا إلى التريُّث في بلوغ أهدافه. فالعبيد صاروا قوّة كبيرة لها نفوذ وشوكة عظيمة في كلّ البلاد، ولا طاقة له بمجابهتهم إلّا باصطناعهم وسياستهم بالحكمة، وتوجيه قوّتهم لأهداف خارجيّة تجعلهم يُفرغونها فيما يزيد في حماستهم، ويُبعدهم عن السياسة، وإشغالهم بمهمتهم الأساسيّة، وهي الدّفاع عن الوطن وتحصينه من الفتن الداخليّة والخارجيّة. لكن مولاي عبد اللّه عاقب كذلك كثيرًا من القبائل التي كانت قد امتنعت من أداء الأعشار والجبايات جزّاء شُحّ الموارد أو ما سوى ذلك من الأسباب. كلّ هذه العوامل أحنقت عليه كثيرين وزادت في كثرة أعدائه. كان العبيد يُشيعون

أيضًا أخبارًا كاذبة عنه حتّى تتغيّر قلوب الناس عليه.

مضت الأمور على هذا النحو، وخناثة تُعنَى بحفيدها الذي كان يحبُّها ويُقَدِّرُها حتّى إنّه كان لا يغادرها، فيتعلّم منها سياسة الدول وتدبير الحُكم، بينما كان أخوه الأكبر مولاي أحمد ملازمًا لوالده السُلطان.

أسرف مولاي عبد اللّه في قتل كبار قادة العبيد حتّى كاد يستأصِلُ كبراءهم، فاجتمعوا على محاربته وخَلعِ بيعَتِه وقتلِه، لكنّ عيونَه التي كانت مُندَسّةً في صفوفهم فأوصلت إليه خبرَ هذه المؤامرة، فَفَرَّ ليلًا من مكناسة وذهب إلى قصبة تادلة، ثمّ يمّمَ نحو بلاد السّوس حتّى نزل في وادي نون عند أخواله المغافرة برفقة ولده مولاي أحمد. أمّا خناثة، فقد بقيَت مع ولدِه الأصغر سيدي محمد، تسعى لتسوية الأوضاع، وإبعاد الفِتن عن البلاد جرّاء تدخل قواد عبيد البخاري في شؤون الحكم.

بايع العبيد، بعد فرار مولاي عبد اللّه، أخاه أبا الحسن عليًا بن إسماعيل من زوجته لالة عيشة مباركة المتوفاة. حاول السُلطان الجديد أن يبسط سلطانه، ويؤلّف قلوب الناس عليه بالتّخفيف عنهم، فلم يأخذ منهم سوى الزكوات والأعشار الشّرعيّة، ولم يفرض عليهم حقوقًا أخرى في الأموال. ثمّ قام بتفريق المال على أفراد الجيوش حتّى يأتلفهم. فلما نفد ما عنده، وكثرت الطلبات عليه، أوعز إليه زعيم «عبيد البَواخِر»، الباشا سالم الدكالي بأن يأخذ الأموال التي بيد لالة خناثة، وأغرَوا صدره بأنّها قد تستعملُ ضدّه وتُفكّر من عودة أخيه مولاي عبد اللّه إلى السُلطة.

كانت أيّامًا تشيب لها الوِلدان، فقد تسلّط القايد العياشي والقايد مساهل من العبيد على مكناسة، فساموا أهلَها الذُّلّ وامتحنوهم وفرضوا عليهم دفعَ أموالهم. لقد كانت خناثة في رَغَدِ عيشٍ وأهنإ حال، ثمّ تبدّلت الأمور. لم يكتف مولاي علي بتهديدها، بل قرن القول بالفعل، وكانت الطامة الكبرى.

لم يجد بُدًّا من الرضوخ للجبّار العنيد سالم الدكالي، وتركه يتصرّف مع زوجة أبيه لاستخراج الأموال التي في حوزتها. ذهب القائد سالم الدكالي إليها مع رجاله، فدخلوا دارها وعاثوا فيها فسادًا، وأخذوا كلّ ما وجدوا من تحف وأثاث وأموال. لكنّ قائد البُخارى لم يكتف بأخذ ما بلغته أيدي رجاله وزبانيّته، بل أهان ربّة الدار العليّة وأساء معاملتها، وطالبها بتسليم ما عندها من أموالها المخبّأة، فامتنعت فأجبرها على ذلك، وأمرها بأن تَدُلّهُ على خزائن الأموال السرّيّة فَأبَت، فانتهرها وأوثق يديها، ودفعها رجالُه أرضًا حتّى ارتطمت جبهتها بإفريز عمود من الرخام فَشَجّها وسال الدّمُ على وجهها. بقيت صامدةً لا تَلين. أمّا وصيفتُها «مسك الجيوب»، فقد

تعالى صراخُها لمّا رأت عدوانَ العبيد على سيّدتها، وحاولَت أن تَكُفَّهم بصراخها، لكن أحد «عبيد العافية» صفعها بصفحة كفِّه فألقاها أرضًا فاقدةً الوعيَ. ثمَّ كَبَسَ العبيدُ الأميرَ سيدي محمد في موضعه، وأوثقوه وساقوه خارج الدار مع جدّته في حالة من الإذلال والإزراء. كانت سائر النساء والخدم يرقبون هذا المشهد غير المعتاد، وهذه الوقاحة التي لم يسبق أن تَجاسَرَ بها العبيدُ في حقِّ سيِّدَتِهم وكبيرتهم، لكنَّهم بَقُوا مختفين خلف السُّتُر والشبابيك والمشربيات، بل خلف أنقبتهن وماء دموعهن، لا يملكون الاعتراض على استبداد العبيد في دار الأسياد. سيقت لالة خناثة والأمير سيدي محمد إلى سجن القصر المسمَّى «البنيقة»، الذي كان مخصَّصًا لسجن عبيد الدار وتأديبهم. عجبًا، كيف انقلبت الأمور؟ إذ أصبح العبيد أسيادًا حتّى أودعوا أولياء نعمتهم في السجون، وأزرَوا بهم وأذلُّوهُم. كان الأمير الصَّغير ينظر مِن عَلٍ إلى هؤلاء الأوباش الذين تسلَّطوا على الدولة، وكان يفكِّر في طريقة للخلاص منهم. فإذا كان حُلمُ جَدَّتِهِ أن تُوصِلَهُ إلى السُّلطة، فإنَّ حُلمَهُ اليومَ هو أن يتخلَّصَ من هؤلاء الأجلاف.

لم يبقَ من عِزِّ الأيّام الخَوالي شيءٌ. ها قد أهان السُّلطانُ الجديدُ لالة خناثة بعدما أغراه العبيد بها، وزيَّنوا له أن ينتقمَ لأمِّه لالة عيشة، التي كانت صاحبة الأمر والنهي قبل خناثة.

أيُّ ذُلٍّ يقع للإنسان بعدما كان يملك الدُّنيا؟ ثمَّ بين عشيّة وضحاها، يتغيّر كلُّ شيء. كانت خناثة تشعر بظلم عظيم وحزن عميق. كيف للسُّلطان الجديد أن يفعل بها هذا؟ مع أنَّ والده مولاي إسماعيل كان قد استوصى بها خيرًا، وأكَّد توقيرها وتبجيلها من بعده. لم يعد السُّلطان الجديد يعرف كلَّ هذه الاحترازات، فقد كان مسكونًا بشيء واحد، هو أن يُثبِتَ مُلكَه باصطناع العبيد وتلبية أهوائهم، ففَوَّضَ تدبير الحُكم إليهم. لا شكَّ في أنَّهم لم يكونوا على قلب رجل واحد، فبينهم عداوات ومنافسات، كان مطمَحُهم الأوَّل جمعَ الأموال، لكن لم يعد هناك ما يمكن أن يتسلَّفوه من السُّلطان، فأشاروا عليه بسجن الحاجة خناثة حتّى تكشف عن أموالها المخزونة في الخزائن السرِّيّة.

لما رأت خناثة ما وصلت إليه الأحوال، دمعت عيناها، لكنَّ الزَّبانية لم يرحموها. وكيف يَرحَمُ من لا يعرِفُ مشاعر الرحمة؟ لقد كان العبيد يعيشون في جوّ من العنف داخل ثكناتهم العسكريّة. لم تكن هناك خيارات كثيرة في هذه الفترة سوى القبض على الأسرى، فإمّا أن يفتدي الأسير نفسه بمال عظيم، وإمّا يفقد حرِّيَّته ويصبح عبدًا يَملِكُه غيرُه. وإن رفض وقاوم يُقتَل. احتمالات ثلاثة لا رابعَ لها. أصبحت هذه القواعد الاستبداديّة

هي التي تُملي على هؤلاء التَّصرُّف مع أيِّ كان. فالسُّلطة حينما تنتقِل، ينتقِلُ معها كلُّ شيء، فلا يبقى جاهٌ ولا حُرمَة. جاء العبيد فأوثقُوا لالَّة خناثة من يديها وأذَلُّوها، لكنَّها بقيَت شامخةً لا تَلِينُ مثلَ نَخلةٍ تقاوم زوابع الصحراء. تذكَّرَت حياةَ الحرِّيَّة التي كانت تعيشها في البيداء لمَّا كانت في مضارب قومها، فأدركَت قيمةَ هذه الحرِّيَّة على بساطتها. أين المال؟ أين السُّلطة؟ أين الجاه؟ كلّ هذه الأمور تشبه سرابَ الصحراء الذي يتراءى للمسافر، فلا يلبثُ أن يمسِكَ به وهمًا يتبدَّدُ بين عينيه. تذكَّرَت ما بقي عالقًا في ذاكرتها من تلك الحياة البسيطة الجميلة. تمنَّت لو أنَّها تستطيعُ أن تذوقَ رغيفَ الفقراء المنسَّم بريح النُّخوَة والإباء. تمنَّت أن تخبز ذلك الخبز وتصهر كفُّها لمَا تُلقي الرغيفَ فوق الجمر. تمنَّت أن تتلقى وخَزَ حبَّات الرمل التي ترفعها رياح الصحراء. تمنَّت أن تجلسَ إلى أصل نخلة حتَّى تتلقَّى رُطَبَها مثل مريم العذراء. لقد انقضت تلك الأيَّام، وها قد نالت ما تريد، لكنَّها أدركَت أخيرًا أنَّ السَّعادة في قلَّة الناس البسطاء. الكثرة شقاوة لا يعرفها إلَّا الأصفياء، لهذا كانوا يتقلَّلون، يُملَكُونَ ولا يَملِكُون. سِرُّ البلايا كلِّها في حُبِّ التَّملُّك، والرَّحمة بجميع الخلائق تِرياق من سُمِّ عقارب التَّملُّك. كانت لالة خناثة امرأةً رحيمة بكلِّ شيء، بالنملة التي تسعى، والحشرة التي تقفز، والحيوان الذي يلتقط قطعة لحم أو كسرة خبز، والدابَّة التي تُقِلُّ الناس وتتحمَّل الأثقال، والإنسان الذي يتعب طول يومه في طَرق الحديد أو حمل الأثقال. كلّ هؤلاء يستحقُّون الرحمة لأنَّهم رضوا باليسير في مقابل مَنحِ الكثير.

إيه، حبَّاتِ رمل الصَّحراء المنصهرة بشمس القرون، متى يسمح الوصلُ كي تمشي خناثة حافيةَ القدمين؟

أحلامٌ تراود الإنسان، وهو في ابتلاءات العصر. تُصيبُ المرءَ سخريةٌ عدمية عجيبة حينما تنقلبُ الأمور على هذا الشَّكل. يزهَد في كلِّ شيء، ويتمنَّى أبسطَ شيء. تمنَّت خناثةُ أن تمشي حافيةً تُظهِرُ شقوقي قدميها على أعفابها. يداعبها نسيم الصحراء، وتغازلها أشعة العشيِّ والمساء. تمنَّت أن تجلسَ تحت ضُروع النِّياق لتحلُبَها حليبًا طازجًا. ما أحبَّ لبنَ الإبل الذي كرهته طوال هذه السنين؟ تمنَّت الآنَ لو أنَّ أحدًا تكرَّمَ عليها بقدح من ذلك اللَّبن. ما أتعسَ الإنسان؟ لقد استعظَمَت أمرَ التَّسمين حتَّى جعلَت مِنَ التَّمرُّدِ عليه هدفَ حياتها. فما قيمةُ هذه الحياة إذا الت إلى ما الت إليه اليوم. لقد ملكَت خناثة ما لم تملكه امرأةٌ قبلها، وتزوَّجَت من أعظم السَّلاطين، وأنجبت أميرًا صار سلطانًا، وحفدةً أمراء أنجابًا. لكن، ما قيمة هذا اليوم؟ هل ستقبَلُ بهذا الوضع؟ هل ستسكُتُ على هذا الذُّلّ؟ أم أنَّها

ستقاوم كما قاومت دومًا كلَّ تَسَلُّط. إنها امرأةٌ خرّةٌ شريفة، لا ترضى الهوان. لقد مات كلُّ شيء من حولها. تبخّرَت أحلامُها. مات زوجُها الذي كان يحميها ويحفَظُ بَيضَتَها وصُرَّتَها وحِجرَها. لقد كانت له نِعمَ الوزيرِ وخَيرَ مُشِير. كاتبَتِ الملوكَ والسَّلاطين، وتنفَّذَت في أجهزة الدولة، وصارت كلمتُها مسموعةً مرهوبة. لكنَّها اليومَ، كسائر هؤلاء المماليك، لا تملِك من أمرها شيئًا. لقد حرَّرَ المولى إسماعيل أولئك العبيد، وجعل منهم قوَّةً ضاربةً تخشاها الأممُ الأوروبيّة كلُّها، لكنَّ الأسدَ غادرَ العَرين، فصار العبيد يقفزون مثل السَّنانير. لا يَزدُهم أحدٌ ولا يُؤدِبهم مُؤَدِّب، ولا يزجُرُهم زاجر. تركوا أقفاصهم، وهجروا قُصَباتهم، وأداروا ظهورهم لـ «صحيح البخاري» الذي أقسموا عليه بالولاء واتِّباع السُّنّة، وأرادوا أن يعيشوا مثل الملوك في القصور. لم يعودوا يريدون أن يتبارزوا في ميادين الوَغى ومَضامير الشِّرَى. لقد أحبّوا بذخَ الحياة وتطاولوا في جَمعِ زخارفها، وسعوا في اقتناءِ هواها وهوانِها. ألا فليعلم كلُّ طالبٍ للدنيا، أنَّ طَلَبَ الهوى مُؤَدٍّ إلى الهوان. لم يُهَن أصحابُ الأهواء إلَّا مِنَ الهَوَى، هَوَى المال، وهَوَى زُخرُفِ المتاع... تنافَسَ عَبيدُ الأمسِ، أسيادَ اليومِ، في جَمعِ الأموال، وبناءِ الدُّورِ والقُصور، واتَّخَذوا شاراتِ السِّيادَة وعَلامات القِيادة. أينَ المولى إسماعيل الذي كان اسمُهُ كافيًا وحدَه لإشاعة السِّلمِ والأمن؟ لا سِلمَ ولا أمنَ من دون هَيبَة. أصبح العبيدُ أسيادًا، وأصبحَ الأسيادُ عبيدًا في مملكة مولاي علي الضَّعِيف. هكذا هي الحياة حينما يَذِلُّ المرءُ في طلبِ السُّلطان من دون قَوارعِ الحزم، وشدائدِ العزم. كم سقطَت دولٌ وقامت دُوَيلات على أفرِشةِ الملذّات، ومُقارعة كِيسان المسرَّات، ومُفاخَذَةِ الصَّبايا والجاريات. أين المُلكُ؟ أين السُّلطان؟ لقد كان عرش مولاي إسماعيل على فرسه، فحيثما كان، مملكةٌ حاضرة ودولةٌ قائمة.

سؤالٌ مُحَيِّرٌ عن تَحَيُّزِ المعنى. لم يجد المغاربة بُدًّا من أن يَقرِنُوا السُّلطانَ بـ «المخزَن»، حتَّى صار المخزنُ هو السُّلطان. فحيث يَخزُنُ السُّلطانُ آلةَ الحرب ومَؤونةَ البلاد يكون السُّلطانُ آمرًا ناهيًا. وحيث تنعدمِ المخازن تنعدم السُّلطة. لقد بنى مولاي إسماعيل أكبر مخازن الدُّنيا، وجمع فيها الأقوات والجيوش والآلات والخيول وغير ذلك من العُدّة والعَدَد، بل لقد خَزَنَ المياه في الصهاريج العظيمة. وسَمّى تلك الحاويات العظيمة بأسماء عديدة، منها المخزنُ والهَريُّ والفرش والصّهريج. كلُّ الدول الفارقة في الحضارة تعرفُ أنَّ السُّلطةَ لا تكون إلَّا باتِّخاذ المخازن للأموال النقديَّة[1] والعينيَّة، وقد يسمُّونه الاحتياطيَّ من المال وغيره.

في كلِّ زمان دول تخزن هذا الاحتياطيَّ لوقت الحاجة، وكذلك كان في

عهد أعظم سلاطين هذه المملكة الشريفة، فَسُمّي الفلك باسم المخزن ولا يزال. إنّها نظرية في العمران جديرة بكلّ تنويه. من فرّط في محتوى المخزن، أو لم يتّخذ الخزائن والمخازن، فرّط في سلطة المخزن، أيْ في قوّة الدولة وأمنها. هذه هي القاعدة التي بنت سياسة ملوك هذه الدولة الشريفة. كان أسلافهم من أهل الواحات والصحراء يعرفون شُحّ الموارد وقِلّةَ المؤونات، فكان حريًا بمن دبّرَ القِلّةَ أن يحتاط لجمعِ الوَفرَةِ لوقت الشّدائد. كانت خناثة تُفكّرُ التفكير نفسه، ولهذا وضعت الأرصادَ على خزائنها، والأقفالَ على بيت أموالها، في دهاليز قصور مولاي إسماعيل التي تنوء بالعُصبة أولي القوّة. كانت تدّخرُ كلّ ذلك لولدها، ثمّ لحفيدها. فالدول لا تقوم إلّا على العصبيّات، سواء كانت عصبيّة القبيلة أو عصبيّة المال، أو غيرهما من العصبيّات. إنّها روابط اللُّحمةِ التي تلحمُ الدول حتّى تستشري الفتن. ومن دون تلك الروابط تأفِلُ تلك الدول كما يأفِلُ النّجمُ عند طلوع ضوء النهار. كانت خناثة تُفكّرُ على المدى البعيد. تحوّلَ هدفُها الصغير الذي نشأ معها منذ أن كانت صبيّة في مضاربِ قومها كي تُصبحَ سلطانةً تأمُرُ وتَنهى، تَحكُمُ وتُدبّر. لا شكّ في أنّ للتّدبير أحكامًا، وللحُكم تدبيرات. ها قد حانت ساعةُ الحقيقة بعد أن حُجِزَ بينها وبين آلةِ الفلك.

عاش مولاي إسماعيل على ضهوةِ فرس، ولم يُفَرّط في حقّ نسائه، بل أكرَمَهُنّ جميعًا. وما من امرأةٍ إلّا أولَدها حتّى خلّفَ المئات من الأولاد والبنات. ولعلّ بعض هؤلاء هم الذين ضيّعوا الحزم بعد وفاته. فبدلًا من أن يتّفقوا على حُرمَةِ الدولة، جزّأوا عليهم الجندَ والجيوش، فصاروا يأتمرون بأمرهم. كان لا بدّ من أن تتحرّك لالّة خناثة. كانت تعرف أنّ السّلطةَ جناحان، جناحٌ عسكريّ، وقد ضاع منها. وجناحٌ معرفيّ، وما زال في إمكانها أن تؤثّر في أصحابه.

لم يكتف السّلطانُ الجديد وحاشيته من عبيد البخاري بسجن خناثة، بل ضمّوا إليها حفيدها سيدي محمّد معها. فقد كانت تحبّه، وتحرص على أن يبقى إلى جانبها، تعلّمُهُ وترعاه، وتَدّخِرُهُ ليومٍ ترجاه. كانت حسرتُها عليه أكبرَ من حسرَتها على نفسها. ما ذنبُه حتّى يُلقى به في السجون مثلَ أوباشِ المجرمين؟ تَزَجّت خناثة مولاي علي كي يُطلق سراح حفيدها فأبى. وكيف له أن يُقرّر؟ ورجالُه من قُوّاد عبيد البخاري، هُم من يحكم ويأمر، فهو مُجبَر في قراراته، حتّى وإن أُشيرَ عليه بها. كان جشعُ العبيد كبيرًا، فلم يكن يهمّهُم سوى تجريد خناثة من أموالها التي كانت تَدّخِرُها ليوم العُسرَة. وقد تجاوزوا كلّ الحدود بإلقائها في السّجن، ثمّ ألحقوا حفيدها هناك. لم يكونوا ينتقمون منها لشخصها، بل كانوا ينتقمون أيضًا

لأنّها كانت تناصر أخوالها من جيش الوداية، الجناح المنافس لعبيد البخاري في الدولة. ثمّ إنّهم كانوا ينتقمون لمولاتهم لالة عيشة. حَزِنَت على الذي أصابها بعد عِزِّ المُلك الذي عاشته سابقًا، لكنّها صمَدَت واحتسبَت. استيقظَ في باطنها وازعُ إيماني عظيم، ومواجيدُ ربانية، فكانت تُكثِرُ من الذِّكر، وتستغرق في مُناجياتٍ طويلة. لم يكن ينفعُها في هذا البلاء الكاسِح سوى هذه الأذكار التي كانت تنزلُ على قلبها مثل البلسَمِ الشافِي. ثمّ كانت تقرأ وِردًا قرآنيًا يوميًا مع ولدها، وحزبًا من أحزاب اللّيل والنهار من دلائل الخيرات، في الصّلاة على النبي صاحب الهدايات.

فكّرَت في أمرها، ولم يكن في وُسعِ ولَدِها مولاي عبد اللّه إسعافُها، وكانت تخاف عليه، فلم تطلب منه أن يأتي لتخليصِها. وكيف له أن يفعل ذلك؟ فلو حضر إلى مكناسة لقتله عبيد البخاري انتقامًا بما فعل بهم. تركته يُدَبِّرُ أمورَه مع أخواله في بلاد المقافرة في جهة وادي نون، حيث كان مقيمًا مع ولده مولاي أحمد، ورجاله. وقَرَّ قَرارُها أن تكاتِبَ العلماء والأشراف والنُّقباء، وتُبلِّغَهُم عن المَعَرَّة التي أصابَتها من دون ذَنبٍ ارتكَبَته، أو جُرمٍ استحَقّته، وفي غير مُراعاة لِحُرمَتِها، ومن غيرِ حِرصٍ على تنفيذِ وَصِيّةِ زوجِها. كيف للسُّلطان الحالي أن يسجنَ امرأة حرّة في مثل وَجاهَتِها وسِنّها؟ وكيف له أن يسجن حفيدها الأميرَ الصغير، ولم يقترف ذنبًا يستوجب ذلك؟

كتبَت رسالة إلى أهل العلم والصّلاح ممّن يقَدِّرونَ قَدرَها، ويرعَونَ ذِمامَها، تستَصرِخُهُم وتُلهِبُ غيرتَهم ورجولتهم حينما تُنتَهَكُ الحُرمات في حقِّ رَبّةِ الدّار العلِيّة، الحاجّة خناثة، وحفيدها الشريف العفيف سيدي محمد.

استطاعت وصيفتُها الوفيّة «مِسك الجيوب» أن تتسلّلَ إلى «البنيقة» التي كانت سيّدتها مسجونة فيها، فالتقَتها بعدما نَفَذت أحَد عبيدِ الدار المكلّفين بالحراسة كيسًا من المال، فسمَح للوصيفة بزيارتها. بكت «مسك الجيوب» لما رأت سيّدتَها وسيّدَها في هذه الوضعية المذِلّة، فقالت مُغضَبَةً: لو كان سيّدي حيًا لقطع رؤوس مَن تجَرَّأ على مولاتي وسيّدي محمد. ابتسمت خناثة لوصيفتها وقالت: سنخرج من هنا بإذن اللّه. لكنّي أريدك أن تأخذي هذه الرّسالة وتُسَلّميها إلى الشّيخ العلّامة سيدي العربي بصري.

ثمّ سلّمَت خناثةُ الرسالةَ إلى مَوضِعِ ثِقَتِها «مسك الجيوب»، وطلبَت منها أن تتّصِلَ أيضًا بمجموعة من العلماء، وتخبرَهُم عن حالها حتّى يستشفعوا لها عند السّلطان مولاي علي.

تسلَّلتِ الوصيفة خارجةً من «البنيقة» الضَّيِّقة التي حُجِزَت فيها خناثةُ مع حفيدها، حيثُ الفئران والصراصيرُ وأنواعٌ من الحشرات التي تستوطنُ الأماكن المظلمة الباردة. إنَّها المخلوقات الوحيدة التي تُؤنِسُ في هذه الغربة القَسريَّة. كانت خناثة في حالةٍ من الإزراءِ والاخشِشان، لكنَّها بقيَت امرأةً حُرَّةً عَزيزةَ النَّفس. لم يكن ثَراءُ الحياة وَلِينُها لِيَنزَعا عنها عِزَّةَ نفسِها، وإهابَ كبريائِها. ولم تكن أحوالُها الحاضرةُ لتقطعَ عنها حُرِّيَّتَها.

كانت حشرةُ «حُمَيْر جَدَّة»[2] تتعقَّبُ التقاءَ الجدارِ القائم لـ «البنيقة» بأرضيَّتها، لاهيةً عما يجري، وكأنَّها اختارت أن تتعايش مع البَقِّ والصَّراصِير وسائر الهوامِّ والحشرات الزاحفة في سجن «البنيقة». لمس سيدي محمد «حُمَيْر جَدَة» فانجمَعَت كالكُرة في وَضعِ مُقاوَمَة، حَذَرًا ممَّا قد يصيبُها مِن اعتداء خارِجيّ. لكأنَّ الإنسانَ مثلُ هذه الحشرة، ينجَمِع على نفسه حتَّى يُقاوِمَ كلَّ تهديد وابتلاء. كانت لها أرجلٌ عديدة ورفيعة، في غاية الدِّقَّة، لونها رماديّ داكنٌ، وتقسِمُ ظهرَها خطوطٌ مُعترِضَة. ما أشبهَ هذه الحشرة بالإنسان في وَضعٍ كهذا. تسلَّمَت «مِسكُ الجُيُوبِ» رسالةَ خناثة ووعَت أوامرَ سيِّدتها فخرجَت نحو المدينة القديمة. تسلَّلَت مخافةَ أن يستنطِقَها العبيدُ ويقفوا على سِرِّ مَولاتِها. كانت حاذقةً رَزينةً تعرفُ أصولَ الخِدمة، والقواعدَ السُّلطانيَّة. مَشَت في المماشي الثانوية للقصر، البعيدة عن جَلَبَةِ «عَبِيدِ الدَّار» حتَّى خرجَت من باب الرُّخام. سلكَتِ الدُّروب الضَّيِّقة حتَّى وصلَت إلى ساحة لالَّة عُودَة. ثمَّ خرجَت من باب المنصور العلج نحو ساحة «أگدال»، واتَّجَهَت إلى المدينة القديمة. دخلت بين عِدَّةِ دُروب حتَّى وصلَت إلى دار الشَّيخ العلَّامة بصري، الذي كان لا يَلينُ في قول الحقّ. كان قد رافق لالة خناثة في رحلة الحجّ فاختبرَت صدقَه وتقواه. كما كانت لها دالَّة عليه، إذ كان هو ابن أخت الوزير الإسحاقي الذي كان وزيرًا على عهد زوجها ثمَّ ولدها. دَقَّتِ البابَ واستأذنت، فأدخلتها خادمة الدَّار إلى القبة التي كان يجلس فيها العالِم بصري. سلَّمت عليه، وأخرَجَت من بين ثيابها لفافةَ سيِّدَتِها وسلَّمَتها إليه. أخذ العالم اللَّفافةَ وقرأها بتمَعُّن، ثمَّ قال «لا حول ولا قوَّة إلَّا باللَّه العلي العظيم»، وصار يحوقل عدَّة مرَّات. وسأل، بعد ذلك، «مسك الجيوب» عن حالة سيِّدتها وحال الأمير سيدي محمَّد، ثمَّ قال لها: اذهبي الآن، وطَمئِني سيِّدَتَكِ، وبَلِّغِيها السَّلام.

لم تكد الوصيفةُ تخرج من بيت العالم بصري حتَّى أسرع في ارتداء ثيابه، وخرج إلى الجامع الأعظم ليلقي درسه المعتاد.

مَرَّ قرب باب الحُفاة، المسمَّى بهذا الاسم لكون دار الوضوء قريبة منه. كان المصلُّون يدخلون من ذلك الباب، ويتوضأون، ثمَّ يمشون فوق أرضيَّة

صحن المسجد خفاةً حتّى تَجِفَّ أقدامهم، قبل أن يَطَأوا خضرَ الفضلّى كيلا تتعفّن بسبب البَلَلِ. لم يدخل من ذلك الباب تنزُّهًا عن قذارةِ أقدامِ عُمّالِ الجِرَف ممّن كانوا يدخلون من هناك قادمين من محالّ عملهم.

أكمل طريقه، ومرّ قربَ محكمة القاضي، فدخل الجامع من الجهة الشرقيّة من باب «تَربيعة الذَّهَب» المتّصل بالمحكمة المذكورة. كان قرّاء القرآن جالسين جهة الجدار الشرقيّ في مجلسهم المسمّى «الأُسبوع»، لكونهم يختمون قراءة القرآن في كلّ أسبوع. كانوا يبدأونَ السُّبعَ الأوّل يوم السبت، ويختمون القرآن عند جلوس الخطيب على المنبر يوم الجمعة. ففي السُّبع الأوّل ثلاث سُوَر بعد الفاتحة، هي البقرة وآل عمران والنساء. وفي الثاني خمس سُوَر من المائدة إلى التوبة. وفي الثالث سَبْعُ سور من يونس إلى النّحل. وفي الرّابع تسع سُوَر من الإسراء إلى الفرقان. وفي الخامس إحدى عشرة سورة من الشُّعراء إلى يس. وفي السّادس ثلاث عشرة سورة من الصافات (اليقطين) إلى الحجرات. والسّابع هو المفَصّل يبتدئ من سورة قاف وينتهي بسورة الناس، وفيه خمس وستّونَ سورة. هكذا حَزَّبَه أكثرُ الصحابة، وهكذا كانوا يقرأونه، وهكذا مشى المغاربة[3] على ذلك حتّى قال أحدهم:

«فإن تَشَأ فَقِف على ما قَد وَقَف ... عليهِ خَيرُ مُرسَلٍ مع السُّلَف

وذاكَ في العُقُودِ لا النِّساءِ ... ويونُس وسورةِ الإسراءِ

والشُّعَرا وسُورةِ اليَقطينِ ... وقافِها والخَتمُ بالتِّبيينِ»

مرّ من أمامهم، وهم يقرأون فسمعَ لهم أزيزًا كأزيزِ سِربٍ من النّحل. فَتَرَت شفتاه بالقراءة معهم لما فَطِنَ إلى موضع تلاوتهم تلك اللّحظة من سورة يونس، فَمَرَّ في ذهنه الظلماتُ الثلاث التي مَرَّ بها: ظلمةُ البحر، وظلمة الحوت، وظلمة اللّيل، لكن نبيّ اللّه يونس، عليه السّلام، لم ييأس، بل عَبَدَ اللّهَ في موضع لم يَعبُدهُ فيه أحد. لم يملك الشيخ بصري إلّا أن قال{لا إلَهَ إلاّ أنتَ سُبحانك إنّي كُنتُ مِنَ الظّالِمين} رجاءَ كَشْفِ الغَمّ الذي حَلَّ بالبلاد. ثمّ مَرَّ قرب المحراب، وتقدّمَ ناحية الجهة الغربيّة حيث المكتبةُ العلميّة التي حوَت نفائس المخطوطات.

كانت حلقةُ الطلبة حول عَمُودِ الشّيخ. تقدّمَ نحوه طالبٌ وقَبّل يده، فأسَرَّ إليه الشّيخ بأمر، فذهبَ الطالبُ من ساعته. وبعد قليل، التحقَ سائر الشُّيوخ والأساتيذ الذين كانوا يدرسون مختلف العلوم في الجامع إلى حلقة العلّامة بصري، مع طلبتهم. كَبُرَتِ الحلقة وغَصّت بالطلبة والمشايخ والأشراف وكثير من أهل الفضل. كان الجميع يرغب في أن يعرف ما

يجري، ولماذا أوعز الشّيخ بصري إلى تلميذه بدعوة جميع شيوخ الجامع وطَلَبته لحضور درسه.

بدأ الشّيخ درسه بالبسملة، ثمَّ الحمدلة، ثمَّ الصّلاة على النّبيّ.

بعد ذلك، فتح «صحيح البخاري»، وتلا قول اللّه تعالى}والذين تَبَوَّؤُوا الدّارَ والإيمانَ مِن قَبلِهِم{. «حدّثنا موسى بن إسماعيل قال، حدّثنا مهدي قال، حدّثنا غيلان بن جَرير قال: قلت لأنس: أرأيتم اسم الأنصار كنتم تُسَمَّونَ به أم سمّاكم اللّه؟ قال بل سمّانا اللّه عزّ وجَلّ. كنّا ندخل على أنس فيحَدّثُ بمناقب الأنصار ومشاهدهم، ويُقبِلُ عليّ أو على رَجلٍ من الأزدِ فيقول، فعل قومُك يومَ كذا وكذا وكذا وكذا».

«حدّثنا عبيد بن إسماعيل قال، حدّثنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت: كان يوم بُعاث يومًا قَدَّمَهُ اللّهُ لرسولِه فَقَدِمَ رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه، وقد افترق مَلأُهُم وقُتِلَت سَرَواتُهُم وجُرحوا، فقدَّمَهُ اللّه لرسولِه في دخولهم في الإسلام».

«حدّثنا أبو الوليد قال، حدّثنا شعبة عن أبي التّيّاح قال، سمعت أنَسًا يقول: قالت الأنصار يوم فتح مكّة: وأعطى قريشًا، واللّهِ إنَّ هذا لهو العجبُ إنَّ سيوفَنا تقطرُ من دماء قريش، وغنائمُنا تُرَدُّ عليهم، فبلغ ذلك النبيّ صلّى اللّه عليه، فدعا الأنصارَ، قال، فقال: ما الذي بلغني عنكم ؟ وكانوا لا يَكذِبُون، فقالوا هو الذي بَلَغَك. قال: أوَلا تَرضَونَ أن يرجعَ النّاسُ بالغَنائم إلى بيوتهم، وتَرجعونَ برسولِ اللّه إلى بيوتكم؟ لو سَلَكَتِ الأنصارُ واديًا أو شِعبًا لسَلَكتُ وادي الأنصار وشِعبَهُم».

علّقَ الشّيخُ على الأحاديث المذكورة في مناقب الأنصار، وحَمَّسَ السّامعين لنُصرةِ آل بيت رسول اللّه من الأشراف، وتطرّق إلى سَجنِ الشريف الأمثَلِ الأمير سيّدي محمّد مَعَ أُمِّهِ الشّريفة الحُرّة رَبّة الدّار العليّة، وطلب من جميع أهلِ البلد نُصرَتَهُما كما نَصَرَ الأنصارُ رسولَ اللّه .

ثمَّ قرأ حديثًا آخر عن مناقب فاطمة، رضي اللّه عنها: «قال النّبيّ صلّى اللّه عليه: فاطمةُ سيدةُ نساءِ أهلِ الجَنّة. حدّثنا أبو الوليد قال، حدّثنا ابن عُيينة عن عمرو بن دينار عن ابن أبي مليكة عن المِسوَرِ بنِ مَخرَمَة أنَّ رسولَ اللّه صلّى اللّه عليه قال: فاطمةُ بضعَةٌ منّي، فمن أغضَبَها أغضَبَنِي».

ألا فلتغضبوا للّه، ولرسول اللّه وقرابته، كيف يُسجَن الأمير سيدي محمّد وهو فتًى صغير، ولم يرتكب شيئًا يستوجب ذلك؟ وكيف تُسجَنُ السّيّدة الحرّة، الحاجة التقيّة العالِمة، الشريفة لالة خناثة من غير ذنب

ارتكبته؟ ألا فلتنصروا بِضَعةَ رسول اللّه. تذكّروا أحبابي في اللّه، الأنصارَ الذين ناصروا رسول اللّه. إنّ هذا المجلس الذي يُدرَسُ فيه حديثُ المصطفى من صحيح البخاري هو من أوقاف هذه السّيّدة الفاضلة، وقد كانت السّببَ في جَرَيانِ هذه السُّنّةِ الحَميدة بعد أن طلبَت ذلك من زوجها فَخرِ السّلاطين مولانا أمير المؤمنين أبي النّصر إسماعيل. وإنّي سأرفع هذا الأمر إلى السُّلطان، وأدعو نُقَباءَ الأشراف وجِلّةَ العلماء إلى أن نتعاون جميعًا لرفعِ هذه المَظلَمة والاستشفاعِ لدى السُّلطان في الأمير سيّدي محمّد وجَدَّتِه الشريفة رَبّةِ الدار العلّيّة.

***

كانت حادثة سجن خناثة وحفيدها من الهنّات العظيمة التي ارتُكِبَت في عهد السُّلطان أبي الحسن عليّ. وقد كان عبيد البخاري، ولاسيّما القايد سالم الدكالي، وراء امتحانها وإهانتها.

ضَجَّت مكناسة بما حدث لربّة الدار العَلّيّة وحفيدِها، وعَمّ الاستنكار، وانضاف إلى كلّ أنواع المضايقات التي كان يعانيها سكّانُ المدينة جَرّاءَ ظلمِ العبيد واستبدادِهم.

كما قام أهل فاس بالثورة على عامل السُّلطان. وبعد أخذٍ وَرَدٍّ انضبطَت الأحوال في فاس، فزارها السُّلطان، وصار الناس ينادون عليه بالنّصر. وعند مرور الموكب السُّلطانيّ في المدينة، رفع الوليّ الصالح سيدي بُودَفنا صوتَه مُربِكًا جَوقَةَ المُهَلِّلين: اللّه ينصر خناثة بنت بكّار. وصار يكرّرها. ثمّ قال: اللّه ينصر عبد اللّه بن إسماعيل، وصار يكرّرها. ثمّ قال: اللّه ينصر سيدي محمّد بن عبد اللّه، وصار يُرَدّدُها.

كان السُّلطان يَسمَعُ كلامَ هذا الوليّ المجذوب، وأهلُ فاس يسمعون، فلم يَجرُؤ أحدٌ على إسكاته أو مُقاطَعَتِه. كان ذلك إيذانًا بأنّ ترتيبًا عُلويًّا قد أمضى حُكمًا نافِذًا بِتَوَلّي سيدي محمّد بن عبد اللّه السّلطَنَة. كان الناس يعتقدون في صدق هؤلاء المجاذيب الذين ينطقون بهذه الأخبار بطريقة تجعلُ الغافلَ يَظُنُّهُم من المجانين، إلّا أنّ كلامَهم عادة ما يتحقّقُ لاحِقًا، وهو مُجَرَّبٌ عند عامّة الناس، لهذا يتحاشَونَ إيذاءَهم، بل إنّ الكُبَراء يتفادَونَهُم حتّى لا يفتضِحوا أمامَ الخلق.

لم يتعرّض أحدٌ لذلك المجذوب، إلّا أنّ كُلَّ واحدٍ أدركَ في قرارة نفسِه أنّ الإرادةَ العُلوِية قد أرسَلَت هذا الإخبار حتّى تتهيّأ الأمورُ لشيء آخر.

لم تمض مدّة قصيرة حتّى تغيّرت الأحوال بالفعل، فاضطرّ السُّلطان إلى إطلاقِ الأمير سيدي محمّد من سجنه. أمّا خناثة، فإنّها بقيت صابرة

محتسبة. سَعِدَت بإطلاق سَراحِ حفيدها، وأشغَلَت نفسَها ووقتَها بالذكر داخل سجنِها. كان ذلك هو ما يبعث فيها الأمل، ويُبقي جذوةَ الإيمان غَضَّة طريَّة في قلبها. تستغرقها الأنفاس، فيتفتَّقُ وعيُها عن وعي جديد أعلى منه. ترتقي في مدارج السُلوك، وتَعرُج في أحوال الرُوح مع كلّ نفَس أو تهليلة. لم تَعُد تَشعُرُ بوجود السّجن الذي يُقَوِّضُ حركتَها، بل انقلبَتِ الأمور بحيث رأتِ الناس من حولها في سجن أكبر ممَّا هي فيه، هو سجن نفوسهم وأهوائهم التي تخنُقُهم، لكنَّهم لم يكونوا على وعيٍ بِطاقَةِ النور وأحوالِ النَّفس كي يَكسِروا جدرانَ سُجون النَّفس. قد يبدو الأمر مستبعدًا لكثيرين من الناس ممَّن لا يدركون سِرَّ الأنفاس، لكنَّ خناثة كانت مقتنعة بأنَّ أعظمَ ما يربطُ الإنسان بربِّه هو هذا النَّفَس الرحمانيُّ الذي يَزُجُّ به في حضرات القُدس ويَعرُج به في مَدارج الرُّوح. كم يشعر صاحب الأنفاس الرحمانيَّة بقيمة الحرِّيَّة حينما يملأ قلبَه وسِرَّه هذا الوجودُ المُكتَنِف؟ وكم يَضيقُ سَجينُ الأقفاص الدُّنيويَّة بعبوديَّة خانِقَةٍ للأشياء حينما تملأ مَدارِكَه؟ شتَّانَ بين من ارتبطَ بالمُوجِد، وبين من ارتبط بالموجودات. شتَّان بين مَن يَلهَثُ بحثًا عن الحرِّيَّة وراء سرابِ التَّملُّك والأهواء التي تحوَّلت إلى حقوق، وبين من انغمس في العبوديَّة حتَّى صار حرًّا عن كلّ ما سوى الوجود الحَقّ. شتَّان بين من لم تُلهِهِ الأنوار عن المُنَوِّر، وبين من احترقَ من أوَّل لمحة. شتان بين مَن لم تَشغَلهُ الصُّوَرُ عن المُصَوِّر، وبين من استهلكته الأشكال فيها.

كانت خناثة قد أدركت هذه الحقيقة في سجنها الذي بدا لها أرحمَ من سجن النفوس المسكونة بالأهواء. تفكَّرَت في حقيقة الحياة، وأعادت شريط مسيرتها منذ أن كانت صبية تعدو على رمال البِيد. في بادية الصحراء كان أهلها يريدون تسمينها لتأهيلها للزواج، بينما أهلها اليوم يسجنونها ويجوِّعونها بعد فقدانها الزوج. هل للتَّسمين والتجويع علاقة بالزوج؟ وهل للحرِّيَّة والسَّجن علاقة بالرجال؟ بداوة وتسمين، وحاضرة وتجويع. قصَّة عجيبة بين المدينة والبادية عنوانُها الأبرزُ القلّةُ والكثرةُ. يبقى أمر آخر، وهو أن يختار المرء لنفسه القلّة أو الكثرة، لا أن يُجبَرَ على واحدة منهما. في كلتا الحالتين، كان الإجبار من خارج، وفي سجنها، واختارت خناثة أن تعيش على القلّة، كما اختارت سابقًا أن ترفضَ التَّسمين والكثرة. في زحمة الأشياء وجلبة الخواطر يصفو للإنسان وعيُ عالٍ بمن هو؟ وإلى أين يقصد؟ ومن أين أتى؟ وعَلامَ أتى؟ في سجن مكناسة، يصبحُ المرء من الناس، ويُطرَدُ عنه الوسواس الخَنّاس. في سجن مكناسة تسكن النَّفس تحت أسوار المقادير. في ظلمة الأرض يلمع نور الوعي

فيحلق في سماء التجليّات. في **مكناسة** تُصَحَّحُ **مناسك** الرُّوح، وتُطَهَّرُ النفوس **بمكانس** المجاهدات. في مكناسة يلجَ المرء في كِنٍّ كُن حتَّى يصبح من النَّاس.

بقدر ما ازدادت حرِّيَّة خناثة عمًّا يستعبدها من الناس والأشياء، بقدر ما ضاقت الحياة على الناس، فارتفعت الأسعار، وانحبست الأمطار، وهلكت جموع من الآدميّين، وهجرت طوائف عديدة الأوطانَ هربًا من الضرائب والمكوس والاستبداد.

حينما يختلّ النظام، وتَعُمُّ الفوضى، يستأسِدُ البُغاة، ويتجرَّأُ أهل الاستبداد على الضعفاء، فينزل غضب اللّـه حتَّى يُصَفِّي النفوس ويمحِص القلوب، ويعيد التوازن المفقود.

***

لما لم يجد السُّلطان أبو الحسن علي ما ينفقه على عبيد البخاري، اضطرَّ إلى الاستعداد لغزو أهل جبل فازاز حتَّى يغنمَ ما يمكن أن يعطيه لجيشه، لكنَّ الكَرَّةَ وقعَت مرَّةً أخرى على العبيد فانهزموا شَرَّ هزيمة، وجَرَّدَهُم أهلُ تلك البلاد حتَّى من ثيابهم. فلما رجعوا مع السُّلطان إلى مكناسة، طالب العبيد بالكسوة والرّاتب والسِّلاح، فلم يكن عنده ما يسلِّمه لهم فقاموا عليه مرَّة أخرى. ولما سمعوا بعزم أخيه المولى عبد اللّـه استرجاع ملكه، والانتقام لأمّه وولده، سارع رؤوس العبيد إلى إطلاق لالة خناثة وإكرامها، خوفًا ممَّا قد يفعله بهم ولدها مولاي عبد اللّـه.

رجعت إلى دارها، فاستقبلها حفيدها وفرح بها وفرحت به. وجاءت «مسك الجيوب» تبكي فرحًا بنجاة سيِّدتها. تغيَّرَت معاملة عبيد الدار لها، فقد أصبحوا يعاملونها بلطف ويتقرَّبون إليها ويخدمونها كما كانوا في السَّابق. سمعت بأخبار ابنها مولاي عبد اللّـه الذي تَقَوَّى جيشُه فوصل إلى قصبة تادلة التي استقبله فيها العبيد المرابطون خير استقبال، واستنهضوا همَّته لاسترجاع ملكه، ووعدوه بالنصرة، باستثناء سالم الدكالي الذي كان سببَ محنته ومحنة والدته وابنه، فإنَّه عارض عودة مولاي عبد اللّـه إلى الملك خوفًا من انتقامه. ولما أصبح عدد المؤيِّدين من العبيد أكثر من المعارضين، اضطرَّ سالم الدكالي إلى الفرار إلى مدينة زرهون للاحتماء فيها. فقد كانت حرمًا يَأمَنُ كلُّ مَن دخله، ففيها ضريح ماهِدِ أوَّلِ دَولَةِ أشراف في المغرب، وهي الدولة الإدريسيَّة التي أسَّسَها إدريس الأوَّل بن عبد اللّـه الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن فاطمة الزهراء وعلي بن أبي طالب، رضي اللّـه عنهم.

لقد طوَّر أهل المغرب مناطق آمنة يلجأ إليها المتظلمون، وتتعطَّل فيها

الأحكام لمصلحة مرتبة العفو، أو على الأصح تؤجّل ريثما يتم إيجاد حلّ عبر العفو أو ما شاكل ذلك. هي بالأساس مناطق رحمة وحُرمة، نموذجها هو مكّة الحرام والبيت الحرام الذي لا يحل فيها أي فعل من الأفعال المعتادة فيما سواه. كانت هذه المناطق تقام حول أضرحة بعض الأولياء، ممّن شهد لهم الخاص والعامّ بالصّلاح والشرف والتقوى، فيلجأ إليها المتظلّمون، ويمضون جل أوقاتهم في العبادة حتّى تتمحّص نفوسهم وتتطهّر. ولا يحق إخراجهم منها إلّا إن خرجوا عن طواعية. هي مظاهر زحفة في مناطق حُرمة.

أمّا السّلطان أبو الحسن علي، فقد فرّ إلى فاس بعد أن خذله العبيد، لكنّ جيش الوداية المرابط في فاس صدّه عنها، فانتقلَ إلى تازة واستقرّ فيها مُعرِضًا عن المُلك كُلّيةً.

اتّفقَ جيشُ البخاري وجيشُ الوداية على بيعة مولاي عبد اللّه سلطانًا للمرّة الثانية. إلّا أنّ القائد سالم الدكالي حاول إفساد الأمر، ولم يراعِ حرمة المكان الموجود فيه، فصار يُناوِر، وكتب إلى أهل فاس يقول لهم إنّ الديوان السّلطاني قد قرّر خلع مولاي عبد اللّه، ومبايعة أخيه المولى محمّد بن عربية. كانت مناورة يريد بها أن يضرب الواحد بالثاني، لكنّ الناس فَطنوا إلى هذه اللّعبة، وخصوصًا أنّ أهل الديوان لم يقولوا بخلع مولاي عبد اللّه وبيعة المولى محمد بن عربيّة، فخرجوا إلى زرهون واستدرجوه بالحيلة حتّى خرج إليهم فقبضوا عليه، وبعثوا به إلى السّلطان الذي كان مقيمًا وقتها بتادلة، فقتله مع جماعة من أصحابه، وانتقم منه على جرائمه السّابقة.

وصل مولاي عبد اللّه إلى فاس فخرج إليه أهلها، كما خرج إليه أهل مكناسة، فعاتبهم على غدرهم به، وعدم نصرته، وقتل عددًا من رؤوس الفتنة فيهم، فتغيّرت القلوب عليه مرّة أخرى، وعمّت الفوضى في فاس وأحوازها. ولم يَأمَن الناس على أموالهم وبهائمهم حيث صادرها جيش الوداية. فاجتمع أهل فاس وقرّروا خلع مولاي عبد اللّه مرّة أخرى ومبايعة أخيه المولى محمد بن عربيّة.

وهكذا دخلت البلاد في مسلسل من الاضطرابات والفتن، ولم تعد للبيعة حُرمةٌ، بحيث بويع مولاي عبد اللّه عدّة مرّات. كما بويع أخوه مولاي محمد بن عربيّة الذي شهد زمنه عدة اختلالات حتّى تسلّط العبيد في وقته على أهل الزوايا وسلَبوهَم كلّ ما لديهم، كما تسلّطوا على أهل المدن وأخذوا ما عندهم، وأغرَموا البوادي، فكثرت المجاعات، وتفشّت السّرقات والنّهب بين عموم الناس. لقد كانت أيّامَ نحسٍ ووبال على المسلمين. ثمّ

بايع العبيد أخاه المستضيء، فحاول أن يأخذ من بطش العبيد لكنّه لم يبطش إلّا بالضُعفاء حتّى كثُرَ الغسفُ والاضطرابات. ولم يكن بيده ما يُسكِتُ به العبيد، فاضطُرَّ إلى إفراغ ما في المخازن التي تركها والده المولى إسماعيل، فأخذوا ما فيها من المعادن. كما اقتلعوا شراجِبَ القُبّة الشطرنجيّة، وكانت مِن نُحاسٍ مُذهَّب. ثمّ أنزلوا المدافع النُحاسيّة التي كانت بأبراج مكناس فَضُرِبَت فلوسًا، فما أغنت عن شيء. ثمّ أغرِمَ الناسُ غرامات قاسية وصُودِرَت أموالُ الأشراف وعامّةِ الناس. وعمومًا، فقد أسرفَ المستضيءُ في القتل والاستبداد. فثار عليه العبيد كما ثاروا على مَن قبلَهُ إلى أن فَرَّ عند أصهاره من قبائل دكالة وبني حسن من عَرَبِ الغَرب.

أمّا خناثة، فإنّها أخرَجَت ما كان في يدها من أموال، فأعطتها لحفيدها. كما مكّنت ولدَها من باقي الأموال حتّى يستعيدَ مُلكَهُ، ويضبطَ أحوال البلاد. وبالفعل، فقد عاد المولى عبد اللّه مرّة أخرى إلى الملك، وانتقم من قضاة مكناس الذين كانوا قد وافقوا على تزويج نسائه إلى أخيه مِن قبلِه، فنزعَ عمائمهم وأذلّهم شرّ مَذلّة، وسحبهم إلى السجون، وأعطى دُورهم للعبيد.

أمّا ابنه الأمير سيّدي محمّد، فقد شَبّ وأصبح رجلًا عاقلًا رزينًا. وكلّ المؤشرات تدلّ على أنّه يَصلُحُ لحكم البلاد، فقد أصبح ملازمًا لوالده يُعينُه على تدبير أمور الدولة، ويجد عند جدّته لالة خناثة السّنَدَ الروحيّ والرأيَ الخصيف فيما يَعِنُّ من أمور، ويُستَجَدُّ من أحداث. وما لبث والدُه أن عيّنه خليفةً عنه في مراكش ومنطقة الحوز، كما عيّنَ أخاه مولاي أحمد خليفة عنه على رباط الفتح. استقرّ سيدي محمّد أوّلًا في آسفي حتّى راش جناحُه، وزادت ثقةُ الناسِ به، وكثُرَ قَضّهُ وقضِيضُه، فعاد إلى مراكش حيث نَظّم أحوالها.

ولم يلبث العبيدُ أن بايعوا المولى زين العابدين بن إسماعيل الذي عرف عهده هدوءًا نسبيًا، حيث لم يتعرّض بالقتل لأحد، ولا بنهب أموال الناس، إلّا أنّه لم يجد ما يعطيه للعبيد فحنقوا عليه هو الاخر حتّى أعادوا مولاي عبد اللّه مرّة أخرى، وجدّدوا بيعته.

نذرَتِ السّيّدة الحُرّة أن تخرج من مكناس، فقصدت فاس بعد أن تعبت من تشغيب العبيد على ولدها مولاي عبد اللّه، وحاولوا الإيقاع بينه وبين ولده سيّدي محمّد، حيث نادوا ببيعته إلّا أنّ الولد كان حكيمًا عاقلًا فرفض بيعتهم، وأعلن طاعته لوالده السلطان، ووبّخهم على فعلهم. كان جليًا أنّ هذا الشّاب الشعيد سيعيد إلى الدولة استقرارَها وحُرمَتها بعد سنوات

الفوضى وعدم الاستقرار التي تَلَت مَوتَ فخرِ السَّلاطين مولاي إسماعيل، لكن كان عليه أن ينتظر ساعته حتَّى يمشي بسفينة البلاد في ريح رُخاء.

---

1 كذا الحال في البنوك المركزيَّة في زماننا.

2 حشرة رماديَّة اللَّون، لها أرجل عديدة تتكوَّر مثل الكرة كلَّما لامسها لامس.

3 أصدرت المملكة المغربيَّة سنة ١٤١٧ هـ المصحف الحَسَني المسبَّع، بحسب الترتيب المذكور، بألوان وخطوط مختلفة لكلّ سُبُع، تسهيلًا لقراءته وفق هذا التقسيم المسبَّع.

«وإن كان الحقّ الذي لا شكّ فيه أنّ كلّ من قام منهم بعد بيعة السُلطان مولانا عبد اللّه إنّما هو ثائر لا إمامة له، وإنّما يكون ذكرُه مَسوقًا مِن جُملَةِ أخبار دولة مولانا عبد اللّه، فهو السُلطان المعتبر بعد وفاة والده مولانا إسماعيل»

أكنسوس[4] : الجيش العرمرم الخماسيّ.

ج. 1، ص. 210

انصرفت خناثة عن أمور السياسة، بعد خروجها من مكناسة واستقرارها في فاس الجديد، وخَلَت بنفسها للذِّكر والفِكر، تُعَمّرُ أوقاتَها بالأنفاس وترتجي أن تَعُمَّها الرَّحمات. لقد قطعَت رحلةً طويلة من مضارب أهلها في الصَّحراء. وجدَت في فاس ضالّتَها. في هذه المدينة سِرٌّ خفي، وشيءٌ من عالم الرُّوح، لهذا اختارها المولى إدريس لتأسيس دولة الأشراف الأدارسة، فكانت دارَ علم وولاية وصلاح يَأرِزُ إليها الإيمان والخير من كلّ الجهات. تقلَّبَ فيها أكابر العلماء والأولياء، واتَّخَذَها الأشرافُ دارًا وقرارًا.

جاءت خناثة العربيَّة من الصَّحراء إلى مدينة الخُنثِ بامتياز. هنا تتبَدَّى الحضارة، وتجري بماءٍ صاف. نزلَت خناثةُ في فاس تَطرُقُ بفأسِ مجاهداتها مَعدِنَ النَّفس. وفي فاسَ بَنَت رُكنَ **حَجَرِها**، و**حجر** كعبتِها تَطوفُ عليه كلَّ يومٍ طوافَ الأنفاس. في الصَّحراء خِيامٌ بأعمِدَةٍ وأوتِقَة، وفي الحاضرة دُورٌ بلَبِن وأحجار. بين الوَبَر والحَجَر نسبةٌ معلومة، هي نسبةُ الحيوان مع الجَماد. فأين تَعرُجُ الرُّوح؟ على أسنِمَةِ الجِمال أم على أحجار الكمال؟ سؤال عن وسيلة العروج أم غايته؟ كُلٌّ له جواب، وكلٌّ له طريق، لكنَّ الروحَ لا تشتبك مع خيوط المَغازل، وإنّما تعرُج في جِنان المَنازل. كَم غَزَلَ العارفون من غَزلٍ رقيق، وحين لم يجدوا نَسّاجًا لِغَزلِهم كَسَروا المَغازِل، فلو أنَّ الرُّوحَ تَعَلَّقَت بالمغازِل لانكَسَرَت. لكن، ليس في طبع الأرواح أن تَنكَسِر، عكسَ النُّفوس والقلوب والأبدان، وإنّما تَنسَلُّ إلى عالمها العُلويّ اللَّطيف بعد أن تتلاشى الهياكلُ المدبَّرَة لها. حينما تَضمَحِلُّ الأجسام، ترتحِلُ الأرواح. لو انكسرَت الأرواح لاختلَّ الكون، ولَدَخَلَهُ النَّقصُ والفساد حتَّى يضمَحِلّ. لم يبقَ أمام خناثة سوى أن تجلسَ على السُطوح أو تُقيمَ بجوف المنازل حتَّى تتحوَّلَ إلى خيط رفيع من النُّورِ، أو حَجَرٍ من أحجار تلك البيوت المقدَّسة. لماذا يرتبط المقدَّس دومًا بالأحجار؟ ولماذا تكون المراكب الروحيَّة دَومًا من نور؟ في شُعاع الغَزل وصَمتِ الأحجار

أنوارٌ وأسرار.

خَلَت خناثة بنفسها، في فاس، وزارت الصالحين ممّن كانت تُجِلُّهم وتُؤْثِرُهم. التقَت ذلك الولي المجذوب «بُودَفنا»، فقال لها، بلسان الحال لا بلسان المقال: اللّه ينصر خناثة بنت بكّار، أمّ السّلاطين.

نظرت إليه متعجّبة، فأضاف: اللّه ينصر عبد اللّه بن إسماعيل.

نظرت إليه مرّة أخرى مستفهمة عن سرّ دعائه، فأضاف: اللّه ينصر سيّدي محمّد بن عبد اللّه.

ابتسمت خناثة، وأدركت أنّ المجذوبَ قد طمأنها على سلسلة الإسناد في المُلك، ابتداءً من زوجها إلى ولدها فحفيدها. إن كانت تعلَمُ ذلك عن زوجها وولدها، فها قد جاءتِ البشرى على لسان هذا الوَلِيّ بشأن حفيدِها. ودَعَتهُ ثمّ انصَرَفَت، وخجلت أن تمُدّ له صَدَقَةً بيدها. في مثل هذه المواقِف تبدو الصّدَقات مثل الرشى. ماذا يَفعَلُ مجذوبٌ بهذه الأوساخ التي في أيدي الناس؟

تفكّرَت في تسميَته لها «أم السّلاطين»، فابتسمت. لقد بشّرها بأنّها ستكون أمّ سلاطين هذه الدولة الشريفة. فمِن غَرسِها سيَحكُمُ هؤلاء الأشراف. تزوّجها فَخرُ السّلاطين مولاي إسماعيل، وأولَدها مولاي عبد اللّه الذي أصبح سلطانًا، ثمّ رَزِقَت بحفيدها سيّدي محمّد، بهجةِ نفسِها وسعادةِ روحها، وفيه استعدادٌ فطريٌّ لأن يكون سلطانًا عظيمًا يَصلُحُ به أمرُ هذه الأمة. ولعل اللّـهَ يُكافئها، فَيَخرجُ من هذا الغصن الشريف عِدّةُ سلاطين يحمِلونَ هذه الأمانة إلى بَرّ الأمان. امتزَجَ دَمُ الشُّرفاء العلويّين بأهل الصحراء امتِزاجًا لا يَسبُرُهُ إلّا مَن وَقَفَ على هذه الحقيقة الأولى: **خناثة والسّلطان**، حكاية عن الأنوثة والذكورة. الشّرفُ ذَكَر، والصّحراء أنثى. ومن زواج الشّرف بالصّحراء كانت هُويّةُ هذه الدولة الشّريفة. فَمَن ذا الذي لا يَرَى هذه الحقيقة النّاصِعَة؟ مِن قَلبِ الصّحراء عُمقُ أنثوِي. ومن نَسمَةِ الشّرف، بَسَقَت دَوحَةُ هذه الدولة.

كانت خناثة تتأمّلُ في هذه الحقيقة. ففي حِجرِها استَحزَتَ مولاي إسماعيل طَلعَ نخلَةِ جَنوبِ الصّحراء حتّى سَمَقَت بِجَريدها في كلّ هذه البلاد، ونَسفت بِثِمارها في كُلّ الجهات. في فِراشِ الشّرَفِ وحِجرِ الصّحراء تُولَدُ دُوَلٌ ضاربةٌ في عُمقِ الحضارة والتاريخ. عَجَبًا لِقَومٍ يَستَهِينُونَ بالبِغال الذي يكون بين الحِجرِ والطّائِفِ بِهِ، وكأنّما بُنِيَتِ الحضاراتُ والدُّوَلُ مِن دون تَعالُقِ أنفاس الرجال والنساء. ألَم تُنشأ دَولَةُ الأدارسة بزواج المولى إدريس الأوّل، الهارب مِن بَطشِ دول المشرق، بِكَنزَةَ الأوَرُوبِيّة في المغرب؟ وقبلهما، ألم يتزوّج عليّ بفاطمة الزهراء؟

ومن تلك الدوحة السَّامِقَة نَشَأت دُوَلٌ عديدة وما زالَت. إذا بُذِرَتِ البُذُورُ في أرضٍ صالحة وَرَوَتها مِياهٌ طاهِرَة ولَفَّحَها هواءٌ عَلِيل، نَبَتَت عنها نباتاتٌ سامِقَة، وأثمَرَت ثِمارًا طَيِّبَة. تلك هي رحلة الدول من فراش المصاهرة إلى عُروش الممالك.

البِعال يكون أيضًا بين الحواضر فيما بينها، كما يكون بين البوادي والحواضر. ويكون بين الجنس نفسه (امرأة، ورجل)، ويكون بين جنسين مختلفين (إنسي، وحوراء عِين). فالحوراء من جنسٍ هو على صورة الآدميِّين، لكنَّها ليست من الأناسِي. وما ينتج من التوالد مع الإنسيَّة أو الحوراء يوم القيامة، مخلوقٌ ثالثٌ هو روحٌ طبيعي مجرَّد.

في حِجرِ فاس **سابقةَ وشَيبَ ومُبَشَّراتَ وخُلَّة ومِيزان**. في هذه الخمسة سرّ فاتحة «**الٓر**»، فانظر في طِرسِ البداية نَظمًا بديعًا يُوقِفك على مفاتيح هاتِيك الفواتِح. ماذا يجمع بين هذه الأمور؟ **السَّابقة** هي الحُسنى. **والشَّيب** أثرُ بياضِ الخِدمةِ بَعدَ الأمرِ بالاستقامة. **والمبشَّرات** تمكينٌ بعدَ تلوين. **والخُلَّة** لِسَدِّ الخَلَل مع الخليل حتَّى تتخلَّلَ كُلَّ أجزاء العارف، المعرفَةُ بخليله، فلا يبقى فيه خَلَّةٌ للجهل به. **والميزان** هو أن تعلمَ حدودَ الحَجرِ على كلِّ كَونٍ بما شُرِعَ، وحُكمَ القدرةِ المطلقة عليه من الفعَّال لما يريد.

من أسرار هذه الفاتحة عِلمُ كلِّ المثلَّثات في الوجود مِن سابِقَةٍ وواسِطَة ولاحِقَة، أو سِباق وسِياق ولحاق. وبعبارة أقرب، معرفة النتيجة من المقدِّمتين، أو الولد بين الوالدين. من زواج الألف واللَّام نَتَجَتِ الراء.

كانت خناثة تزور بعض الصالحين في فاس، تستمدّ من بركاتهم وأنوارهم، وتسألهم عن قواطع الطَّريق، ومحطَّات الأنس والوصال. كان القوم على علم بمقامات السَّفر، وعوائقه، فتجد في تلك الأحاديث أجوبةً عمَّا صادفها من العقبات في مجاهداتها. كانت الرَّحمة تملأ قلبها، وتتعجَّب مِن كَونِ بَعضِ النَّاسِ يُحَجِّرُونَ رحمةَ اللَّـه، فَيَقصُرُونَها على بعض الخَلق من دون غيرهم، مع أنَّه قال }وَرَحمَتِي وَسِعَت كُلَّ شَيءٍ{. لا يمكنُ التَّحجِيرُ على الحَقِّ في عُموم رحمته وَوُسعِها، فهو يبسطها على الطائع والعاصي، والحُكمُ له. وكأنِّي بِمَن يُحَجِّرُ على الحقِّ عمومَ رحمته أن يُجازِيهِ بِسَلبِ هذه الرَّحمة عنه، لولا أنَّ الحقَّ أخبرنا بأنَّ رحمَتَهُ تَسبِقُ غَضَبَه.

أخذت خناثة تقرأ الفاتحة فتواردت عليها مواهبُ الفضل، وأدركت أنَّ هذه السُّورة هي رحمةٌ كلُّها، وهي حاكمة على كلِّ آية في الكتاب لأنَّها

بمثابة الأمّ، وقد سبقَت رحمَتُه غضَبَهُ في الفاتحة أوَّلًا، لما ابتدأ فيها برحمة الامتنان العامَّة من اسمه الرحمن في الدُّنيا والآخرة، ورحمة الوجوب الخاصَّة من اسمه الرحيم في الآخرة فقط. ثمَّ كَرَّرَ الاسمين في وسط السُّورة دلالة على استغراق الرحمة.

صارت خناثة تتفكَّر في كُلِّ أنواع الحَجر التي يظهَرُ بها الإنسان، فالحَسَدُ صورةٌ مِن صُوَرِ الحَجر حيث يَقصُرُ المتَّصِفُ به الخيرَ على نفسه، ويرغَبُ في منعِ وُصوله إلى غيره. وبقدر ما كانت خناثة ترتقي في معارف أسرار هذه الفاتحة، كانت تزداد معرفةً بنفسها. فمن سورة الناس صعودًا إلى سورة اللَّيل، **ثلاثةَ وعشرونَ منزلًا** لها نِسبةٌ مع منزل سورة الحِجر وفاتحتها }الٓرٰ{. ففي المنزل الأوَّل علم أركان الولاية الكبرى، وعموم الرحمة الشاملة. وفي المنزل الثاني ينفلق ما بُذِرَ في أرض النفوس من البذور عَمًّا اختُزِنَ فيها بالقوَّة. وفي المنزل الثالث علم حقيقة الهويَّة. وفي المنزل الرابع تعلَّمَت خناثة ما تستغني به عمَّا لا تستغني به. وفي المنزل الخامس أدركَت حقيقةَ الرُّجوع إلى الحقِّ وتأهَّبَت لذلك. وفي المنزل السَّادس صحَّحَتِ القَصدَ إلى ربِّها من جهاتها السِّتِّ، وجعلَت معبودها في قِبلَتِها أينما توجَّهَت لأنَّ الحقَّ في قِبلَةِ المُصَلِّي. وفي المنزل السَّابع أدركَت لماذا لا ينبغي للمصلِّي أن يرفع عينيه إلى السَّماء في أثناء الصَّلاة لأنَّ اللَّه في قِبلَتِه، فإن رفع عينيه لم يرَ سوى الأفق فيحصل له التَّشويش، بينما قُربُهُ مِن رَبِّهِ في مَوضِع سجوده، أي في النَّظر إلى عبوديَّته التي هي حقيقَتُهُ الوجوديَّة. إنَّ كلَّ تَطَلُّعٍ إلى السَّماء في أثناء الصَّلاة تَطلُّعٌ إلى الربوبيَّة، فَيُنصَحُ بعدم مُفارقَةِ أصلِهِ وعبوديَّته بالنَّظر إلى موضع سجوده. وفي المنزل الثامن عَلِمَت كيف احتال الشيطان أن يَتَسَوَّرَ على النَّهي في الاقتراب من الشجرة لعلمه بأنَّ آدمَ ممنوعٌ من الاقتراب منها، فلم يوسوس له في القُربِ منها، بل وَسوَسَ له في ثمرتها، وهو غير محجور عليه في الاقتراب من الثمر. وفي المنزل التَّاسع عَلِمَت حقيقةَ التِفافِ ساقِ الدُّنيا بِساقِ الآخرة حتَّى تَرِدا المَساق. كما عَلِمَت، من هذا المنزل المختَصُّ بقبيلة الإمامة العُظمَى، بأنَّ السُّلطانَ هو مَن يَعزِلُ نَفسَه حينما يسعى في أغراضه الخاصَّة من دون أغراض من وُلِّيَ عليهم، لعدم تحصيله شروطَ الولاية بالاستجابة والمسارعة إلى الخدمة. وفي المنزل العاشر حصَّلَت خُناثَةُ علمَ الأذواق التي تُنقالُ، والتي لا تُنقالُ، فالأذواق المحسوسة، أو تلك التي يُفيدها النَّظَرُ الفكريّ تنقال، وأذواقُ الأسرار لا تنقال بأيِّ حالٍ إلَّا مَعَ تَكَلُّفٍ يُفسِدُها. والسَّبب هو أنَّ النَّوعَ الأوَّلَ له أشباهٌ ونَظائِرُ فَيَسهُلُ نَقلُهُ وَقَولُهُ،

بينما النَّوع الثاني لا مثيلَ له، فلا يُضبَطُ بأيِّ اصطِلاح كان، وإنَّما تُعطيه المشاهَدة. وفي المنزل الحادي عشر استولى على خنائةَ الخوفُ مِن نارِ جَهَنَّمَ لَمَا وَقَفَت على طَلبِها في الزيادة }هَل مِن مَزِيدٍ{، فلم تَسكُن إلَّا حينما سَيَضَعَ الجبَّارُ قدمَ الغَضَبِ فيها فَتَتَوَجَّع وتقول «قَط، قَط»، فَتَسَعُ رحمتُه غضبَه. وفي المنزل الثاني عشر، جالَت خنائة في درجات الدَّائرة فوقفَت على أجناس الناس ممَّن استَحَقُّوا الغضبَ وممَّن استَحَقُّوا الرَّحمة. وفي المنزل الثالث عشر، تحقَّقَت فِتَنَ التَّكاثر فحقَّقَتِ التوحيد بحقيقة اليقين في دار النعيم. وفي المنزل الرابع عشر، أدركَت سِرَّ قوَّة الإنسان المُصَوِّرَة التي تمكِّنُهُ مِن أن يَتَصَوَّرَ كلَّ شيء، بخلاف الأرواح التي ليست لها قدرةٌ فكريَّة على صياغة الصُوَر، وليس لها قوَّة إلَّا على التَّصوُّر فيما تعلمه لانعدام التفكير عندها، لكنَّ لها قدرةً عجيبة على التَّصَوُّرِ بذواتها في صُوَرِ ما يَقبَلُ الصُورَةَ، بينما تَصَوُّرُ الإنسان تابعٌ لتفكيره، فيتَصَوَّرُ كلَّ ما يُفَكِّر فيه. وفي المنزل الخامس عشر، أدركَت حقيقةَ الظهور بالنور، فلولا النُّور

لما ظهر شيء، ولهذا سألَت الحقَّ بدعاء النَبيّ «اللَّهم اجعلني نورًا»، لأنَّه كان يرجو أن يظهرَ للناس حتَّى تَعُمَّ رحمَتُه العالمين. فلولا عَصرُ الزيتون ما استَصبَحَ الناسُ بالمصابيح، فالزَّيتُ كامِنٌ في الثَّمَرَة، كذلك النورُ كامِنٌ في هيكله، فأراد أن يراهُ عامَّةُ الناس كما رآهُ الخَواصّ. وفي المنزل السادس عشر، عَلِمَت ما معنى الزلزلة التي تحدث في كُلِّ أرضٍ حسِّيَّة أو معنويَّة، ومنها أرضُ الإنسان الذي تتوالى عليه الزلازل كَي تُخرِجَ خَبءَ الأعمال، حقيرِها وجليلِها. وفي المنزل السَّابع عشر، تتلاحق الأحوال على الناس، ويظهر الحقّ ويتبيَّنُ عند اضمحلالِ الأشباح وخرابِها، لكنَّها عادت فَرَأت أنَّ بقاءَ الأشباح قد يرتفِعُ بالسَّالك إلى مُشاهدَةِ الأرواح والتَّنَعُّم بِصِلَةِ الربوبيَّة. والكلام دائر بين القوم في هذا المنزل بين فناء وبقاء، فمنهم من أثبَتَ ومنهم مَن نفى. ومنهم من قال لا مشاهدة إلَّا بفناء، ومنهم من قال تصحّ المشاهدة مع البقاء، والكُلُّ أذواق في أطباق. وفي المنزل الثامن عشر، صامَت عن كلّ شيء حتَّى تَستوهِبَ ليلَتَها، وأدركَت أنَّه لا يجوزُ نسبةُ الأحوال إلى الحقّ، فإنَّ ذلك جَهلٌ بالربوبيَّة، وإنَّما هي أحكامٌ، لا وُجُودَ لها إلَّا باللَّه. وفي المنزل التاسع عشر الذي منه بدأ كلُّ تعليم، وشَرُفَ المعلِّمُ على المتَعلِّم، وشَرُفَ العِلم على غيره، وشَرُفَ العلم بشَرَفِ ذاتيّ، أو بِحَسَبِ شَرَفِ مُتَعَلَّقِه. وفي المنزل العشرين، تحقَّقَت معنى الوَحي للرُسُل، والإلهام للصالحين. وفي المنزل الحادي والعشرين، عَلِمَت سِرَّ إحاطةِ الرَّحمة بكلّ ما يأتي الإنسانُ من أقوالٍ وأفعالٍ وأحوال. وفي

المنزل الثاني والعشرين أحسّت بما تُورثُهُ الفَترةُ والانقطاعُ من عذاب، على الرّغم من أنّ الرّحمةَ لا تنفكّ عن الموجودات، والحِفظَ لا ينقطِعُ عن المخلوقات، فاللّه حافظٌ لكلّ الوجود، ولو انقطع حِفظُهُ عن العالم لزال، «فَيَفنَى مَن لم يَكُن وَيَبقَى مَن لَم يَزَل». وفي المنزل الثالث والعشرين، أدركَت معنى العدل الإلهيّ الذي له حُكمٌ ينتهي عنده، ثمّ يَعقُبُهُ الفضل والإحسان.

فهذه المنازل كلُّها مندَرِجَةٌ في سورة الحجر التي هي مثل الإنسان الجامع. وللنساء ذَوقٌ فيها لانضِباطِهِنّ بحقيقَة الحَجر. فالأرحامُ مَحجورةُ الختام إلّا برُخصَةٍ شرعية. وللرجالِ مُشاكَسَةٌ في حقيقة الحَجر فيتضوّزون أنّ فَضَّ الخِتام مُؤذِنٌ برفع التّحجير، وليس كذلك، فإنّ الإذنَ ما حدث بالدخول إلّا بشرعٍ.

لا يعلم حقيقة الحَجر إلّا من علم حقيقة الرَّحِم. فما الرَّحِم إذن؟ إنّه وِعاءُ النَّسَب، وعَمُودُ القَرابة، وشجرة الإنسانيّة. ما معنى البنوّة أو الأبوّة أو الأخوّة أو العمومة أو ما شابهها؟ إنّها نِسَبٌ لا وجود لها لولا الرحم. لقد تحوّلَت إلى نَسَبٍ لمرورها على الأرحام. الرَّحِمُ خَيمةُ ضيافةٍ في بيداء الاختلاط. الرَّحم دفء ورحمة من بَرد الغُربة. الرَّحم أرضٌ تُقِلّ وسماءٌ تُظِلّ. الرَّحم ظِلٌّ وارِفٌ وماءٌ ذارِف. الرَّحم قاهر للوحدة واليأس. الرَّحم مَجمَعُ الأقارب والأباعد والحواشي، والفروع والأصول. فمن كان له رحم لم يخشَ شيئًا لأنّه كثير بأرحامه. ومن قطع الأرحام فقد استوجبَ اختلاطَ المياه، وانتهى إلى أن يكونَ نُكرةً تغُورُ في بحر النسيان. لولا الرَّحم لما تراحم الناس فيما بينهم. فمِن هذا الوعاء نشأتِ الحياة والرَّحمة والإنسانيّة. ليس هناك نِسبَةٌ بين الأزواج سوى المودّة والرُّحمة. ومن قطع رَحِمَهُ فقد قطع الرَّحمة واستوجب النّية والعذاب. عند أيّ درجةٍ في النَّسَب يكون قطعُ الرَّحم أو صِلَتُه؟ حَدُّه الأدنى إلى الدرجة الرابعة، أي إلى الأب والجدّ والعمّ وابن العمّ، وحَدُّهُ الأعلى إلى آدم. فقطع الرَّحم مخاصمة كلّ إنسان لأنّ بين بني آدم صلة رحم متّصلة وإن بَعُدَت، وصلة الرَّحم تبدأ من الدّائرة الضيّقة لتنتهي إلى دائرة الإنسانيّة.

لولا النساء لما عُرفت الرَّحمة، ولولا أرحام النساء لاختلطت الأنساب. ولولا النساء لما كانت بنوّة ولا أبوّة ولا أخوّة ولا إنسانيّة. فمن الرَّحم بَسقَت شَجرةُ النَّسَب الآدميّة، ونَبَتَ عَمودُ القَرابة الإنسانيّة. فمن حجَّر على رَحِمٍ، فقد علم سِرّ هذا السُّلطان الصّامت. ولولا التحجير لما عُرفت الأحياز.

تضاءلت خناثة في بنيتها وكأنّما طول السنين وتوالي النوائب يَنقُصان

من الإنسان ويَذكّانه أرضًا لِيَذكّراهُ بأنَّ أصلَه هو التراب الذي سيعود إليه. لقد نقصَت من جميع الجهات، لكنّها ازدادت علمًا بها حتّى استوجَبَت أن تُلقَّبَ بـ «سِتّ الجهات». عجيبٌ أنَّ تضاؤلَ الإنسان في جهاته يزيده علمًا بها، فيدركُ معنى الهوية لأنَّ كلّ المعارف والمعلومات تحدث له من تلك الجهات الستّ. كانت ترتدي ثيابها التي كانت قد صنعتها في عِزِّ الضولة والجاه. بدت فوق مقاسها اليوم، وثقيلةً في وزنها. ولولا أنّها كانت تلتزم الجلوس على الأرض لما أطاقت حملَها. حينما يدخل الإنسان في طور الشيخوخة تنفكُّ عنه الأشياء الزائدة فيتعرّى منها قبل أن يتعرّى نهائيًا في قبره إلّا من الكَفَن، الذي هو آخِرُ أبِسَتِهِ. يبدو كأنَّ طينةَ الإنسان تَحِنُّ إلى الطّين، إلى الأصل، إلى الأمّ التي تستر كلَّ العيوب، وتتلقّى كلَّ الفضلات، ويطأها البَرُّ والفاجِر، فتتلقاهم جميعًا برحمة الأمِّ الرَّؤوم الحَنون التي لا تلفِظُ أبناءَها أبدًا. حينما يصل الإنسان إلى حَدِّ الشيخوخة، يبدأ في التّناقص، ويتخَفَّفُ من كُلِّ حُمولة زائدة حتّى لا يبقى فيه إلّا ما هو ضروريّ لتدبير البدن لما بَعدَ طور البدن. ولما يبلغُ هذا الحَدَ يغادر هذه الدُّنيا وقد أصبح طينًا يابسًا. لقد عاد إلى أصله، إلى أمِّه ليعرف أخيرًا أنَّ الرَّحمة فناء في الأصل.

فَتَحَت خناثةُ نسخة «صحيح البخاري» التي كان قد أهداها إيّاها زوجها مولاي إسماعيل، فقرأت أوّل حديث طلع لها «إنَّ اللّـه خلقَ الخلقَ حتّى إذا فرغَ مِن خلقِه، قالت الرَّحِم: هذا مَقامُ العائِذِ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضينَ أن أصِلَ مَن وَصَلَكِ، وأقطَعَ مَن قَطَعَكِ. قالت: بلى يا رب. قال: فَهُوَ لَكِ». أخذت تتفكّر في أنّها لم تَقطَع يومًا رحِمَها مع دائرة قرابتِها القريبة أو الكبيرة، لقد عمِلت دومًا على صِلة رحمها. ثمَّ فتحت المصحفَ وأخذَت تقرأ سورةَ الحِجر حتّى أكمَلَتِ الآيات الأخيرة منها }وَلَقَد نَعلَمُ أنَّك يَضِيقُ صَدرُك بِما يَقُولُونَ فَسَبِّح بِحَمدِ رَبِّك وَكُن مِنَ الساجِدِينَ واعبُد رَبَّك حَتّى ياتِيَك اليَقِينُ{.

كانت قائمةً كأحدية الألف، ثمَّ ركعَت مثل برزخيّة اللّام. وبعد ذلك هَوَت ساجدةً مثل عبودية الرّاء. **شَهِدَتِ الحقَ بمشهد نور الأحديّة وطلوع نجم العبوديّة**، وارتبط الفرع بالأصل وتعالَقا مثل تَعالُق الألف واللّام. ظلّت مُنكَفِئةً في سُجودِها سُجُودَ الأبد حتّى جاءَها اليقين.

***

في سادس جمادى الأولى من سنة 1155 هـ/**1742**م، تُوفيت خناثة بنت بكّار، ودُفنت في مقابر الأشراف في فاس الجديد. حزن عليها ولدها السُّلطان مولاي عبد اللّـه، وحفيدُها سيدي محمّد بن عبد اللّـه، وأدركا أنَّ

ركنًا عظيمًا في حياتيهما قد انهَدَّ بوفاة خناثة. لم يتخَلَّف أحد عن جنازتها، وخرجت فاس عن آخرها تُوَدِّعُ رَبَّةَ الدَّار العَلِيَّة.

أهدى السُلطان مولاي عبد اللّه في هذه السَّنة هديَّة سَنِيَّةً إلى الحرمين ترحُمًا على والدته الحاجة خناثة، فبعث الركب المغربي محمَلًا **بثلاثة وعشرين مصحفًا** بين كبير وصغير، محلَّاة بالذَّهب، ومرصَّعة بالدُرّ والياقوت، على عدد منازل سورة الحِجر التي تحقَّقت بها والدته خناثة. كما أرسل المصحف الكبير العُقباني الذي كانت الدول في المغرب تتوارثه مع المصحف العثماني الذي كان عند بني أمية في الأندلس، وانتقل إلى المغرب في عهد الموحدين. والمصحف العُقباني هو مصحف عُقبة بن نافع الفهري الصَّحابي المشهور الذي فتح بلاد المغرب. وقد بقي بين ملوك المغرب حتَّى غَرَّبَهُ السُلطان مولاي عبد اللّه إلى الحجرة النبويَّة الشريفة. كما بعث معه ألفين وسبعمئة حصاة من الياقوت المختلف الألوان للحجرة النبويَّة. لعل الدُرَّ يَحِنُّ دومًا إلى مَوطِنِه، فعسى أهل تلك البلاد يحافظون عليه، وَيَرعَونَ هذا التَّاريخ الحافل.

---

4 يتَّضح من كلام المؤرخ والوزير أكنسوس أنَّ مَن نُصِّبَ من السَّلاطين خلال فترة الفتنة التي أعقبت وفاة المولى إسماعيل، هو من الثوَّار ولا إمامة له.

5 من زواج المولى إسماعيل ولالة خناثة جاء جلُّ ملوك الدولة العلويَّة في المغرب إلى يومنا هذا: مولاي عبد اللّه، سيدي محمَّد بن عبد اللّه، مولاي هشام، مولاي عبد الرحمن، سيدي محمَّد الرابع، مولاي الحسن الأوَّل، مولاي يوسف، محمد الخامس، الحسن الثاني، محمد السادس. فمن ذلك الصلب وهذا الرحم بسقت شجرة هذه الدولة.

نصل مع هذه الرّواية الجديدة عن الفاتحة النورانيّة «الٓرٰ» إلى نهاية السلسلة الثالثة ضمن مشروع الرّواية العرفانيّة، وهي السّلسة المتعلّقة بالفواتح الثلاثيّة (طسم، الٓمٓ، الٓرٰ) التي اشتغلتُ فيها تِباعًا على: المحبّة (رواية: **طوق سرّ المحبّة**)؛ والمعرفة (رواية الجنيد: **المعرفة**)؛ والرّحمة (رواية خناثة: **الرّحمة**).

إنّ أبجديّة الفواتح النورانيّة في الرواية العرفانيّة قد تنتظم بأشكال مختلفة. وفيما يخصّ هذا العمل الجديد المتعلّق بـ «الٓرٰ»، فإنّه ينتظم مع «حٰمٓ» ومع «ن»، ويشكّل المجموع الاسم الإلهي «الرحمن» في أبجديّة الأسماء الحسنى، ولهذا خصّصنا هذه الرواية الجديدة في السلسة الثالثة لقيمة الرحمة، بعد أن خصّصنا «طسم» لقيمة المحبّة، و«الٓمٓ» لقيمة المعرفة. وبهذا تكتمل عناصر البناء الجماليّ والقيميّ لهذه السّلسلة الثالثة. وسيلاحظ القارئ المتابع، إحالات خفيّة على رواية «بحر نون»، ورواية «الحواميم» للدلالة على أنّ «الرّحمانيّة» سارية في مجموع هذه الفواتح الثلاث، التي هي وحداتها البسيطة التي يتشكّل منها اسم «الرحمن» (الٓرٰ ـ حٰمٓ ـ ن).

قد يُستَشكل أحيانًا تسمية تجربة إبداعيّة بـ «المشروع»، مع أنّ مِن حَقّ كُلّ مُبدِعٍ أن يسمّي نوع الكتابة التي يشتغل عليها مشروعًا إن كان يحقّقُ شرطَ المشروع من حيث التّراكم والإضافة النوعيّة، وله وعيٌ بذلك. وللإجابة عن هذا الإشكال العامّ، نلاحظ أوّلًا أنّ لفظة «مشروع» قد تُستَعمَلُ في سياقات متعَدّدة فرديّة وجماعيّة. ويدلّ «المشروع» على كلّ الأعمال التي من شأنها أن توصِل إلى تحقيق هدف محدّد. وبعبارة مختصرة، إنّ المشروع هو مثل «مُسودّة للمستقبل»، وليس هو ذات الهدف المتحقّق. هناك فروق في استعمال لفظة «مشروع» بين الثقافتين

الفرنسيّة والإنكليزيّة. فإذا كان «المشروع» يعني في اللُّغة الفرنسيّة مجموعَ الأعمال المطلوبة لتحقيق هدف محدّد، فإنّه يصبح مفهومًا عمليًا في اللُّغة الإنكليزيّة، يشمل مراحل التّخطيط وتوقُّع المخاطر، وتحديد الفئات المستهدفة. أمّا إذا أخذنا هذه اللّفظة في السياق التداولي العربيّ الإسلاميّ، فتنضاف دلالة جديدة هي «المشروعيّة». فالنّظر إلى المشروع منضبط حتمًا بمآلاته. وهذا أمر زائد على المعاني السالفة في السّياقات التداوليّة الأخرى. ثمّ إنّ أيّ مشروع هو نسق متواصل البناء.

بعد هذه التوطئة في بيان مفهوم المشروع، يحقّ أن نتساءل عن صدقيّة نعت تجربة إبداعيّة بـ «المشروع الروائي». والواقع أنّه بعد الذي بيّناه، فإنّ الرّوائيّ الذي يكتب رواية من دون النّظر في كتابته إلى ما سيعقبها من روايات، لا يُطرَح لديه هذا الانشغال بالمشروع، بينما حينما تكون هناك رؤية متكاملة ومنضبطة بالبناء العامّ والسّياقات المختلفة، كما هو الشأن في مشروع الرّواية العرفانيّة ضمن أبجديّة الفواتح النورانيّة، فإنّ نعت هذه التجربة بالمشروع يأخذ كلّ دلالاته العميقة.

وارتباطًا بهذا النقاش، نطرح أيضًا قضية تسمية هذه التجربة بـ«الرّواية العرفانيّة»، عند مَن قد لا يجد هذا النوع من الرواية بالاسم والوَسم هذين في التقاليد الرّوائيّة الغربيّة[6]. لا شكّ في أنّ قَضرَ الرّواية على نواميس هذه التقاليد أمرٌ غير مُسَلَّمٌ به، على الرّغم من التّذرُّع بكون أوروبا هي مهد الرّواية. وردًّا على هذا الزعم، يمكن القول إنّ كلّ مجتمع يصنع شكل روايته كي تحمل همومه وآماله. والرّواية العربيّة أضحت اليوم بلا شكّ ديوان العرب، بقدر ما هي أيضًا ديوان الإنسانيّة، أيّ إنّها الشّكلُ الذي نجدُ فيه أكبرَ قَدرٍ من آمالِ الإنسان وَآلامِه. وحيث إنّ المجتمع العربيّ اختارها وأضحَت مِلكًا له، فله الحقّ في أن يُكَيّفَها مع أوضاعه، ولا يمكن التحجير على اختياراته باسم المركزيّة الغربيّة.

من جهة ثانية، فإنّ مِن أوّلِ مَن كتبَ الرّواية، سيرفانتيس الإسباني الأندلسيّ. ويكفي أن يكون أندلسيًا حتّى نتبنّاه في سياقنا الثقافي العربيّ، لأنّه ينتمي إلى فضاءٍ شَهِدَ أزهى عصور الحضارة العربيّة الإسلاميّة. كما أنّ شخوصَ رواية سيرفانتس، وثقافتَه، لها مَسحة أندلسيّةٌ واضحة من دون شكّ في ذلك. ومن هنا فهو ينتمي إلى ذاكرتنا الثقافية العربيّة. وبناءً عليه، لا معنى لأن نَفصِلَ الرّواية عن تقاليدنا الثقافية، ونُسلِّمَ بأنّ منشأها أوروبيّ حصرًا، إلّا إذا كنّا نُفَسّرُ نشأةَ الظواهر بشكل ميكانيكيّ كما في المادّيّة الماركسيّة، أو نعتبر الاختلاف في الدّين مُبرّرًا لقَضر الأشكال الثقافيّة على دين بعينه من دون إمكانيّة انتقالها، مع أنّ الحضارة الأندلسيّة ساهمت

فيها أعراق مختلفة الأديان، مثلما أنَّ ملايين العرب المسيحيّين اليوم ينتمون بالأصالة إلى الثقافة العربيّة الإسلاميّة مع استقلالهم بدين سماويّ خاصّ بهم[7]. وبناء عليه، فالمسألة ليست مقصورة على الاختلاف الدّينيّ، ولا على التفسير الميكانيكيّ للظاهرة الثقافيّة، لحصر اختصاص الرّواية بالغرب من دون سواه.

من جهة ثالثة، نجد في التراث العربيّ الكونيّ نماذج من السّرد الرّوائيّ سابقة حتّى على رواية «دون كيشوت» لسيرفانتس. فرواية «حيّ بن يقظان» لابن طفيل هي أوّل رواية فلسفيّة في التاريخ، ومهما يكن من نقاش في شكلها السّرديّ، فإنَّ الدارسين لها من الغرب والشرق، وكبار الفلاسفة والمفكّرين والأدباء الغربيّين، قد صنّفوها على اعتبارها رواية. وقد تُرجمت إلى لغات عديدة منذ قرون خَلَت. وهي رواية عربيّة المنشأ، كتبها الفيلسوف والأديب الأندلسي المغربيّ، ابن طفيل للخليفة الموحدي يوسف بن عبد المومن لِيُحبّبَ إليه الفلسفة ويُقرّبَها إليه بأسلوب أدبيّ جذاب، وهو إذ ذاك مستشار ووزير في قصر الخلافة في مراكش إلى أن توفي ودُفن فيها (581هـ/1185م). وقد تقلّبَ ابن طفيل في رحلة المعرفة التي أرادها لبطل روايته ابتداءً من المعرفة الحسّيّة، مرورًا بالمعرفة العقليّة البرهانيّة، وانتهاءً إلى المعرفة الروحيّة، أو العرفان.

إنَّ مثل هذا التَّمَلُّك المستقلّ والواعي لهذا التراث هو الذي يجعلنا نعتبر أنَّ الرواية جنس أصيل نشأ في بيئة ثقافيّة أندلسيّة، تَدِينُ بالكثير للثقافة العربيّة الإسلاميّة التي ازدهرت في الأندلس، ولا مجال لإنكار ذلك، إلّا لمن اعتاد على التقليد، وقَصُرَ عن الإبداع والأصالة، فَعَشِيَت عيناه، وشُلّت قُدُراتُه، وجَحَدَ كلَّ إبداع ذاتيّ وبَخَّسَه، ونسبَ الفضلَ حَصرًا إلى مَن يُقَلِّد. إنَّ الرّواية هي فن الحكي بامتياز، ولا شكّ في أنّه لا يَصِحُّ عند العقلاء، تجريدُ الثقافات الإنسانيّة المختلفة من تجربة الرّواية والحَكي بمختلف أشكالها، وحصرها في التقاليد الغربيّة بناءً على مناهج ترى الظواهر الثقافيّة انعكاسًا تامًّا لأوضاع ماديّة صرفة. **إنّ الإنسان في عمقه كائن روائيّ** بِغَضّ النظر عن الأوضاع التاريخيّة التي يتقلّب فيها، والأشكال الثقافيّة التي يبدعها أو يتملّكُها، ويبدع فيها بعد ذلك.

وبناءً عليه، فإنَّ الرّواية العرفانيّة تَدِينُ لهذا التراث العربيّ الكونيّ الباذخ بقدر ما تنفتح على التراث الإنسانيّ في تنوُّعه وغناه. والمشروع الروائيّ الذي أطلقناه منذ مطلع الألفيّة الثالثة هو رحلة في المعرفة بمختلف أنساقها البيانيّة والبرهانيّة والعرفانيّة[8]، وإنّما يطلق عليه، تغليبًا، اسم «الرّواية العرفانيّة» باسم الغاية من رحلة السّفر، إذ لا شكّ في أنَّ البيان

والبرهان أمران معرفيّان يتقلّب فيهما البطل حتّى يحصلَ العرفان على الكمال. وأعجَبُ لقومٍ يُحجّرون واسعًا، ويقلّدُون بلا أصالة، مَسالك لم تُحَجّر أصلًا مثل هذه المسارات الإبداعيّة في الرواية، بل اقترحت أنماطًا معيّنة في السرد نابعة من بيئتها ورؤيتها للعالم (الرّواية البوليسيّة، والفلسفيّة، والتاريخيّة، والواقعيّة، والنّفسيّة، ورواية الخيال العلميّ،...). إنّ الظاهرة السّرديّة الرّوائيّة ما زالت أشبه بمجَرّة مجهولة على الرّغم من كلّ الجهود المبذولة في تحليلها ووصفها وتأويلها، وإنّ الادّعاءَ بنهايةِ العِلم في الإحاطة بها عند حدود ما أنتجته الثقافة الغربيّة ـ على أهمّيّتها ـ لَيَدُلُّ على ضِيقٍ في الرؤية، وعُقم في الإبداع، وجُمودٍ غير مقبول. والنقد الروائي يحتاج إلى جرأة كبيرة لاستكشاف هذه المجرّة السّرديّة الهائلة التي ما زالت تتوسّع يومًا بعد يوم في الفضاء السّديمي السّرديّ. إنّ النقد يتغذّى على ما يقدّمه الإبداع المتجدّد، والإبداع بدوره يستفيد من النقد المواكب والمستشرف. ولا يمكن بأيّ حال التحجير على الأدب عند حدود ما انتهى إليه النقد من مناهج ونظريات، فسيبقى الأدب حرًّا طليقًا يغذّي النقد دومًا ويدفعه إلى مناطق لم يطرقها من قبل، وينبغي للنقد أن يستجيب لهذه الدّعوة التي ستقودهما معًا نحو آفاق جديدة. كما أنّ من حقّ كلّ شعوب العالم أن تُؤسّس لرواية فيها ما يُشكّل خصوصيّة ثقافيّة لها، وفيها أيضًا ما ينتمي إلى المشترك الإنساني. إنّ الإبداع الذي تصنعه الخبرة التاريخيّة لا يمكن استنساخه بأيّ حال من الأحوال إلّا على سبيل الاستئناس والتّعلم. وبناءً عليه، ولأنّ العرفان يشكّل جزءًا كبيرًا وأصيلًا من موروثنا الثقافيّ المتجدّد، كان من الطبيعيّ أن يظهر في مجالنا الأدبيّ التداولي روايةٌ تنهض بجانب من هذا الموروث الحيّ، هي الرّواية العرفانيّة. ولعلها تأخّرت في الظهور إلى هذا الزمان على الرّغم من وجود إرهاصات لها في العديد من الأعمال الرّوائيّة العربيّة السابقة.

مفاهيم نقديّة عرفانيّة:

تحدّثتُ في بيان سابق عن **الكتابة بالحال**، ولم أتعرّض لإمكانيّة اقتباس هذا المفهوم ونقل تداوله إلى مجالات إبداعيّة أخرى. وإسهامًا في تعميم إجرائيّة المفاهيم التي نقترحها، وتوسيع تداوليتها، يمكن أن نتحدّث مثلًا عن **العزف بالحال** بخصوص الموسيقى، و**التشكيل بالحال** بخصوص الفنّ التّشكيلي. وقس على هذا في جهة التلقي، بحيث يمكن قياسًا على **القراءة بالحال** أن نتحدّثَ عن **السّماع بالحال، والإبصار بالحال**. وهو واقع يُقِرُّ به كلّ مبدع كابَدَ التجربة الإبداعيّة كيفما كانت، بشأن حقيقة الحال كمُحَرّكٍ حاسِم في جهة الإبداع أو التّلقّي.

وبخصوص الحبكة، فإنّنا كنّا قد صرّحنا بأنّ الشّخصيّة المركزيّة في الرّواية العرفانيّة هي الفاتحة النورانيّة ذاتُها، أمّا الشّخصيات الإنسانيّة في الرواية فليست سوى مظهر من مظاهر هذه الشّخصيّة الكلّيّة، وترجمة لها في عوالم الإنسان. وبناء عليه، فإنّ الحبكة الرّوائيّة في الرواية التقليديّة ليست هي الحبكة نفسها في الرّواية العرفانيّة، لأنّ مركزَ الثقل هنا مُنصَبٌّ على الفاتحة النورانيّة. ويمكن أن نقول إنّ هناك تَوازيًا لحبكتين في الرّواية العرفانيّة، إحداهما الحبكة المتعلّقة بالشّخصيّة الإنسانيّة الفرعيّة (ابن العربيّ في رواية «جبل قاف»، أو الجنيد البغدادي في رواية «الجنيد: ألم المعرفة»...)، وثانيتهما الحبكة المتعلّقة بالشّخصيّة المركزيّة، وهي الفاتحة النورانيّة، ويمكن أن نسمّيها ضمن الجهد النّظريّ الذي نبذله من أجل توليد مفاهيم نقديّة جديدة **الحبكةَ العرفانيّةَ**. فالاشتغال في الرّواية يتمّ على مستويين: الحبكة الرّوائيّة التقليديّة التي تدور حول شخصيّات الرّواية، والحبكة العرفانيّة الخفيّة التي هي مناط الفاتحة النورانيّة. وينعكس هذا حتّى على مفهوم السيرة الأدبيّة التي هي أحد اهتماماتنا الإبداعيّة في هذا المشروع، فهناك سيرة تاريخيّة روائيّة للبطل، أو الشخصيّة الفرعيّة (ابن العربيّ، الششتري، ابن مَعَن، ابن الخطيب، الغزالي، السُلطان عبد الحميد، ابن حزم، الجنيد، خناثة أم السّلاطين...)، وهناك سيرة عرفانيّة عُليا للفاتحة النوارنيّة يحقّقُها الحديثُ عن تجلّياتها في مختلف مراتب الوجود. وهذه السيرة الأخيرة هي سيرة لاتاريخيّة، بينما سيرة الشّخصيّة الإنسانيّة الفرعيّة هي شخصيّة تاريخيّة. ولا شكّ في أنّ هذا التّمييز يجب أخذه بعين الاعتبار حتّى لا يقع الخلط بين الحبكتين، فَيُنسَبُ ما لهذه إلى تلك، والعكس. وينسحب هذا التصوُّر على قضية توظيف التاريخ في الرّواية، إذ إنّ هناك سردًا عرفانيًا لاتاريخيًا مرتبطًا بالفاتحة النورانيّة من حيث إنّها مرتبة وجوديّة، ويوازيه سرد تاريخيّ للشخصيّات الإنسانيّة في الرواية. ولعلّ التداخل بين السّردَين قد يُربِكُ القارئَ المستأنسَ بالرّاحة في تَلَمُّسِ المسارات، وَعَزوِها عَزوًا مدرسيًا فيما أَلِفَهُ من الأنساق الرّوائيّة التقليديّة. لكن هذا الإرباك هو أحد الأهداف المرجوَّة من أدبٍ يَرُومُ **قارئًا شريكًا** في كلّ العمليّة الإبداعيّة. والجامع بين السّردَين هو مفهوم **الشهادة بالحضور** الذي يُقَلّصُ البؤرة الزمنيّة الناتجة من تداخل الزمن التاريخيّ مع الزمن العرفانيّ.

إنّ قضية الزمن في الكتابة الرّوائيّة ليست اختيارًا شكليًا فحسب. إنّها أعمق من ذلك. ومن أبرز القضايا الأدبيّة المرتبطة بالزمن ما يسمّى الأدب الملتزم[9] أو بصيغة أخَفّ، الالتزام في الأدب. ولا شكّ في أنّ الأدباء الذين

اختاروا الاتّجاه الأوّل، إنّما يجعلون الأدب تابعًا للزمن الحاضر وقضاياه. وهم حين يفعلون ذلك، فكأنّما يبرمجون ما قد أُسمّيه مدّة «انتهاء الصلاحية الأدبيّة»، أو «العَطالة الأدبيّة المبرمجة» لأعمالهم، وأترجِم هذا المفهوم إلى اللُّغتين الفرنسيّة والإنكليزيّة بـ Obsolescence littéraire programmée /literary programmed obsolescence، مع انقضاء بواعث وزمن تلك القضايا التي اختاروا أن يُلجِئوا الأدب كي يلتزم بشأنها، وبالتالي، فإنّ مثل هذا الإبداع الأدبيّ ينتهي بانتهائها. إنّ الأديب الملتزم، بالمعنى الذي ذكرناه، وهو يُكره الأدب على الالتزام بقضايا محدّدة في زمنها، فإنّه في حقيقة الأمر يَحكُمُ على نفسه بالخضوع لاستبداد الواقع، ويرى الأدب استنساخًا له، وتابعًا له، وبالتالي فهو لا يمكن أن يكتب للمستقبل، ويحصر نفسه في حاضِرٍ لا يلبَثُ أن يَنطفِئَ فتنطفِئ نتائجُه. وكما كان يقول سارتر في كتابه «الأدب الملتزم» الذي ألّفه في ظروف ما بعد انتهاء الحرب العالميّة الثانية: «نحن لا نريد أن نربحَ قضيتنا بعد عرضِها على الاستئناف، أو يحصل الاعتراف بما قدّمناه بعد الموت، لأنّ القضايا المعروضة لا شكّ في أنّها تُربح أو تُخسر خلال حياتنا» (ص. 14ـ 15). لذا، فإنّ صلاحية أعمال هؤلاء الأدباء تنتهي بسرعة كبيرة لأنّ المستقبل لم يكن يعنيهم، وقد استعجلوا رِبحَ قضيّتهم خلال حياتهم. إنّ مثل هذه الأعمال مبرمجة كي تنتهي صلاحيّتها كما تنتهي صلاحية العديد من المنتوجات الاستهلاكيّة اليوميّة.

أمّا بالنسبة إلينا، فإنّ الالتزامَ المطلوب من المبدع ليس شيئًا آخرَ غير التزامِه بأن يكونَ مبدعًا، لا أن يكونَ انخراطُه السياسيّ عنوانَ هويّته الأدبيّة، لأنّه حينئذ لا يُعَبّرُ إلّا عن الأيديولوجيا لا عن الأدب، ويجعل الشأن الأدبيّ خاضعًا للشأن السياسيّ، كما يفعل من يُخضِع الشأن الدّينيّ للسياسيّ، أو الشأن الثقافيّ للسياسيّ، وما سوى ذلك من أنواع الإخضاع القَسريّ الذي عَطّلَ الإبداع والأدبَ والفلسفة والثقافة والدين وجعلها تابعة لخارج عنها، فلا هو أفاد السياسة، ولا هو نَفَعَ الأدب ولا الفلسفة ولا الثقافة ولا الدين. وقد نُعت جان بول سارتر في الأوساط الأدبيّة، بـ «حَفّار قبر الأدب» بسبب نضاليّته الجامحة في إخضاع الإبداع الأدبيّ للسياسة الآنية. وما من شكّ في أن تداخلَ الأزمنة في الرّواية العرفانيّة ينبغي له أن يُقرأ وِفقَ هذه المَحاذير، أي إنّ الشهادة على الحاضر هي في الوقت ذاته شهادة على المستقبل، أو كما يقول بودلير «إنّ الغاية الجمالية للفن المعاصر هي أن يُخَلّدَ الواقعَ المتحوّل»، بمعنى أنّ الإبداع الحقيقيّ لا يبرحُ أن يكونَ جدلًا بين اللّحظة الحاضرة والخلود. إنّ الالتزام في الأدب كما

نفهمه، أجلُّ من أن يحصر في الاختيارات السياسيَّة لكل مبدع[10] حتَّى تراهُ يتكلَّفُ في أن يُخضِعَ اختياراتِه الإبداعيَّة والجماليَّة والتَّخييليَّة لسابق عنها. ولا يعني هذا أنَّ المبدع لا يمكنه أن تكون له مواقف بشأن ما يجري من وقائع وأحداث، وما يطرح من قضايا في مجتمعه أو في العالم، بل على العكس من ذلك، فيمكنه أن يُصَرِّفَ تلك المواقف بكلّ حرِّيَّة ومسؤوليَّة في مختلف منابر النقاش العموميّ المفتوحة أمامه، بشرط ألّا يجعلَ الإبداعَ مَطِيَّةً ودَرِيعَةً لتلك المواقف. وهو حين يفعل ذلك يتوقَّف عن أن يكون ناطقًا باسم الإبداع ليصبح ناطقًا باسم السياسة، ولا يختلف عن غيره من الفاعلين السياسيّين، وسَيُعامل حينَها وِفقَ هذا الأساس.

إنَّ الإدلاءَ بشهادة الحضور كما نفهمها، هي هذا السَّفرُ الرُّوحي المتردِّد دومًا بين الأزمنة التاريخيَّة والعرفانيَّة لأنَّه سفَر في الوجود، وبالتالي فصلاحيَّته لا يحدِّدُها الزمنُ الطبيعيّ، ولا يمكنها أن تنتهي بانتهاء قضاياه، وإنَّما تَكمُن صلاحيَّتها في تمكُّنِها في الوجود بحيث تكون الأوعية الزمنيَّة مَرائي متنوعة لظهورها. ولعلّ هذا هو ما يجعل الأدب الرفيع كونيًا بكلّ مقاييس الكونيَّة لأنَّ له هذه القدرة على الشهادة، أي الحضور التامّ في كلّ الأزمنة.

صحيح البخاري:

كلمة أخيرة نقولها بشأن إحدى القضايا التي عالَجَتها هذه الرِّواية، وتتعلَّق بـ «صحيح البخاري»، الذي يُوثَّقُ على أعلى درجات التوثيق للمصدر الثاني من مصادر المعرفة الدِّينيَّة عند المسلمين، بنصّ الحديث: «لقد أُوتِيتُ القرآنَ ومِثلَه معه». وهذا المِثل هو السُّنَّة. وحيث إنَّ الفواتح النورانيَّة التي اشتغلت عليها في أعمالي الرِّوائيَّة هي من المصدر الأوَّل، فإنَّ الاشتغال على صحيح البخاري في هذه الرِّواية الجديدة تأكيد على أهمِّيَّة المصدر الثاني من مصادر التشريع لدى المسلمين، وتِبيانٌ لمدى الترابط بين المصدرين.

وفي السِّياق التَّاريخيّ الذي اشتغلت عليه في هذه الرِّواية، فإنَّ الدولة العلويَّة الشريفة في المغرب مثلًا، قد بنت أُسسَها المعرفيَّة وقواعدَها المؤسَّساتيَّة، على القرآن الكريم، وصحيح البخاري، حتَّى سُمِّيَ الجيشُ النِّظاميّ الذي أسَّسَهُ السُّلطان مولاي إسماعيل جيشَ «عبيد البخاري»، كما أنَّ البيعة لملوك المغرب تؤخذ أوَّلًا في القبَّة البخاريَّة في القصر السُّلطانيّ. ولعلَّ من الواجب أن يَتِمَّ فَتحُ متحفٍ حول تاريخ صحيح البخاري لإبراز هذه العلاقة بين **كتاب ودولة وحضارة**. ولا شكَّ في أنَّ مثل هذه المبادرة ستساعد على التَّلحيم الثقافيّ حول مصدريَّة هذا الكتاب في ضوء حملة

التشكيك التي تَشنُّها عليه جهات مشبوهة، من دون أدنى معرفة بالقواعد العلميّة لفهم النصوص، أو إدراك للسّياقات والمآلات وأسباب وُرود الحديث.

د. عبد الإله بن عرفة

الرباط، المغرب

---

6 ومع ذلك، توجد روايات أوروبيّة تتّخذ من أحوال النفس الإنسانيّة وروحانيّتها موضوعًا لها، كما في كتابات الروائيّ **هيرمان هسّه** (١٨٧٧-١٩٦٢)، ولاسيّما في رواياته: **ديميان، سيذهارتا، ذئبُ السّهوب، لعبة الكُرَيّات الزجاجيّة**. وقد أهلّته هذه الرّوايات كي يحصل على عدّة جوائز، من أهمّها جائزة نوبل في الآداب سنة ١٩٤٦، ويصبح واحدًا من الأسماء الرّوائيّة العالميّة.

7 كان الأديب واللُّغويّ الكبير، الشّيخ إبراهيم اليازجي (١٨٤٧-١٩٠٦) المسيحيُّ الديانة، يحفظ القرآن الكريم، ويَحُثُّ الأدباء العرب المسيحيّين على حفظه لاكتساب مقوّمات الأدب.

8 قياسًا على الرّواية العرفانيّة، هناك إمكانيّة لظهور ما يمكن تسميته: الرّواية البيانيّة، والرّواية البرهانيّة.

9 ظهرت إشكاليّة الالتزام في الأدب الحديث نتيجة تضافر ثلاثة عوامل: **أوّلًا**، استقلالية الأدب منذ منتصف القرن الـ 19 عن المجتمع والسُّلطة السياسيّة المتحكّمة فيه، واقتناع الأدباء بالاحتكام إلى نظرائهم فقط. **ثانيًا**، ظهور ما سُمّي «المثقّف» مع مطلع القرن الـ 20 واحتلاله دورًا اجتماعيًّا جديدًا من خارج الجامعة ومؤسّسات الآداب الكلاسيكيّة. **ثالثًا**، قيام الثورة البولشفيّة سنة 1917. وأفضت كلّ هذه العوامل إلى ظهور إشكالية الالتزام انطلاقًا من الفلسفة الوجوديّة المسيحيّة، لكنّ المفهوم توسّع من نطاقه الفرديّ ـ كما في هذه الفلسفة ـ ليتوسّع نحو المجتمع، حتّى أفضى الأمر إلى ظهور قضية «الأدب الملتزم» مباشرة بعد انتهاء الحرب العالميّة الثانية.

10 كثير من الفلاسفة والأدباء كانت لهم آراء سياسيّة غير مقبولة اليوم في الأوساط الثقافيّة والسياسيّة لمجتمعاتهم، لكنّ ذلك لم يمنع الاحتفاء بأعمالهم الإبداعيّة على أرفع المستويات لأنّ الذي بقي بعد انتهاء صلاحية تلك الآراء والمواقف السياسيّة هو الالتزام بالإبداع الخالد.